بيار اورهان

الخابور يحترق املا

رواية

E-Pirtûk www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

الخابور يخترق أملا

أورهان بيار

منشورات مدرسة ساريا ـ باران الأدبية

مطبعة روناهي
تاريخ الطبع 2003

الفصل الأول

كالواقف فوق صخرة عالية تطل على البحر، يرنو بعيون مليئة بالحسرة إلى سرب الطيور المحلقة في الأفاق البعيدة، نحو أعالي الجبال في الشمال، وبطرف العين ينظر إلى الأسفل حيث البحر الهائج والأمواج المتلاطمة، تلتهم كل ما يقع بين براثنها الفتاكة، يحدق في أولئك الذين غرقوا وسقطوا في مياه ضحلة من الغرائز والمنافع.

الناظر إليه يظن بأن الدنيا بكامل أثقالها ومساوئها قد تكالبت عليه وتوحدت ضده لتحوله إلى شيء تافه وضيع يؤمن بضعفه وهشاشة موقفه، ويستعظم الجبهة المعارضة له. يرفع يده بالعلم الأبيض معلناً الإستسلام بلا قيد ولا شرط، راضياً بالحياة في أبسط أشكالها، تاركاً الدنيا بما فيها للغير يرتع فيها، ويرضى بالإنزواء في زاوية ضيقة حول فكرة معينة، فاراً هارباً من مواجهة الواقع.

لقد أدار ظهره لتحديات الوجود والحياة ولم يبذل إلا محاولات بسيطة وفاشلة لإثبات الذات وللولوج إلى دنيا النضال، التي هي سمة البشر منذ أول غضبة للخالق على المخلوق، رضي بالقدر وقبله كما هو، فبقي كالريشة؛ معدوم القوة تلعب به أبسط الرياح وأضعفها قوة، بعد أن تناسى ما قرأ وفهم من أن القدر ليس إلا خرافة إبتدعها الظالم ليستمر في ظلمه على مر العصور.

إنه بعيد عن عصره ولا يعيش في زمانه، يتمسك بزمان قديم بالٍ، فينتهي قبل أن يبدأ ويخطو اولى الخطوات؛ ينكسر، يتحطم، يحترق ويبكي على أيام العز؛ أيام كان فيها الإنسان أخا للإنسان في الأفراح والأتراح، مع أن مثل هذه الأيام لا وجود لها، والمدينة الفاضلة لا تزال أملا.

كالأرض البور المتروكة من قبل أصحابها، أصبحت مرتعاً للضار من الأعشاب والحشائش. هكذا ظل على هامش الحياة، فها هو يعيش من دون أن يكون له أي تأثير أو إعتبار، وغداً سيموت دون أن يشعر به أحد، فأين عقله وقلبه..؟ وماذا حل بالذكاء الذي كان يتمتع به لفترة خلت..؟

العائلة خلقته والمجتمع اتم صنعه، قبل خلقهم وصناعتهم نظر إليها كأحد المقدسات، من دون بذل أي جهد للوقوف على قدميه، وكان روح حاله تقول: هذا هو المكتوب على الجبين ويجب أن تراه العين.

يقال بأن الألم والتفاؤل هما بهجة الحياة، إلا أنه فقد جميع آماله، واكتفى بأمل واحد وهو جنة ما بعد الفناء، الموجودة فقط في عقله وعقول أمثاله، ممن تركوا الدنيا، فهل هو الذي اختار هذه المحطة التي هو فيها الآن، أم الظروف هي التي أجبرته على ذلك..؟ بينما فكره يتجول في محطات اخرى، وقلبه يعشق اموراً مختلفة منعت عليه..!!

في المحطة التي أوصلته إليها الحياة، يجلس لوحده فوق سجادة الصلاة، يقرأ القرآن بصوته الجميل والعذب النابع من القلب، والأقرب إلى الغناء، صوته هذا يحرك العواطف ليوصِلها إلى ذروة الهياج والنشوة، عينه التي تستمر في القراءة تذرف الدموع من دون رغبة، فهل هي دموع الحزن على فقيد عزيز على القلب، أم مخافة من يوم الحساب، أم

دموع الندم على امور لم ينجح في تحقيقها فبقيت على قلبه كحجر الصوان، كغصة في حلقه، تكدر أيامه وتمنع النوم عن مقلتيه..؟!

ضمن الغرفة التي تفتقد معظم المستلزمات، لا توجد إلا حصيرة من النايلون وفوقها سجادة جميلة ناعمة، الأرض كانت مبلطة ونظيفة، أما الجدران فقد دُهنت باللون الأبيض، بينما الإنارة من النوع الضعيف غير المُبهر للعين، لأنه يحب الأجواء الأقرب إلى الظلام. على الجدران علقت عدة صور عزيزة على قلبه. إحداها مكتوب عليها إسم الله والرسول، أما الثانية فهي لـ "جكر خوين"، والثالثة لشاب في مقتبل العمر، واقف فوق صخرة وهو ممتشق السلاح. الباب مغلق بإحكام بشكل دائم، دون أن يتجرأ أحد على إقلاق خلوته، عدى الام التي تؤمن له حاجاته.

يجلس فوق السجادة يمضي وقته بالصلاة والدعاء، مع تلاوة القرآن بشكل محترف، لحيته الشقراء الناعمة التي تغطي ذقنه مع ما يرتديه من لباس متواضع، بالنسبة إلى أقرانه من الشباب، تظهره بشكل يوحي للناظر ـ الذي يجهل حقيقته ـ بأنه شيخ جليل أثقلت الدنيا كاهله، وهو الآن يهرول مسرعاً لكي يغفر الذنوب التي إقترفها خلال عمره المديد وذلك بتلاوة القران وطلب العفو والغفران. نعم هكذا يوحي مظهره مع أنه شاب لم يبلغ العشرين من العمر بعد.

لا يزال في ربيع عمره، يفضل الوحدة مع عباداته والصور التي ينظر إليها، رغم الدنيا الشاسعة الأرجاء والملونة. يقضي معظم ساعات يومه ضمن السكون، حيث تتوفر الإمكانية للتأمل والشرود، دون أن يتطفل عليه أحد. يرتل الأيات بحنان وشاعرية، وكأنه يعبر عن جميع المشاعر

والأحاسيس المكبوتة في خوالج وأعماق قلبه. يحاول بالقراءة الوصول إلى عوالم يرفض لسانه مجرد ذكرها، فيكتفي بالرحيل إليها في الخيال والتأمل.

يظهر كالماء الراكدة، بيد أنه كالسيل الجارف في حقيقة الامر، في عالمه الداخلي بحر هائج يتصارع فيه العديد من الأضداد؛ قلبه، عقله، الرموز وأشكال الحياة المختلفة..الخ. كثيراً ما يتوقف عن القراءة ليتمعن في الصور المقابلة له على الجدار، وكل صورة تمثل جزءً من حياته الماضية، ولا تزال تؤثر في فكره من دون أن يتمكن من الوصول إلى الراحة والإستقرار. مع أنه تخلص ولو لفترة، من مغريات الحياة، بالإعتكاف والدراسة الدينية، لكن الصورة التي يظهر فيها ذلك الشاب وهو يمتشق السلاح، تُحول روحه إلى حصان هائج عنيد لا يقبل الترويض وتفشل جميع المحاولات للسيطرة عليه. كلما نظر إلى الصورة تتحرك الآمال والرغبات في قلبه، فهي رمز يذكره بسقوطه وقبوله للهزيمة التي لا يزال يتمرغ في أوحالها، مع كل نظرة يهتز كيانه، تتزلزل مشاعره ويفقد السيطرة على عقله، وتقوده مخيلته إلى الماضي القريب والبعيد، تذكره بالأيام السعيدة القليلة، والحزينة الكثيرة والمؤلمة، وبالضعف الذي أظهره تجاه الظروف ورغبات العائلة، هذا الضعف الذي أوصله إلى السجن بين جدران أربعة، إلى الإلتصاق بالأوهام وإجتراء الهموم والحسرة.

- 2 -

قبل ولادته ومجيئه إلى هذه الدنيا بفترة طويلة، عندما كان نصفه في البيضة غير الملقحة ونصفه الآخر في النطفة، وقبل

أن يطلق اولى الصرخات وأقلها ألماً في حياته، كانت عائلته تسكن في إحدى القرى القريبة من الحدود. آنذاك كانت المعيشة وتأمين اللقمة لإسكات الجوع وتفادي الموت يستوجب كفاحاً وجهداً جهيداً. معظم الناس كان يعتمد في تأمين مؤنتها المتواضعة على رحمة السماء وما تهبه من المطر، فمن دون المطر تجدب الأرض وتبقى غلاتها في باطنها، فيعم الممل ويسود الغلاء، ولكل يعاني من قساوته بدءً من مالكي الأرض مروراً بمربي الماشية وصولاً إلى الفلاحين والرعاة. بعضهم يفقد مستوى الرفاه النسبي الذي تَعود عليه والبعض يقترب من حافة الموت فتتحول الحياة نفسها إلى مأساة، يكون الموت أهون ألف مرة من مد اليد وطلب المعونة من اناس لا يستحقون إسم البشر.

كانت امه تتحدث له عن تلك الأيام العصيبة والسنين السود التي مرت على البلاد، فَقَدَ الناس معظم ممتلكاتهم، باعوها وتخلو عنها من أجل تأمين خبز الشعير الذي كان يوزع بعد أن يكون قد أصبح خبزاً، بمقادير محددة ومتساوية على أفراد الاسرة من قبل الامهات. خبز القمح كان من النوادر، كالفاكهة بالنسبة للفقراء في أيامنا، وعندما يحصل البعض على هذا النوع من الخبز يأكلونها كما وأن تكون الجبن، ويتصارع الصغار للحصول على أكبر الحصص. بعض الناس أكل لحم الأحصنة والآخرون أكلوا لحوم حيوانات اخرى دون أن يعلنوا ذلك، فالجوع لا قلب له ولا يرحم.

بهذا الشكل كانت امه تعيد ذكر تلك الصعوبات مرات ومرات، خاصة عندما تشاهده وبعض اخوته يرفضون بعض أنواع الأطعمة التي توضع أمامهم فوق المائدة، كانت تغضب وتقول:" أنتم جيل لا يعرف قيمة الخبز ولو شهدتم السنين

السود، وبقيت بطونكم شبه خاوية خلال شهور عديدة، من دون أن تتوقف أمعائكم عن الصراخ والألم، عندها فقط كنتم ستحمدون الرحمن على ما منحه لكم من حيث لا تدرون".

عوائل عديدة ضاق بها العيش ضمن القرى لأسباب كثيرة، فمن المحل الذي يهجم بين سنة واخرى إلى الجراد الذي يحل كلعنة من إله غاضب، وأيضا تهجير البعض من أصحاب الأرض بعد أن استولت الحكومة على أراضيهم عنوة، وأعطت للمستوطنين من أبناء القومية الحاكمة، إضافة لكل ذلك تكاثر السكان الذي لم يحد منه الجوع والفقر.

المدن لم تكن مدناً إلا بالاسم فقط، كانت قرى كبيرة، لكن الهجرة المتزايدة بإضطراد مع تقدم السنين أجبرت الحكومة على زيادة الإهتمام وتطوير الخدمات. المهاجرون كانوا يصلون كأسراب الطيور التي تغير أماكنها مع تبدل فصول السنة. كانت أحلامهم تسبقهم في الوصول إلى المدينة حيث العمل والخبز الأبيض، لكن الواقع كان أقسى من جميع توقعاتهم. فكل شيء متوفر وبكثرة ليلاً نهاراً، وفي الحر والبرد؛ يوم بلا عمل يعني يوماً بلا طعام.

مثل الكثير من الناس حملت عائلته أثاثها المتواضع المكون من الفراش البسيط وبعض الألبسة شبه الممزقة، مع الآمال الزاهية بحياة أفضل وأحضان دافئة، وطفلة لا تزال في الصرة هي اخته الكبرى. ولده الذي كان ما يحمله من نقود لا يكفي أكثر من عدة أيام، بدأ بالعمل منذ اليوم الثاني من وصولهم، قام بالعديد من الأعمال، طرد من بعضها لم يرض هو عن بعضها، ضاقت به الدنيا، أصابته أمراض مختلفة، وبالرغم من كل شيء لم يتوقف عن العمل إلا نادراً. والدته لا تتذكر يوماً تخلف فيه عن العمل، ولذلك تُفاخر بزوجها

العصامي الذي صنع نفسه وبيته العامر بجهوده وعرق جبينه. عمل هذا الوالد المجاهد، غير المخير، تحمل أوجاع جسده وتصرفات أصحاب العمل عديمي الرحمة، ممن لا يفكرون إلا بالمال، كان يعمل لأنه يعي مسؤوليته عن عائلته، الذي هو مدبرها الوحيد.

كان هدفه الأول هو شراء بيت يأويه وعائلته، ليتخلص من عذاب بيوت المستأجرة، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف كانوا يكتفون بأبسط أنواع الأكل واللباس، كان يخاف من الأيام وغدرها وهو لا ينسى أيام الجوع والحاجة ويحتفظ بأغلب المال الذي يكسبه، يحوله إلى ذهب ويسلمه إلى بيت الأمان (زوجته). والدته أعادت تكرار هذا الموال على مسامعه آلاف المرات من دون أن تمل أو تتعب وهو الطفل، كان يستمع إليها ويؤنب نفسه، وكأنه السبب في كل ما عانته امه وأبوه وجيلهم كله..!!

هكذا مرت بهم الأيام بطيئة عسيرة، كانوا يخطفون فيها اللقمة من بين أنياب الكواسر والضواري. يصارعون الجوع والحاجة والخوف، إلى أن فتحت الدنيا لهم أحضانها، أو الأصح هم الذين نجحوا في التعامل مع ظروف المحيط الذي يعيشون فيه، فأصبحوا من الميسورين بعرق الجبين والعمل المتواصل، وقد ساعدهم على النجاح في ذلك أيضاً، قطعة الأرض، التي ورثوها بعد وفاة الجد، التي تقدم لهم في سنوات الخير مبلغاً جيداً، يساهم في تحويل حالتهم من الحسن إلى الأحسن، فأصبحوا ملاكاً لبيت كبير مع عدة محال تجارية. لكن ومع ذلك يبقى الخوف من الفقر رفيقهم الدائم، يعشعش في مخيلتهم، فتراهم أقرب إلى البخل ويستحيل أن يبذروا أقل مبلغ من المال قبل أن يتأكدوا من الفائدة التي ستعود عليهم من وراء ذلك. الليالي الطويلة التي بقوا فيها بلا طعام، وهم

يحلمون بالعثور على قطعة من الخبز، والناس الذين رفضوا تقديم أي شكل من المساعدة المالية ـ حتى ولو كان ديناً ـ تلك الأيام لا يمكن أن تنسى، لقد بقيت كالنقش على الحجر لا تمحيه السنين ولا عوامل الحت والتعرية.

- 3 -

العائلة هي التي تشكل شخصية الطفل قطعة قطعة، تورثه العادات والتقاليد مع الأخلاق والتربية، تشجعه على بعض الامور والآمال وتمنعه عن بعضها الآخر، ودلخواز كان الأصغر بين إخوته ولم يكن أمامه أية فرصة لإختيار شكل آخر للحياة، وتجاوز الحصار الذي فرض عليه بأسماء هي أجمل في الوجود" الامومة والحب وتأمين الحياة والإرشاد إلى الصلاح..."

الحصار المجمل بالمفاهيم الأخلاقية والمقوى بنظريات المنفعة، لم يترك له أية فرصة، حتى سنين متأخرة نسبياً من عمره، منذ صغره تم ربط وتقيد جسده وفكره، ورُسم له الحدود التي لا يسمح له تجاوزها، هذه الحدود والعادات التي فرضت عليه بقيت المانع والعائق أمام نموه الطبيعي ـ فالاناء ينضح بما فيه ـ كما قيل عند القدماء.

الحب الذي ينهمر كالمطر الغزير ولا يتوقف، يتحول إلى سيل جارف، ومن ثم يبدأ بالتخريب و التدمير، لهذا يقال: " ومن الحب ما قتل". حب العائلة لدلخواز، آخر العنقود، تجاوز حدوده وقتله أخيرا من حيث لا يدري ولا تدري العائلة أيضاً، فالحالة المعيشية التي تحسنت، منحتهم القدرة على تربيته بشكل مناسب، وفق معاييرهم الخاصة بهم، أمْنوا له مختلف الإحتياجات الضرورية والفضولية، ليحيا ضمن اليسر

على عكس اخوته الذين ذاقوا الامرين إلى أن كبروا. هدف العائلة كان يتمحور حول إعداد دلخواز لكي يرفع اسم العائلة، وذلك بالحصول على شهادة الطب.

الوالدان كانا محرومين من التعليم، وينظران إلى الدنيا من منظارهما الضيق، فهمهما لامور التربية لم يكن يتجاوز العادات السارية ضمن المنطقة، وعلى هذه الشاكلة قاما بتربية جميع أولادهم، لكن دلخواز الذي منحه لهم الله في سنوات الخير والغنى، تحول إلى بنك تودع فيه رغبات وآمال العائلة المجهوضة، ليتحول الطفل إلى مجرد ذيل للعائلة وللام بالذات، فلم تتطور لديه أية جوانب مستقلة وفردية. أصبح ممثلا للآخرين ممن ساهم في تأهيله. يفكر مثلهم يتحدث بلسانهم، أما أماله ورغباته فلا وجود لها، حتى لو وجدت تبقى كالسحب في الصيف تمر بلا مطر. أفكاره الذاتية تظل ملكاً له من دون أن يصرح بها لأحد، فتتراكم بمرور الزمن لتتحول إلى سلاسل وقيود تكبل يده ورجله، وتتدخل في خياله، لتعرقل سيره وحريته في الطيران. كل شيء فيه أصبح مقيداً بنظام الممنوعات الإجتماعية والعائلية، ولم يتح له المجال لكي يصبح صاحب فكر ورأي مستقل. إنه معدوم الرأي ضمن محيط لا يعترف بوجوده كإنسان يملك عقلاً وروحاً.

كلنا ننتظر نجاحك ونيلك للشهادة على أحر من الجمر، و سنلبي كافة متطلباتك مهما غلت وكثرت، فقط عليك أن لا تخذلنا، فنحن أهلك وأحب الناس إلى قلبك. بهذه الكلمات ومثيلاتها، كان يتم تحديد إطار الطوق الناري الذي يشارك الجميع في تقويته، هؤلاء الذين يختلفون في أغلب الأحيان، متفقون حول مصير هذا المسكين الذي عليه أن يعيش حياتاً غير حياته. أحلاماً وأمالاً هي لاناس عجزوا عن تحقيقها وألقوا براياتهم من اولى المواجهات.

والدته، ومن دون منازع، كمعظم النساء، كانت صاحبة الدور الرئيسي في تنشئته، إلا أنها ومع الأسف كانت غير مؤهلة لهكذا مهمة. فتربية الطفل وتجهيزه لخوض معترك الحياة، هي من أصعب المهام على وجه البسيطة، إلا أنها عندنا في الوطن المنسي" كردستان" أبسط من شرب كأس الماء، فما على الرجل والمرأة إلا إرضاء الشهوات، والباقي يتحمله الأطفال؛ الحرمان والجهل وحياة الشوارع....والخ.

هذه الام التي تصدت لمهمة تكوين عائلة كبيرة تتمتع بشخصية قوية تؤهلها للإدارة، لكنها تعيش خوفاً رهيباً من المرض والفقر والشيخوخة. تأمين حياتها في الشيخوخة هو شغلها الشاغل، لذا كانت تتحدث بكثرة عن بر الوالدين الذي يتكفل بإيصال المرء إلى الجنة، وأيضاً عن الذين يهملون أبائهم، فيعاقبهم الرب بالنار في جهنم. كانت تتحدث لأولادها وللصغير بالتحديد، مع أنها كانت القدوة السيئة، فهي التي رفضت إستضافة حماتها، ولم تعتن بها، بل أجبرت زوجها على إرسالها إلى بيت أحد اخوته، ومع ذلك لم تكن كلماتها لتذهب هدراً، بل تجد لها تأثيراً بالغاً في وجدان دلخواز.

لسنين طوال بقي دلخواز في موقع المتلقي، يرضى بكل ما يلقى عليه، سيئاً كان أم حسناً، ضاراً كان أم نافعاً، لم يكن إلا نبتة طرية تحت رحمة أصحابها، تنمو بالرعاية وتسقط ميتة بالإهمال والجهل. حولته العائلة إلى كتلة طين مرنة يعجنونها ومن ثم يعطونها الشكل الذي يريدونه، أما هو فظل يحس نفسه مذنباً وسبباً في المأسي التي عانوا منها، وعائقاً لعدم تحقق طموحاتهم، لذا كان يتحضر للعب دور المضحي في سبيل العائلة وسعادتها، وبشكل خاص المسكينة امه.

موقفه كان نتيجة حتمية للأحاديث المستمرة التي تهجم عليه وترتسم في ذاكرته، تؤكد له مقدار التضحيات الجسام التي قدمتها العائلة لأجله. حتى ذلك الوقت كان مجرد طفل لا يخرج من المنزل إلا برفقة الام، فالعالم الخارجي. بحسب رأي والدته، مليء بالسيئات والسيئين، لذا كانت تحتفظ به في حضنها، دون أن تتركه يبتعد عنها أبداً، لدرجة كان يحس وكانه أصبح قطعة من جسد امه، وهو بدوره لا يتحمل البعد عنها ليس في النهار فحسب، بل في الليل كانت تشاركه في فراشها الذي يجمعها مع زوجها، ليكون الشاهد على المعارك الليلية بينهما، ويزداد خوفاً من الوالد الذي يوجع امه ويجعلها تئن وتتألم. لم يكن ليدرك ما يجري حوله، لذا يزداد ضياعاً ضمن الجو الضبابي، إنه البريء والجاهل بأمور الحياة التي ستصدمه في اولى حقائقها المرة.

-4-

منذ الصرخة الاولى، منذ أول كلمة نطقها وأول خطوة خطاها، كان دلخواز محاطاً من الجهات الأربع بشيء واحد هو الام. فاخوته كبرن ويقمن بكافة أعمال المنزل، وهذا يؤمن للام وضعية المديرة والإكتفاء بالأمر والنهي، وتشكيل دلخواز بحسب إرادتها. كانت تدعوه "دلي من" أي قلبي، وتجد فيه ضمانة حياتها، تحميه من الهواء والنسيم لا تتركه يبتعد عن عينيها، لقد حددت عالمه وحياته بالمنزل فقط، وخروجه إرتبط بخروجها هي ـ التي نادراً ما تخرج للزيارات ـ مَنعتْ عليه اللعب في الشارع بين الأطفال، وتبرر موقفها هذا بأن اللعب مع الأطفال في الشوارع يسيء إلى أخلاق

وتربية طفلها، ويكسب عادات وألفاظ بذيئة. أمنتْ له مقابل ذلك العديد من الألعاب ليلهو بها ويزداد إرتباطاً بالمنزل.

الحنان والعواطف الجياشة من قبل الام، والحب والإهتمام من قبل الإخوة والأخوات كان يملأ عليه حياته. فقط جانب واحد كان يظل فارغاً وناقصاً بإستمرار. إنه طفل وبحاجة للعيش بين الأطفال من عمره، يلهو معهم، يركض ويضحك ويبكي...الخ. كان يتاح له الفرصة لإملاء هذا الفراغ بين الفترة والاخرى، فبعض المعارف الذين يقدمون إلى زيارتهم كانوا يجلبون أطفالهم الصغار معهم، فيمضي يومه بالبهجة والمرح، يقدم لهم ألعابه وما شبه ذلك، تتحول هذه الفرصة إلى حزن وبكاء عند رحيل الأطفال مع امهاتهم.

عندما كان في السادسة من عمره، زارتهم في أحد الأيام إحدى الجارات مع ولدها الذي يكبره بعام واحد، هذا الولد كان كالنابض لا يعرف السكون ويملأ الدنيا ضجيجاً وصراخاً، ولأن ذلك كان يزعج النسوة المنشغلات بالحديث عن امور المنزل والناس، طلبنّ منهما الخروج إلى الحوش لإتمام اللعب، وما أن خرجا حتى سحبه الولد من يده وأخبره عن مكان جميل جداً مليء بالأطفال والألعاب. انقاد دلخواز وراءه طمعاً في مشاهدة حياة الأطفال الآخرين. وما أن وصلا إلى مكان تجمع الأطفال، الذي هو عبارة عن أرض واسعة خالية من البيوت، حتى انضما إليهم يشاركونهم في لعب الكرة والبيلية والصور...إلخ. كان عالماً مختلفاً، دنيا جديدة، أحبها دلخواز، ولم يجد فيها ما كانت تحدثه عنه والدته من السيئات وقرر في داخله بأن يعود إلى هذا المكان يومياً. استمر في اللعب إلى أن اتسخت ثيابه ووجهه وشعره لكنه كان يزداد تمرغاً بالتراب إلى أن أنهكه اللهو وشعر بالجوع، ومع ذلك

بقي هناك من دون أن يفكر بالعودة إلى المنزل الذي سيتحول من اليوم وصاعداً إلى سجن ينفر منه.

الوالدة التي شعرت بغيابه بعد مغادرة الجارة، تأكدت من عدم وجوده في المنزل، فسيطر عليها الهلع والخوف الشديد، أسرعت إلى بيت الجارة بحثاً عنه، وعندما لم تجده قالت لها الجارة:

ـ لا تخافي هكذا، فهؤلاء أطفال يلهون ولن يطول غيابهم. فما أن يجوعوا حتى تريهم عائدين.

ـ إبني غير متعود على البقاء خارج المنزل، ولا اللعب مع أطفال الشوارع السيئين.

ـ اتركيهم في لهوهم، فبقائهم في البيت وجع للرأس.

ـ أين يلعب ولدك..؟ فولدي لا يسبب لي أي وجع ولن أسمح له بالتلوث مع أولاد السوء.

دلتها الجارة على ساحة اللعب.

أسرعت الوالدة إلى المكان المذكور، لتشاهد إبنها في حال هي غير حاله، فرعاها ذلك، أمسكت بيده تجره إلى أن أوصلت إلى البيت وهي لا تزال في قمة الهياج والغضب. أوقفته أمامها لأول مرة في حياته، ونظرت إليه بحدة، أخافت دلخواز، رددت كلمات قاسية ومهددة وأخيراً أمرته بعدم تكرار ما قام به اليوم أبداً.

استغرب دلخواز من تصرف والدته الغريب، فهي لم تمنع عنه أي شيء، فلماذا هذا الأمر بعث فيها الخوف إلى هذه الدرجة..؟

ـ اماه... اللعب مع الأطفال كان جميلاً، فلماذا لا أستطيع مشاركتهم..؟

ـ أنت لا زلت صغيراً، لذا إستمع إلى كلام امك، فالشارع مليء بمختلف الأقذار وأنا اريد مصلحتك، بعد عدة شهور سوف تذهب إلى المدرسة وتحت إشراف المعلمة سوف تتمكن من اللعب و الدراسة ومشاركة الأطفال حياتهم، أما حياة الشارع فلا يمكن أن أسمح بها أبداً.

لم يقبل تفسيرها ولا حجتها، لأنه أحب حياة الأطفال ويرغب في اللحاق بهم يومياً، لكنه لم يخالف أي امر من أوامر امه، ولا يستطيع ذلك...

الوالدة استمرت بلعب دور الوصية عليه، تتحكم به، تختار له طعامه وشرابه ولباسه وألعابه وكل شيء فيه، ومع دخوله المدرسة استمرت في منعه من الإختلاط بالخارج ـ خارج فترة الدوام ـ بحجة الدراسة وضرورة أن يكون المتفوق أبداً.

كبر دلخواز مع الأيام، إلا أن الحرمان كان يقلق مضجعه، فحب الام وخوفها ورغبتها في تملكه جعلها تمنعه من العيش كالأطفال وفرضت عليه معيشة ستؤثر على حياته بأكملها وقد تحولها إلى مجرد مآساة.

- 5 -

من قوقعة العائلة الضيقة سوف ينضم إلى عالم المدرسة الأوسع والرحب، الذي طالما سمع عنه أجمل الأحاديث، ماعدى الاخت الكبرى، تسنى لجميع اخوته وأخواته المواظبة على الدراسة، لكن وبسبب الظروف المادية من جهة ولعدم

إهتمامهم من جهة اخرى، لم يصل أي منهم إلى المرحلة الجامعية.

كالعاشق المتلهف لرؤية المعشوق، كان يتلهف لرؤية المدرسة، لليالي عديدة سابقة ليوم افتتاح المدرسة، كان يحلم بتجمع جميل من الأطفال المحبين له والملتفين حوله، يشاركونه في اللعب، وأيضاً بمعلمة تأخذه بالحضن ترعاه وتعطف عليه.

في صباح اليوم المنتظر، ألبسته الوالدة لباس المدرسة المعدلة، مع حقيبة صغيرة جميلة ليضع فيها الدفاتر والكتب، قبلته وهي تدعو له بالتوفيق، اخته التي تكبره بسنين عديدة، رافقته إلى المدرسة ولم تتركه إلا بعد أن تحدثت مع مديرة المدرسة وطلبت منها العناية بأخيها الصغير.

بقدر ما أن يتلهف لرؤية المدرسة ويحب أن يرى عوالم جديدة طالما منعت عنه، كان خائفا من المجهول والوحدة، فها هو لوحده، لا ام تحضنه ولا اخت تمسك بيده، وعليه أن يقف على قدميه.

ضمن المدرسة، العالم الذي يقتحمه لأول مرة، أحس بضيق شديد من كل ما يحيط به، الأطفال يحيطون به من كل جانب ولا أحد يحس بوجوده وكأنه مجرد حجر لا قيمة له. جميع الأحلام التي صدقها وأمن بإمكانية تحقيقها، لم تكن إلا مجرد أوهام صنعتها مخيلته وأقوال محيطه. بلا تفكير وكحل وحيد للخلاص مما هو فيه من إحساس بالإنكسار، بدأ بالبكاء بين دهشة الاطفال الصغار ضمن الصف وإنزعاج المعلمة التي لم تفهم السبب الذي أبكاه، فبدأت تسأله وتحاول إيقافه عن البكاء، لكن هيهات فكلام المعلمة لم تكن إلا طنين نحلة تحوم حوله وتزعجه من دون أن يوقفه منها أي شيء. عدم الفهم

كان يزيده ويزيدها إنزعاجاً.عندما يأست منه المعلمة أرسلته إلى المديرة، لكي تتصرف معه، وهي بدورها "المديرة" لم تحصد إلا ما حصدته المعلمة، فأرسلته إلى البيت مع أحد الطلبة الكبار السن، وطلبت أن يُحضر أهله معه في اليوم التالي.

في المنزل تظافرت جهود الجميع لتجميل صورة المدرسة التي تشوهت أمام عينيه، إلا أنه لم يقتنع بتاتاً، فهو الذي خلق للمعلمة صورة كالملائكة، ثم وجدها معاكسة لجميع أحلامه، وجدها إمرأة صارمة تتحدث بلغة لا يفهمها، ملامحها لا تُظهر الحب والحنان وأيضا الاطفال لم يستطع التلائم معهم، فهو غريب عن حياة الاطفال ولا يستطيع الإندماج معهم بدون أن يدعوه أحد ويمسك بيده. عندما إزداد عناده على ترك المدرسة، لم تجد العائلة بدا من اللجوء إلى إحدى العوائل القريبة منهم لكي يذهب دلخواز برفقه إبنهم إلى المدرسة.

دلخواز الذي تلهف للدراسة وجدها كابوساً لا يطاق، وجدها عالماً لا يمكنه الإندماج معه، وانقلب تلهفه إلى نفور شديد. في اليوم التالي أخذته اخته بيده، بينما هو يخطو بقدمه خطوة إلى الأمام كان قلبه وعقله يهرولان إلى الوراء، يحاولون الرجوع إلى القوقعة والسكون والحضن الآمن. مرا أولاً ببيت الجار، الذي وافق على أن يرافق ابنه دلخواز إلى المدرسة بشكل يومي، ومن ثم أخذت الطفلان "لقمان ودلخواز" إلى المدرسة، وأقنعت المديرة بنقل أخيها إلى صف لقمان، إلى أن يتعود على حياة المدرسة ويتعلم لغة القومية الحاكمة الغريبة.

بالرغم من الترغيب والتحبيب من قبل العائلة، والمكافئات النقدية المغرية، استمر في الدوام المدرسي كارهاً

وهو يحس بالعذاب وعدم الرغبة، لذلك وخلال السنوات الاولى بقي مستواه متوسطاً في الدراسة بالرغم من مساعدة اخوته له على حفظ وفهم جميع الدروس. إلا أن اللغة الغريبة بقيت عائقاً استمر طوال سنين عديدة. ولولا الاغراءات ورغبة العائلة الملحة، لترك المدرسة واكتفى بالحياة التي تعود عليها ضمن الاسرة.

العائلة وبشكل لا يعرف الإنقطاع، كانت تؤكد على ضرورة وفائدة التعليم للإنسان، فغير المتعلم مجبر على العمل بجسده، والعمل الجسدي مرهق وغير نظيف وكريه، أما العمل الوظيفي والمكتبي فنظيف وذو مورد عالي، يُؤمن للإنسان الراحة من مختلف النواحي. هذه التفسيرات والتوجيهات، أجبرته من حيث لا يدري على الإقبال على الدراسة. والتقدم فيها حتى أصبح من المتفوقين والأوائل، ففرحت العائلة، وفرح هو لفرح العائلة، لا بالدرجات التي يحصل عليها.

- 6 -

ينتقل دلخواز من سنة دراسية إلى الاخرى بنجاح وتفوق، ويزداد دراية مع مرور كل عام، إلا أنه يظل في نظر الوالدة، طفلاً صغيراً لم يقطع حبل السرة الذي يربطه بامه، وتظل حياته مقتصرة على البيت والمدرسة والمسافة القصيرة الفاصلة بينهما.

ضمن المدرسة التي تحولت إلى مكان محبوب، بعد أن لاقى صعوبات جمة في السنوات الاولى، فهو الآن يجيد لغة المعلمة ومتفوق فيها على أقرانه جميعاً، كانت تدار نقاشات وأحاديث عن امور وأشياء تثير فضول دلخواز، وتجعله

يشعر بمدى ضيق الحياة التي يحياها، فأصدقائه يتحدثون عن السينما وما تعرضه من أفلام مثيرة، وعن الملعب البلدي والمباريات الشيقة التي تجري ضمنه، وأيضا عن النهر الذي يخترق المدينة ويقسمها إلى قسمين، وكيف يتسابق الاطفال إلى ضفافه ليسبحوا فيه، إنهم يتباهون بطول المسافة التي يقطعونها أو بمدى الإرتفاع الذي يقفزون منه إلى النهر أو بالفترة الزمنية التي يقضونها تحت الماء...الخ، هذه الامور وغيرها الكثير أصبحت موضوعاً لرغبات دلخواز الذي يحققها في الحلم أثناء النوم، حيث تتحرر مخيلته وتطير به إلى جميع الأمكنة والأزمنة من دون حدود ولا موانع.

مع مرور الأيام يتعرف على امور جديدة وغريبة، ويتحول إلى شخصان كل منهما بعيد عن الآخر لكن ضمن نفس الجسد. فمن يشاهد دلخواز في المنزل لن يتعرف عليه في المدرسة، فطالما بقي في المنزل يجبر نفسه على الإلتزام بمقاييس تربية العائلة وحتى عندما يتجاوز تلك المقاييس فهو يلاقي الملامة. في المدرسة يندمج بحياة التلاميذ مع لقمان يقلد المشاكسين ـ يُضرب ويَضرب ـ يستخدم الشتائم والكلمات الوسخة... وغير ذلك. فقط أمام المعلمة والإدارة يشعر وكأنه أمام أحد افراد العائلة. فيعود إلى حالته المهذبة والمحبة للنظام. ولهذا كانت المعلمة تستغرب كثيراً عندما تصدر الشكاوي بحق تصرفات دلخواز المؤدب، النظيف والمجتهد.

تأخره عن موعد العودة إلى البيت بعد نهاية الدوام، كان يؤدي إلى حالة غير عادية ضمن اسرته. فامه تسرع بنفسها، أو تبعث أحد أولادها لتقصي الوضع، ولفهم سبب تأخره عن العودة، والذي يكون بسيطاً ولا يستحق تلك الهالة من الخوف التي تخلقها الام. هذه التصرفات كانت موضع الحسد عند بعض التلاميذ المحرومين من درجة الحنان التي ينالها

دلخواز، فمعظم الاطفال من عوائل كبيرة العدد وقليلة الموارد. لذا يلاقي الأباء صعوبة شديدة في الإهتمام بهم والسؤال عنهم كما تفعل عائلة دلخواز، لكنها تسبب الحرج له ويخجل منها.

لقمان الذي أصبح جزء مهماً من حياة دلخواز، فهو تقريباً صديقه الوحيد منذ أن ترافقا للذهاب إلى المدرسة، ولولا وجود لقمان لما تحمل ظروف الدراسة. كان يسعى بشكل طبيعي وبلا تخطيط مسبق إلى كسر طوق المحرمات التي تفرضها العائلة على صديقه، لأنه كان يرغب بأن يشتركا في كل شيء، لذا كان يصر على جره إلى العالم الخارجي، حيث الطفولة الحرة بعيداً عن العين المراقبة للام، لكنه كان وعلى الدوام يصطدم بحاجز الوالدة التي كانت تصر على حضور لقمان إلى البيت لكي يدرسا معاً ومن ثم يتمتعا معاً بالالعاب الجميلة والكثيرة إلى جانب المأكولات الشهية التي كانت مغرية للقمان. محاولات لقمان بأخذ صديقه إلى عوالم منع عن مشاهدتها، تتكرر بإستمرار، مع أنها كانت تنتهي بالفشل.

في أحد أيام الدراسة الإعتيادية، كان موضوع نقاش العديد من التلاميذ، ومن بينهم لقمان، حول فيلم سينمائي جميل، سوف يعرض لأول مرة في المدينة. الكل كان يؤكد بأنه لن يُفوت هذه الفرصة وسيبذل جهده لحضور العرض.

كان دلخواز مثل الأطرش في الزفة، فلا هو شاهد السينما ولا يعرف نوعية الأفلام التي تعرض فيها، بالرغم من رغبته لرؤية السينما، ليس هذا الفلم بالتحديد، إلا أنه لا يجرأ على طلب الإذن، فهو يعرف مسبقاً موقف العائلة. السينما في رأيهم موبوء بالسوء والفحشاء، ولا يليق بالإنسان الشريف والطفل المؤدب أن يرتاد مثل هذه الأمكنة.

في الطريق أثناء العودة بعد نهاية الدوام، لم يتوقف لقمان عن الثرثرة، بل ظل يصر ويلح على أن يذهبا معاً إلى السينما، بينما دلخواز يؤكد بأن العائلة لن تسمح، ومع ذلك يزداد إصرار لقمان ولا يترك أي مجال للرفض أمام صديقه، الذي عبر عن قبوله، بشرط أن يجدوا مبرراً مقنعاً لكي يتمكن من الخروج من البيت في يوم العطلة، وبعدها سيكون الوصول إلى المراد سهلاً.

الحجة التي إتفقا عليها معاً تتلخص بأن يحضر لقمان في صباح يوم الجمعة، وأن يتحدث عن مرض والدته المفاجئ الذي يجبره على البقاء في البيت، ولهذا سوف يطلب من والدة دلخواز السماح له بالذهاب معه إلى بيتهم للمذاكرة، لكن الوالدة خوفاً من أن تتحول هذه الزيارة إلى سابقة تفتح الباب على مصراعيه أمام إبنها وينسحب البساط من تحت قدميها رفضت وقالت: صغيري لقمان ما دامت والدتك مريضة، فإذهب أنت لكي تقف بجانبها، لكن دلخواز لا يستطيع ترك المنزل، وبخصوص الدراسة فسوف تساعده اخته إلى أن تتحسن والدتك وتتمكن من المجيء مرة اخرى.

دلخواز الذي أحس بالخجل والغضب، لم يتمالك نفسه وقال: سوف أذهب معه ياامي، فماذا سيحدث لو ذهبت معه. ألا يأتي هو إلى بيتنا كل يوم تقريباً، أليس عمره مثل عمري..؟ فلماذا تمنعيني ولا تمنعه امه..؟

الوالدة التي لم تكن تتوقع رد فعل إبنها، فهو متعود على قبول على كلامها بدون أدنى تعليق.

ـ ولدي أنت أصغر ابنائي، واريد أن تكون الأفضل بين اخوتك وأصدقائك، فلا تعترض على ما أختاره لك.

إنه غير قادر على محاورة والدته ولا على معارضتها فقد بدء بالبكاء والنحيب وانهمرت دموعه الغاضبة. والسبب هو وجود لقمان، الواقف من دون أن يتدخل بين الام وإبنها.

بكاءه أثر على الوالدة التي تحبه ولا تبخل عليه بشيء، فلم تجد بد من القبول، مع أن عقلها كان يفضل الرفض، لكن القلب حنون عطوف ولا يتحمل دموع الطفل. إشترطت الوالدة عليهما أن يحضرا قبل حلول الظلام. لكن الطفلان اللذان لاقا الامرين في إقناع الوالدة، طغى عليهما الفرح، وإنطلقا كطائرين تخلصا من القفص للتو، يعلوان في السماء من دون النظر إلى الأسفل حيث القيود والأقفاص.

أخذه لقمان سيراً على الأقدام في طرق يشاهدها لأول مرة، إلى أن وصلا السينما، صالة العرض.

رب صدفة خير من ألف ميعاد، مَثَلٌ دارج تحول إلى "رب صدفة شر من ألف ميعاد"، فما إن إبتاعا تذاكر الدخول، حتى وقعت الطامة. إمتدت يد صلبة إلى كتف دلخواز، وبصوت جهور سمعا:

ـ أنتما هنا، يالها من مفاجئة، منذ متى كنت من رواد السينما ومشاهدة الأفلام..؟

من هول المفاجئة، لم يصدر منه أي صوت، اكتفى فقط بأن نكس رأسه، وأمسك بيد لقمان يسحبه إلى الخارج وهو حائر مفكر، بالموقف الحرج الذي وقع فيه وكيف سيواجه امه وذويه بعد أن كذب عليهم. وتجرأ على الذهاب إلى السينما...الخ.

سعادته التي لم يقدر لها الإستمرار تحولت إلى حجر فوق صدره، يمنع عنه التنفس براحة. تحولت مسرته إلى خوف

من جريمة إقترفها بدافع الفضول وبإلحاح صديقه. لم تنفع محاولات لقمان بإبقائه إلى ما بعد نهاية الفيلم، فقد أصبح في وضع لا يحسد عليه، وكل همه منصب على موقف العائلة ونوع التقرب الذي سوف تبديه.

بطبيعة الحال لم يتوانَ الأخ عن أخبار العائلة، التي بدورها أحست بخطر يهدد ما بَنَتهُ منذ سنين طويلة لهذا تحولوا جميعاً إلى سحاب كثيف وأمطره بوابل من العتاب واللوم على ما يدور منه، من كذب وخداع، ومحاولته للولوج إلى عالم خطير عليه، وهو لا يزال تلميذاً في بداية عمره ودارسته، والوالدة بعد أن أنهت من حديثها بدأت بالبكاء على حظها، كما تقول هي، مما حول دلخواز إلى مجرد كتلة من الخجل ومنع على نفسه تكرار المحاولة.

كانت هذه اولى محاولاته الطبيعية في إقتحام الحصار، وانتهت بالفشل، الذي كان له نتائج سلبية على حياته اللاحقة.

- 7 -

مهما طال أمد الظلام، لا بد أن يليه النور ليكشف ما وراء الستائر السوداء القاتمة. الحياة ظلام و نور وما بينهما، ولا يمكن إطفاء شعاع الشمس بالغربال ولا بالسلاسل الذهبية.

يتحضر دلخواز للبدء بالمرحلة الثانوية بعد أن أنهى كلا المرحلتين الابتدائية والإعدادية بتفوق أرضى آمال وغرور العائلة، كما أكسبته ثقة لا بأس بها لخوض غمار عالم المعرفة والكتب، التي أصبحت أحب شيء إلى قلبه، يمضي معها ساعات طويلة بلا ملل ولا ضيق، ومع ذلك يعاني الامرين بسبب إصرار العائلة وإستخدامها لشتى الوسائل

لإبقائه ضمن محيط البيت والدراسة المدرسية بالإضافة إلى الواجب الديني وإرتياد الجامع مع الوالد والاخوة في يوم الجمعة.

مقابل هذا الإصرار تستمر رغباته وميوله لتجربة أشكال جديدة من الحياة يسمع عنها دون أن يتمكن من عيشها. إنه شاب في ربيع عمره، ويملك من الطاقة ما يعجز البيت ـ بما فيه من مستلزمات ـ عن إرضائه. خياله لا يعرف الحدود وهو إنسان يتأثر بما يقال حوله وما يراه وخاصة التلفاز. يوماً بعد الآخر يكتشف مدى سلبيته وقلة تجربته ومعارفه الحياتية بالمقارنة مع أقرانه، فهو يفوقهم جميعاً في الدراسة والكل يحبه ويسعى لمرافقته. ومكانته مميزة عند المعلمين، لكنه يبقى مجرد ذرة غبار ضمن عواطف الشباب المرحلية من ناحية التجربة الحياتية.

العائلة خلقت منه إنساناً أليفاً مطواعاً، يحترم ذويه ويقدرهم، ويلبي متطلباتهم التي إقتصرت على مطالبته بالتفوق الدراسي، وشملته بالرعاية وتأمين مستوى مثالي من العيش، وهذا جعله يرتبط بالعائلة حتى نخاع عظامه، فهو لا يتصور نفسه خارجاً عن إطارها حتى في الخيال، لكن الحياة الزاهية الألوان تجذبه، كما تجذب الوردة الجميلة الفراشات بما تملك من رحيق. فأين المفر، وكيف له الجمع بين عقله الأليف وقلبه الهائج والراغب بما يعترض عليه ويحرمه العقل..؟

لقمان كان السند الأقوى والدافع المشجع لرغبات قلبه، والمناهض لعقله المروض والقانع، يهزه من الصميم، ويدعوه إلى مشاركته في رحلاته الإستكشافية لجوانب الحياة المتعددة، لكنه ما أن يخطو أول خطوة حتى يعود به عقله

خائباً متكدراً ولاعناً حظه العاثر الذي أوقعه في هكذا عائلة. هذا الشعور الذي يثيره لقمان في أعماق روحه لا يلبث حتى يزول، ليحل محله الرضى والقبول بحياة لا تتسنى لمعظم أصدقائه من نواحي عديدة، لقمان هو الريح العاتية التي تقضي على هدوءه وسكونته، يهب عليه يقضي على إستقراره الظاهري، ويبدأ بإيقاد النار في قلبه بأقواله: إلى متى ستستمر في وضعك هذا، فحتى الخراف تبتعد من امهاتها بعد ان تكبر، وكذلك الفتيات ترفضن العادات البالية وتبحثن عن حياة أكثر حرية وجمالاً. الكل يكسر القوالب المتخلفة من حولك، وتبقى كما أنت صنماً من الحجر، فالشباب حقوقهم، وإن لم تعش سوف تندم غداً بعد فوات الأوان، فهؤلاء اخوتك، كل منهم يخوض غمار الحياة التي اختارها من دون أن يولي أي إهتمام بما تقوله العائلة، وعليك أن تبدأ اليوم قبل الغد.

يستمع بقلبه الذي يوافق لقمان في كل ما يقول، لكنه يجيب عليه بعقله المرتبط بشكل الحياة التي تعود عليها: هدفي الوحيد والأسمى، هو الدراسة وتحقيق طموح العائلة، الذي هو طموحي أيضا. أما إنشغالي بامور مختلفة، قد يؤدي إلى تراجع دراستي، مما يعني ضياع جهود السنين هباءً. يستمر النقاش ويتضايق لقمان الذي تفشل محاولاته في التأثير على صديقه الذي لا يؤثر فيه كلام ولا توبيخ.

"الطبع يغلب التطبع"، ودلخواز لا يستطيع إخفاء أي شيء عن والدته وأهله، إنه الولد المثالي والمطيع والأقرب إلى قلب امه الحنون. كل ما يجري معه خلال الدوام المدرسي وحتى مقولات لقمان يطرحها أمام الوالدة، التي تبدأ بترديد نصائحها حول ضرورة وأهمية الحصول على الشهادة العالية، التي هي رغبة العائلة وأفضل الوسائل لتأمين شكل حياة سعيدة، أثناء سردها تقوم بإعطاء أمثلة حياتية من ما حل

بالأقارب والمعارف، فإبن العم(....) الذي ترك التعليم بسبب تعلقه بفتاة أحبها، ها هو ينتقل من عمل إلى آخر، يضرب كفاً بكف نادماً حائراً حانقاً على سوء تقديره لصعوبات المعيشة، فمن أين له تأمين الطعام والكساء لعائلة تكبر يوماً بعد يوم، وهو لا يملك وظيفة ولا رأس مال.

- 8 -

هل سيظل كالعانس في بيت لا يبرحه، إلا ممسكا بثوب الوالدة، أو بيد أحد الاخوة، هل سيستمر قانعاً بما رسمته له ربات القدر..؟ هل سيبقى العلم الذي يتلقاه مجرد معلومات يحفظها بلا استيعاب، ليحوله فقط إلى أجوبة على أسئلة الإمتحانات..؟ أم أن الحياة ستجبره على الولوج في معترك الحياة بمختلف نواحيها..؟ اذا ما ترك له الامر فهو قانع ولن تتغير قناعته، مادام الأهل راضين، لكنه يكبر وينمو وتزداد الضغوط عليه من جهات عديدة، وكلها تدعوه إلى خلع رداء العزلة والخجل لكن كيف وهو الذي تعود لسنين طويلة على شكل الحياة الضيقة وغير المُنوعة. ان العين التي تخرج إلى النور يلزمها فترة من الزمن لتشاهد ماحولها، فهل سيملك القدرة والإرادة لتحمل وهج النور، وهل ستسمح له العائلة بذلك..؟

امه واثقة من صنيعة يدها، ومتأكدة مما قامت بتأهيله، إنه كالخاتم في إصبعها، وحتى لو أمنت له بعض الحرية في التحرك والخروج إلى المحيط، فسيعود إليها كما مياه البحر التي تعود مع الجزر بعد كل مد لا محالة. العديد من العوامل والمؤثرات إجتمعت وأجبرت الام على تغيير معاملتها والتقليل من ممنوعاتها. أول هذه الأسباب يكمن في أنه الآن

شاب متفوق وذكي، لكنه يحس بالنقص أمام رفاقه، ويشتكي من حالته بين الفترة والاخرى، أما الثاني والملح فهو تهكم الأهل والأقارب على شكل تربية دلخواز. فمع أنه شاب، إلا أنه أأشبه بالفتيات، وجميع النساء تؤكدن بأنه لن يصبح رجلاً مهما نال من الشهادات وحتى لو طار بلا أجنحة. هذه الأقاويل كانت تثير حفيظة الام، التي لا تتحمل مثل هذه الإهانات لإبنها المفضل الذي لم تقتصر في خدمته. بالإضافة إلى هذا وذاك كان وضع دلخواز الجيد دراسياً وتربوياً وخلقياً لا يؤهله لخوض معمعة الحياة، لأنه بعيدٌ جداً عن حقائقها، ولم يشاهد منها إلا الجانب الجميل والمسالم، لكن لا مفر له من الإصطدام بالجانب المر والمحزن، عندها سيدرك بأن ما عاشه بين الأهل مغاير تماماً للواقع.

جميع هذه الأسباب كانت كفيلة بإقناع العائلة وكذلك الام، بشرط أن لا ينقلب السحر على الساحر. فالحرية المحددة التي ستمنح له، يجب أن لا تؤثر سلباً على دراسته ولا على علاقته مع ذويه.

كل شيء تقدم عليه الام غير ناجم عن تخطيط وتفكير عميق، بل هو تصرفات عفوية نابعة عن رغبتها في حماية إبنها، كما تفهم هي الحماية.

بدأت العائلة بإقحامه في معارك من دون أن يكون له أي إستعداد مسبق، فالأب ولكي يلعب دوره في تعليم إبنه على حياة الكبار، بدأ بإصطحابه في بعض الزيارات، لكن النتائج كانت مخيبة للأمل، فدلخواز الخجول لم يتحمل جو الجماعات بين الرجال والعجائز، ولم يتلائم معهم، بل وبالعكس ازدادت عزلته، جسدياً هو موجود بينهم، لكن روحه كانت كالأرنب الهارب الخائف تبتعد عنهم، فهو غير قادر على مشاركتهم

الحديث ويكتفي بكلمات من قبيل نعم أو لا، والأكل أيضا يتحول إلى حجارة، ترفض المضغ وتتحول إلى أشواك تنغرس في حلقه، وعندما يصرون عليه لكي يكون مرتاحاً في تناول الطعام، يلعن الطعام وخالقه. وضعه هذا طالما تحول إلى موضوع للسخرية من قبل الكبار ممن لايفقهون أي شي من حالة الشباب الروحية ولا يقدرون المشاعر والاحاسيس. بعد زيارات عدة وصل الأب إلى قناعة، كان بها الأثر الكبير عليه؛ دلخواز لن يصبح رجلاً أبداً. كان يقول هذا من دون أن يحس بدوره، أو يؤنبه ضميره على ما ساهم بصنعه.

العرس مكان للفرح والبهجة، وخاصة للشباب من فتيان وفتيات، لذا اعتقدت الام بضرورة إصطحاب دلخواز إلى أحد الاعراس، كوسيلة مساعدة له على تجاوز البعض من خجله.

ضمن جو العرس حيث يختلط الحابل بالنابل، وجد نفسه كالساقط في بئر عميق، لا هو قادر على الخروج منها ولا توجد أية إمكانية لكي يبقى ضمنها. لم يكن أمامه سوى الإستسلام حتى يأتيه المدد والنجدة. لم يكن يعرف كيف سيتصرف أو ماذا عليه أن يفعل، لم يستطع المشاركة في أية فعالية من فعاليات العرس من أكل وشرب وحوارات، كان ينظر إلى المحيطين به، يجد الكل مشغول وغارق فيما يفعل حتى الرقبة لا يأبه بأحد، لكن دلخواز يخال جميع الموجودين مراقبين له يتربصون بحركاته، فينكمش وتصغر ذاته، لدرجة يتمنى فيها لو يتحول إلى خلد يحفر الارض ويختفي، أو إلى حمامة تطير وتتخلص من وضع حرج يجد نفسه فيه لأول مرة. بينما هو يبحث عن طريق للفرار أحاطت به جماعة من الشباب بينهم أخ العريس، يريدون دعوته للدبكة وهذه عادة دارجة، إعتذر بعدم معرفته للرقص وقاوم رغبته لكن لم يجد أي وسيلة سوى مسايرتهم، فأدخلوه إلى حلقة الدبكة، حيث

عنفوان الشباب يسابق ويزاحم مهارة الرجال. الحماسة تتحدى الخبرة. كل جماعة تنادي على عازف الزرنة وضارب الطبل ليقترب منهم، وما أن يقتربا حتى يصل الهياج إلى الذروة. تغلي الدماء، تبتل الألبسة من العرق ويرتفع الغبار من سرعة حركات الأرجل.

ضمن هذه المسابقة، النساء والفتيات ليسوا بأقل خبرة من الشباب والرجال، بل مشاركتهن فعالة ولولا العادات لزدن على الذكور، فهذه الأجواء، لا تتسنى لهن إلا في فترات محددة. دلخواز الذي أدخل إلى هذه المعركة وجد نفسه كالريشة تتقاذفها الرياح، فالممسكين بيده يرتفعون ويهبطون كالنوابض، أما هو فلا فرق بينه وبين الحجر الأصم يعاكس ويشوه الدبكة.

لم تكن إلا لحظات عدة حتى احمر من الخجل والخوف، لا يفرق بين رأسه ورجليه، وجد بأن الإستمرار غير ممكن وفضل الإنسحاب، ليس من الدبكة فقط بل من العرس بأكمله، ليعاهد نفسه على ألا يشارك في أي عرس طوال حياته.

محاولات العائلة في إصلاح ما أفسدته بتربيتها الوحيدة الجانب لم تثمر عن النتائج المرجوة. إلا أن لقمان الذي كان قد أصبح كأحد أفراد العائلة، ومن دون أي تكليف، تكفل بمساعدة صديقه في مسيرة الحياة التي لم تفتح لهما أحضانها في الطفولة، فهل ستفعل ذلك في شبابها، أم ستستمر في إظهار وجهها العابس الناكر..؟

الفصل الثاني

- 1 -

لقمان الذي استمر جريان حياته كالنهر الهادئ، صدمته الحياة من دون أن يفهم كيف أو لماذا حدث ذلك. انقلبت حياته مع عائلته رأسا على عقب. في تلك الأيام كان لا يزال طفلاً بريئاً بعيداً عن منغصات الحياة وآلامها، لكن الزلزال لا يفرق بين بيت وآخر و بين جامع وكنيسة.

الزلزال هنا كان القبض على أخ لقمان الأكبر الذي كان يتهيأ لتقديم إمتحانات الشهادة الثانوية. في منتصف الليل بينما كانت العائلة تغط في سبات عميق، داهمت قوات الأمن منزلهم، وحتى قبل أن يفتحوا الباب، الذي كان يُدق بعصبية، كان بعض عناصرهم المسلحين قد ارتقوا سطح المنزل وجدارنه. بهذه الطريقة الهمجية قبضوا على حسن، وقيدوه ولم تنفع صرخات الام ولا نحيبها وتوسلاتها، وكذلك لم تلقَ أسئلة الأب أية أجوبة.

ـ سيدي الضابط، الرجاء أن توضح لنا سبب القبض على ولدنا.

ـ إصمت.. وإلا نالك ما لا ترجوه أبداً..

ـ ليكن ما تريد حضرة الضابط، فقط أخبرونا بالمكان الذي تنوون أخذه إليه لكي نراجعكم فيه.

ـ ألا تفهم أم تريد أن آخذك معه حيث اللا رجعة..؟ ابنك يا محترم يتعدى على أمن دولتنا وهو في عمر الفراخ فكيف به عندما يكبر..؟، إنه يساعد بعض المخربين المرتبطين بالقوى المعادية في الخارج، وهدفهم هو تهديد الأمن والإستقرار الداخلي لدولتنا، وبالتالي لا يسعنا غفر جرمه هذا، ونصيحتي لك بدلاً من أن تسأل عن هذا المعتوه، أن تعتني بباقي أولادك وتهتم بتربيتهم، وليكن لك بما جرى الليلة عبرة أن كنت صاحب إدراك.

الام التي أأمسكت بولدها صرخت: خذوني معه هذا بكري، ولم يبقَ على إمتحاناته إلا أيام قلائل. الضابط أشار إلى الاب وطلب منه أن يمسك زوجته وإلا فإنها ستلاقي ما لا تحسد عليه.

أخذوه إلى حيث لا يمكن الإهتداء إليه، إلا أن العائلة وبحكم الرباط العاطفي والعادة لم تترك أية وسيلة الا واستخدمتها من أجل معرفة مكانه. لم تترك أي مركز من مراكز الأمن بفروعه الشتى، ولا أي سجن من سجون المحافظة والعاصمة، إستهلكت جميع مدخراتها المادية التي كانت تحتفظ بها لهكذا مصائب. الام باعت ذهبها والاب باع الحيوانات التي كان يتاجر بها، ولم يهتدوا حتى على رأس خيط، أو بريق أمل. كل الذين وعدوهم كذبوا وعودهم، بعد أن نهبوا النقود باسم الهدايا. الاسم المجمل للرشوة.

تحولت حياة العائلة إلى مأساة لا تحتمل. الام وبشكل يومي تبدأ بالبكاء، فقط يكفي أن يذكرها أحدهم، أو أن تتذكر هي إبنها، عندها تترك كل شيء لتتفرغ لذرف الدموع

وليجتمع حولها صغارها لمشاركتها، فيتحول المنزل إلى مناحة لا تطاق، أما إذا تواجدت بعض النسوة الاخريات، عند ذلك لا أحد يستطيع إيقاف البكاء. الوالد فَقَدَ نصف وزنه، ترك الحديث وضاعف من التأمل، فلذة كبده أخذت من بين يديه، وهو العاجز غير القادر حتى على معرفة هل هو حي أم لا..؟. نعم لقد أوشك على الإفلاس، ولجأ إلى المعارف والأقارب. استدان المبلغ تلو الآخر، إلى أن ملّ منه الجميع، والكل بدؤوا بالقول: يا رجل إترك هذا الموضوع لله، فما باليد حيلة، وهذه دولة ولا تملك قلباً ولا ضميراً ولن تستطيع التأثير عليها. لقد حطمت نفسك وعائلتك، تركت العمل وأهدرت مدخراتك وممتلكاتك، واستدنت مبالغ لا يكفي عمرك وعمر أولادك لردها إلى أصحابها، ومع ذلك لم تحصد سوى الخيبة. عليك بالصبر، وعسى أن تفتح أمامك أبواب خيرة، فالصبر مفتاح الفرج.

في الواقع لم يكن أمامه سوى الصبر، فالسؤال والبحث يحتاج إلى النقود، وجميع مصادره جفت. مرت الأيام ثقيلة حزينة على عائلة لقمان، فجميع الاخوة تأخروا في دراستهم، لأن الحدث كان أكبر من قدرته على التحمل، ولقمان الذي يسمى "بالجن" بين الأطفال وضمن العائلة تحول إلى ملاك هادئ، لا يصدر صوتاً ولا حركة، وحتى لو لم يتمالك نفسه، لا تلبث الوالدة حتى تنهره قائلة: تضحك وتمرح بينما أخوك مجهول المكان. ألا تستحي... الامر الذي كان يزيد الموضوع سوءً هو عدم معرفة مصيره، فحتى ولو وصلهم نبأ موته لكان أهون عليهم. لكن هذا الوضع، يرد عليهم جميع أسئلتهم وإستفساراتهم، كما ترتد الموجة منكسرة على صخور الشاطئ.

لجأت الوالدة إلى أحد الشيوخ، ممن يصنعون الحجاب، وجلبت من عندهم بعض الأوراق التي لفتها بالقماش ثم وضعتها في أماكن معينة ضمن المنزل، فهي كانت واثقة في دخيلتها بأن البعض قد أصاب إبنها بعينه الحسودة. وقد كانت لا تمل من تكرار هذا الإعتقاد كل من يجالسها، وتلعن الحساد ليلاً نهاراً؛ اللهم خرب بيتهم كما خربوا بيتي، واحرق قلوبهم كما أحرقوا قلبي...الخ.

مرت سنة كاملة كانت كفيلة بترك بصماتها في وجدان وخيال جميع أفراد الاسرة. وأخيراً جاءهم بلاغ من مديرية الأمن في المحافظة بإمكانية زيارتهم لإبنهم الموجود في أحد سجون العاصمة، كان النبأ بمثابة العيد، لأن شمعة الأمل برؤيته مرة ثانية كانت قد أوشكت على الانطفاء، لكن ها هي الشمعة تتقد ويزداد لهبها عطاء للنور الذي يدخل البهجة إلى قلوب ذويه. سوف يشاهدون مرة ثانية، وإن كان مسجوناً فالمهم أن يكون حياً. قام ابواه بزيارته، بعد أن تجاوزا الحواجر البيروقراطية المنهكة مادياً معنوياً. شاهدوا من خلال الأسلاك ولدهم الذي كبر خلال عام أكثر من عشرة أعوام، فالذي يراه سيخاله قد تجاوز الثلاثين، وهو لم يصل إلى العشرين، بعد سنة كاملة من التعذيب أكلت من جسده وروحه كما تأكل النار الحطب. شعره قد مال إلى البياض، جسده نحل لدرجة يظنه الناظر أحد جياع أفريقيا البائسة، أنه شبحاً أو كومة من العظام غير المكسوة باللحم، الام لم تتحمل المنظر فسقطت مغيمة عليها حتى قبل أن تتلفظ بأية كلمة. سقوطها خلق بلبلة في السجن. بينما حسن واقف وراء الاسلاك عاجز عن فعل أي شيء لا حول له ولا قوة. بل هو الأحوج إلى من يمد له يد العون لكي لا يسقط كما سقطت امه.

أثناء المقابلة تواجهت مأساتان، فاجعة عائلة التي اقتربت من الإفلاس، تحولت إلى كومة من القنوط، ومصيبة شاب كان أمل ذويه، فاستقر في السجن ونال من العذاب ما يكفيه ليتحول إلى مجرد خيال في شكل الإنسان.

ظهور الإبن حياً في السجن بعث الحياة في عروق أفراد العائلة المتجمدة، أعاد لها بعضاً من حيويتها لكن ذلك زاد الطين بلة من الناحية المادية، فهم أصلا فقدوا كل شيء، والآن هم مضطرين على تأمين مصاريف المحامي الذي سيترافع عن حسن، إلى جانب تأمين إحتياجاته وهو في السجن.

هذه الحادثة لم تكن الاولى، كما يؤكد الوالدان، في حياة العائلة، فخلال ثورة الأكراد في شمال العراق كان والد حسن من الوطنين النشيطين الذين يبذلون قصارى جهودهم لمساعدة الثوار ولجمع التبرعات لهم، مما جعله هدفا للملاحقة من قبل السلطات إلا أنه اختفى لفترة طويلة عن الأنظار، بقيت خلالها العائلة بلا معيل ولاقت الامرين من الجوع والحاجة ومضايقات السلطات. لو اقتصر الامر على ذلك لكان هيناً، لكن الفاجعة وصلت إلى الذروة مع فشل الثورة بتآمر دول المنطقة مع حكام العالم على مصير الكرد، عندها تحول أبو حسن إلى مجرد إمرأة مفجوعة في كبدها، ولم يتوقف عن ذرف الدموع لأيام معدودات. لم يذق فيها الطعام، فأماله التي كبرت وترعرعت ووصلت إلى القمة، سقطت فجأة. سقطت وهزت كيان كل إنسان وطني شريف، وحولت كردستان بأكملها إلى مناحة لا يسمعها الله ولا البشر. كان مجرد بكاء على زمان يغدر، على زمان لم يفتح حضنه للكرد أبداً، وكأنهم أعداء للزمان وقتلة لوالده أو لربه.

بعد هذه الهزيمة لأمال أبو حسن، راجع أفكاره بعقل زجل ناضج، لا بإندفاع شاب غمر، وقرر عدم الإرتباط بأي أمل إلا إذا تأكد من صحته وإمكانية تحقيقه، لقد حدد مهمته في الحياة بتربية أولاده تربية وطنية سليمة مع الإهتمام بتدريسهم، فبحسب رأيه الفشل ينبع من الجهل و قلة المعرفة.

- 2 -

لكل أرض أزهارها والفرد نتاج للمحيط الذي ينشأ ضمنه، ولقمان كان إبناً لشكل الحياة التي ترعرع فيها، ذاق مع والديه واخوته مرارة الواقع الكردي ونكساته المستمرة. ومنذ أن كان طفلاً أصبحت قضية الوطن المحتل وتحريره تحتل أكبر جزء من تفكيره وخياله. فإذا كان الفشل نصيب القادة وأنصارهم فهو الذي سيحول جميع الهزائم إلى إنتصارات ليُغير بذلك وجه التاريخ، هكذا كان يتخيل نفسه في الأحلام، يحمل سيف الفتوحات يزهق الظلم من جذوره ويحقق العدالة، يقطع الأرض شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً ولا تمنعه إلا المحيطات، عندها يعود إلى أبويه خاشعاً ويقول: هاهي امنياتكم قد تحققت، ومن اليوم وصاعداً، لا إستعمار ولا ظلم فكل البشر سيعيشون كالاخوة...الخ.

عقل طفل لا يعترف بالموجود ولا بالموانع، يخترق الزمن ويقطع المسافات، يطير ويهرول، يركب الاحصنة والِجمال ويستخدم مختلف أنواع الأسلحة بمهارة فائقة متفوقاً على أبرع فرسان العصر الإسلامي.

عندما قُبض على أخيه حسن كان قد تجاوز العاشرة من عمره، وقع تلك الحادثة قدم له مادة غنية ليحلم بها ويطور بها خيالها، فها هم أعداءه المجرمين يصبحون واقعيين يقتحمون

المنازل يقبضون على الأبرياء. يحولون أفضل العوائل إلى اطلال وحطام. وسوف يهجم عليهم في مراكزهم في المكان الذي يحتجزون فيه المساجين لينقذهم ممن يتسببون بالخوف للبشر، وسينهي بقوة إرادته وسلامة فكره جميع المتسلطين. هكذا لم يترك أي موضوع الا وجعله مادة يعجنها بين تلافيف دماغه يعطيها الشكل الذي يريده، وأخيراً يقدم لنا أفضل الأنظمة في العالم. حيث الحرية والعدالة والطفولة البريئة.

هدفه الأوحد كان مختزلاً بأن يكبر بسرعة وعندها سينتقم ممن أجبروا والده على ذرف الدموع لأول مرة في رجولته، يوم النكسة -1975 - من الذين حولوا حياة والدته بأكملها إلى سلسلة من الأحزان وإنتظار الفرج الذي لم تراه، ومن الذين ضربوه في المدرسة إلى أن تعلم لغة غريبة واتقنها أكثر من المعلمين أنفسهم. كان متفوقاً في كل شيء يقوم عليه، ففي المدرسة كان يتخيل المراتب الاولى وكذلك في الألعاب مثل كرة القدم... هو الأمهر بين الزملاء ومنذ الصغر وجد نفسه مسؤولا عن العائلة وبذل الجهود للتقليل من معاناتها، فخلال العطلة يبدأ بالعمل كأجير عند فلان وعلان ليؤمن بعض النقود يساعد بها الأب الذي حطم سجن الأخ ظهره.

تعرف على دلخواز منذ الأيام الاولى للذهاب إلى المدرسة ، ومنذ ذلك اليوم كان العاصفة الهوجاء ضمن هدوء دلخواز، كان يظهر وكأن الدنيا ملك يديه، يحتضن الحياة ويحياه بنشوة وفرح مع أنها، أي الحياة، تستكثر عليه ذلك ولا تتوانى عن الإساءة إليه كلما سنحت لها الفرصة. نادراً ما كانت البسمة تجافيه، فهل كانت هذه حقيقة أم وسيلة يخفي لها الحقيقة المؤلمة..؟ أم رد فعل لسحق الآلام التي تحيط به كالاخطبوط تمسك بجميع أعضاءه تمنعه من التحرك بحرية...؟ ولولا

إنشغاله وإندفاعه الباسم ضمن أروقة الحياة لغرق في مستنقع الحزن واليأس ورضي بالمصائب كالقضاء والقدر.

رافق دلخواز وتحول إلى صديقه الصدوق، فارتبط كل منهما بالآخر، يذهبان معاً إلى المدرسة وبعد الدوام يزوره في المنزل ويظل عنده لساعات طوال، يدرسان معاً، فالتفوق الدراسي هو الهدف المشترك لكلاهما بالرغم من إختلاف الدوافع. يلعبان معاً ونادراً ما يتخاصمان وحتى لو حدث ذلك لا يلبثان حتى يتصالحان. فهما كتوام لا ينفصلان، يخططان للمستقبل وطالما بدا لقمان بفتح قلبه لصديقه، يحدثه عما يعانيه الناس من أبناء قومهم، إلا أن دلخواز الذي يستمع كراغب في معرفة أشياء غريبة عنه، لا يحس بها، فهو لم يلاق أية آلام جدية، وحتى لو ضاقت له الدنيا، تسارع امه إلى نجاته، وتتكفل بإعادة الامور إلى نصابها، وأكبر عائق ظهر أمامه كان تجاوز عائق اللغة التي لا يعرفها، لكن تم له ذلك بنجاح منقطع النظير بجهود العائلة وإصرارها. كل شيء كان مشتركاً بينهما، أحدهما يفضل زميله على نفسه خاصة دلخواز فلقمان بالنسبة له الصديق الوحيد بعكس لقمان الذي يصادق شباباً كثر، لكن دلخواز بالنسبة له هو الأقرب إلى قلبه مع أنه يحتقر فيه ذلك الجانب السلبي والمستسلم لرغبات العائلة المقيدة لحريته.

جزء كبير من وقت لقمان يمضي برفقة دلخواز إلا أنه لا يهمل هوايته المفضلة ـ كرة القدم ـ و باقي أشكال اللهو والمرح. كما وكان من مرهوبي الجانب ضمن جماعات الشباب بما يملك من شخصية قوية وقوة جسدية.

- 3 -

انتشر النبأ مثل الرائحة الكريهة تتناقله الأفواه المحبة للقذارة والطعن بشرف الناس وكبر وتعاظم، ليتحول إلى نار تلهب عقول وقلوب ذويها لتحولهم إلى كتلة من الغضب والحقد تملئ روحهم بالرغبة في الإنتقام وغسل العار بإراقة الدم.

القتل هو أول شيء يخطر ببال هؤلاء البشر، فلا حقوق ولا شريعة بل عادات وأعراف تتحكم بالجميع، حتى المثقفين والدارسين ممن يعارضون هذه الأعراف قولاً، تراهم في الفعل والممارسة يسبقون الناس الحمقى ولا يكتفون بذلك بل يستخدمون تلك الثقافة لصب البنزين على النار.

إجتمع الكبار من الأقارب للتشاور حول الموضوع. خلال الإجتماع كان قرار القتل الصادر بحق العمة غير قابل للنقاش أو الأخذ والرد، الكل متفق على ضرورة تطبيق العرف السائد، لكن المسألة التي طال الحوار حولها كانت إختيار الشخص الذي يجب عليه تنفيذ القرار. بحسب العرف والواجب تقع مهمة التنفيذ على الأقرب صلة بالمحكوم عليها، لذا فقد تم إختيار والد لقمان لأنه الأخ الأكبر للعمة. مع أنه يرفض في داخله هذه العادة، لكنه ما باليد حيلة وألسنة الناس لا ترحم، بل تنغرس كالخناجر في الأجساد وتجرح الإنسان في كرامته وكبريائه. يعرف تماماً بان اخته عاجزة لا حول لها ولا قوة وحتى لو لم تكن راغبة في ممارسة السوء لا تستطيع منع المعتدي عليها، فهي العمياء وغير القادرة حتى على تلبية إحتياجاتها الذاتية. إن المجرم الحقيقي هو أخ زوجها ذو النفس الدنيئة الذي يتعدى على شرف أخيه بعد

موته، فبدلاً من حمايتها والعناية بها يفعل بها ذلك المكروه، هذا هو قانون الغاب. الإنسان المريض والعاجز لا مكان له ولا حياة. العمة التي لم تجد يوماً سعيداً في حياتها، ولدت عمياء عاجزة عن أداء أية وظيفة أوعمل، ولنفس السبب ظلت عانساً بلا زواج، فمن سيرضى بفتاة لا تملك القدرة على خدمة الرجل وتربية الأطفال، إلى أن طلب يدها عجوز في الستين من العمر ماتت زوجته. لم يتردد اخوتها في القبول، فزوجاتهم ترفضن العناية بها متمنين لها الموت لترتاح ويرتاحوا. أخذوها مثل نعجة تشد من أذانها، وزوجها المصدوم بتقربات أبناءه وبناته وجد فيها إنسانية تسمح له وتشاركه، لكن حتى تلك الراحة البسيطة لم تهنئ بها. فبعد عدة سنوات مات زوجها وظلت معلقة بين الأرض والسماء. أولاد زوجها يريدون منها ترك البيت لكي يبيعونه ويوزعوا ثمنه فيما بينهم، وبالمقابل اخوتها لا يستسيغون عودتها إلى بيوتهم، وبين هؤلاء وأولئك كانت المحطمة الراغبة في الموت تحترق وتلعن البشر والالهة والحياة التي لا يوجد فيها مأوى للضعفاء والمساكين.

أخ الزوج الذي عمره من عمرها تعدى عليها وهي الوحيدة ضمن بيتها، ولا أحد يعلم هل كان الامر مجرد نزوه عابر أم أمر مخطط منها. لا فرق لأن النتيجة هي نفسها، والعادات لا تجد الجرم في الرجل بل المرأة وحدها هي التي تدفع الثمن، ظالمة كانت أم مظلومة تعتبر زانية، أما الرجل فيظل كالديك يفاخر بفعله الفحولي.

بعد القرارالذي اتخذه المجتمعون بقي العبء بكامل ثقله فوق ظهر والد لقمان المنحني أصلاً تحت ضربات الزمن الغادرة. كان عليه إنهاء الامر خلال أيام معدودات، لان الاذن غير قادرة على تحمل ما يقال وقد تتحول المشكلة وتكبر.

تحول إلى إنسان آخر، تائه في صحراء لا نهاية لها يبحث عن خلاص بدون أن يجده إلى أن أسعفه أخاه الأصغر بإقتراح إخرجه من النهر إلى أليم. فكرة الأخ كانت تتلخص بأن يُقدم هو على القتل لكن بشرط أن يتم تقديم لقمان للشرطة على أنه القاتل. عندها سوف يتم الإفراج عن لقمان بسرعة بسبب صغر سنه. وافق الوالد على مضض، فهو يرفض فكرة القتل أصلاً، ويرفض تقديم إبنه الذي لم يبلغ الخامسة عشر منذ أيام، إلى أيادي لا تعرف الرحمة أيضا، فقد لا تنطلي عليهم الخدعة وقد يقدموا على تعذيبه لكي يجبروه على الإعتراف. وهو شاب يافع وقد ينهار أمام الممارسات الهمجية في السجون. لكن حتى هذا الإحتمال كان الاخ قد وجد له جواباً شافياً. فالرشوة دواء فعّال وهو سوف يقدمها لرئيس قسم الشرطة كتدبير لكل طارئ وبشكل عام الحكومة متساهلة جداً في التعامل مع جرائم الشرف.

لم يجد والد لقمان أي بديل عن القبول والرضوخ. وقد تكفل أخوه بإتمام المهمة، التي كانت أبسط مما قد يتصوره المرء. فالعمة موجودة في بيتها ليلاً نهاراً ولا يلزم لقتلها إلا رصاصة واحدة تريحها وتريح أهلها.

بعد عملية القتل تم تسليم لقمان إلى قسم الشرطة، حيث بقي في الحجز خمسة عشر يوماً، إلى أن أفرج عنه بقرار البراءة بسبب صغر سنه ولكون الموضوع إنتقام للشرف. مرت تلك الأيام الرهيبة والكئيبة على لقمان وهو راضي بأداء دوره مكرهاً بعد أن تم إقناعه بأنه الوحيد القادر على لعب دور المنقذ للعائلة وماهي فيه من موقف حرج. لصقت به تهمة قتل عمته إلى الأبد وهكذا سوف يتعامل معه أصدقاءه ومعارفه، هذا من جهة أما من الجهة الثانية، فالشرطة التي طالما نظر إليها نظرة العدو والمعتدي الغريب، ها هو قد

أصبح ضيفاً عليهم يحققون معه يستخدمون وسائل الترهيب وقليلاً من الضرب، فهذه هي عادتهم والداخل إلى السجن يجب أن يُهان وأن تُحطم كرامته، وجميع الناس عبيد تجاه الدولة التي رجالها يمثلون الرب على سطح البسيطة.

كانت أياماً تركت أثاراً لا تمحى في فكر وخيال لقمان، فازداد كرها للشرطة والدولة وما يمثلون من فكر يهين الإنسان ولا يجد فيه سوى عبداً، بدأ خياله الواسع يبحث عن بدائل لمثل هذه الدول يرحل به إلى زمن المسيح وحوارييه والنبي وخلفاءه و.... الخ، رغبته تكمن في إيجاد مجتمع تحكمه العدالة تخلو منه وسائل الإكراه ويلتغي فيه الفقر والجوع.

- 4 -

سفينتان محملتان بأمال ورغبات زاهية، بلا خارطة ولا بوصلة، تبحثان عن جزيرة مفقودة، كل منهما كان يبحث عن الآخر، فالصداقة الحقيقية هي السند والمعين والسراج المنير ضمن ظلام كالح.

لقمان الذي إرتبطت مسيرته بدلخواز، يبدأ بمساعدته لكي يتعرف على العالم الخارجي الذي منع عنه، بعد أن وجدت العائلة نقاط الضعف في تربيتها لإبنها، قامت بإرخاء الحبل قليلاً وسمحت للقمان بإصطحابه، بجولات يومية تستمر لعدة ساعات يتمنيان خلالها أن يتوقف الزمن، تبدأ بعد الظهر عندما يخف وهج الشمس الحارقة صيفاً، لان لقمان يعمل أجيراً عند أحد البنائين، من بزوغ الفجر وحتى ما بعد الظهر، وتستمر لغاية مغيب الشمس. يمرون بالسوق يتجولون بين المحلات والمتاجر إلى أن ينهكهم السير المتواصل، فيجلسون

في أحد المنتزهات يتمتعان بطعم البوظة التي يحبونها جداً. أحيانا يصحبه لقمان إلى النهر للسباحة لكن دلخواز لم يجد المتعة هناك، والسبب عدم معرفته للسباحة، فهو يخاف الماء ولم تنجح محاولات لقمان معه لكي يبدأ بالتعلم.

خلال هذه الجولات المتنوعة في السوق والملاعب والمنتزهات، تعرف دلخواز على شباب كثر، لكن لم يعقد معهم صداقات حميمة بل اكتفى بلقمان، لأنه موضع ثقة عند العائلة، أما الآخرين فهم من الذين حذرته الام منهم، يتقربون من الناس فقط من أجل منافعهم.... الخ.

فصل الصيف الذي سبق البدء بالدراسة الثانوية كان أجمل فصل مر على الصديقان طوال حياتهما الماضية كان مليئا بالمسرات والأفراح. بالرغم من الصعوبات التي لاقاها دلخواز في التأقلم مع الأجواء الجديدة إلا أنه أدرك وبشكل جلي، مدى ضيق الحياة التي سجنوه فيها خلال عمره الماضي، فنمت لديه الرغبة بالتأقلم مع الجو الجديد، لكن هيهات فالطبع يغلب التطبع.

ظهرت نتائج إمتحانات الشهادة الإعدادية، ورسب العديد من الطلاب وعلامات البعض منهم لم تكن كافية لدخول الثانوية العامة، لذا ومن بين جيمع رفاقهما السابقين في الدراسة لن يداوم معهما إلا القلائل ممن مكنتهم درجاتهم من إكمال الدراسة الثانوية.

المدرسة الثانوية بعكس الإعدادية متواجدة في السوق بعيداً عن الحي الذين يسكنون فيه، يسيرون إليها مشياً على الأقدام في الصباح الباكر. مئات الطلبة يتجهون إلى مدارسهم، البعض يسير بسرعة السهم والبعض يسير على أقل من مهل، عيونهم تبحث في الفراغ عن شيء مفقود حتى قبل ولادتهم.

بعكس المراحل السابقة معظم طلاب الثانوية من أبناء القومية الحاكمة، وهذا كان له تأثير فعال تبدل نظرة دلخواز البريئة. خلال سنين مضت كان لقمان يتكفل بالدفاع عنه. فهو قوي البنية ومشاكس مرهوب الجانب وهو عضو اساسي في شلة يتحكمون بجميع الطلبة وتستمر حاكميتهم ضمن الحي أيضاً، وحتى بعض المعلمين لم يسلموا من شرهم ومشاكساتهم. الآن اختلف الوضع فمعظم تلك الشلة فشلت في الإمتحانات وهم أقلية ضمن المدرسة. منذ اليوم الأول للدراسة، ظهرت بوادر حياة جديدة، ستشغل قسماً مهماً من تفكيرهما. مجموعة من الطلبة أحاطت بطالب منزوي في أحد الزوايا يتطلع من النافذة إلى ساحة المدرسة الفارغة وهو جالس على مقعده، من دون مقدمات طلبوا منه ترك المقعد، مدعين بأنه لهم، وعندما لاحظ كثرتهم اذعن لهم مجبراً وقام تاركاً المقعد، قال أحدهم بعد أن أمسك برقبته: مالك تنظر إليّ بإنزعاج

ـ لم أنزعج، وها أنا أترك لك المقعد، فهل ترغب بشيء آخر..؟

ـ كيف تجرء على رفع صوتك أيها الحقير ..؟

ــ لم أرفع صوتي لكن من الواضح بأنكم تريدون المشاجرة لكني غير مستعد لذلك، أنا قادم من مدينتي لكي أدرس، فاتركوني وشأني.

ما أن أنهى كلامه حتى إنهالوا عليه بالضرب، وهو لم يجد من الدفاع مفراً، ولم تنفعه قوته ولا جسارته فهم جماعة وهو وحيد. لم تكن إلا لحظات حتى انضم لقمان إلى المعمعة بهدف الفصل بينهم لأنه أدرك من لهجة الطالب الوحيد بأنه من بني قومه فسعى إلى إنقاذه، مخاطراً بالدخول في معركة

غير مضمونة النتائج. مداخلتة هدأت المعركة، فارتد الطالب إلى الوراء وأسند ظهره إلى الجدار متفائلا بقدوم العون، بينما كامل حواسه مستنفرة وجاهزة للدفاع عن النفس.

تكاثرت الجماعة حول لقمان يهددونه بالضرب في حال لم يبتعد عن المشاجرة، لكن لقمان تحداهم جميعا وطلب منهم ترك الطالب الوحيد لشأنه، لذا استمرت المعركة أشد وأعنف مما أجبر دلخواز المسالم على المشاركة لمساعدة صديقه، والطالب الوحيد الذي لم تكن تنقصه الشهامة فقد استمر يدافع عن نفسه وعن الساعين لنجدته. مع إزدياد حدة المعركة وإستخدام المقاعد كأسلحة في القتال، زاد صياح الطلبة المشاهدين، مما أدى إلى قدوم الموجه الذي أنهى الإشتباك بصعوبة جمة استخدم فيها كامل قوته في الضرب. قام الموجه بكتابة أسمائهم جيمعا وهددهم قائلا: تكرار مثل هذه المشاجرة يعني فصلكم من المدرسة بشكل نهائي.

المعركة لم تحسم، ولقمان من دون رغبة مسبقة أصبح طرفاً في صراع مرير منذ اليوم الأول، فهو لا يتحمل مشاهدة أحد أبناء جلدته يضرب أمام عينيه ويكتفي بالمشاهدة. نعم لقد أصبح هدفاً لجماعة من الزعران، لكنه اكتسب صديقاً حميماً سيكون له دور في حياته وسيتعرف من خلاله على امور كانت خافية عنه.

- 5-

في أول مرة طرح عليه أحد الطلبة سؤالا فضولياً عن كيفية ولادة الطفل، بقي جامداً لا يعرف كيف يجيب، وبالرغم من شطارته في الدراسة إلا أنه اجبر على التنازل والسؤال من نفس الطالب، فهو فضولي ويحب معرفة كل شيء.

الطالب الذي تحول إلى طاؤوس يتباهى بما لديه من كنوز المعرفة، رد مجيباً:

ـ الطفل يولد عن إجتماع الرجل والمرأة، فالرجل يمارس الجنس مع المرأة، مما ينتج عنه الحمل الذي يستمر تسعة أشهر وبعدها يولد الطفل...

ما أن سمع دلخواز كلامه غير المحترم، حتى وبخه وقال له كلمات قاسية، لأن كلماته كانت بمثابة إهانة له. فكيف يمكن أن يصدق بأن والده يمارس الجنس مع والدته.

الطالب إبتعد عنه ضاحكا. ساخراً بتفوقه لأول مرة على دلخواز المجتهد، اما دلخواز فقد غرق في بحر الافكار وبدأ يراجع ما قاله ذلك المعتوه بترو وهدوء، لكنه لم يستطع قبول ذلك مع أنه قد شهد بعينيه وسمع باذنيه ما يؤكد إدعاءاته، لكن شكل التربية التي تلقاها، وإحترامه غير المحدودة للوالدين يمنعانه من تصديق ذلك ولم يجد مفراً من اللجوء إلى لقمان لكي يحل له هذه المعضلة التي ستكون موضوعا لفكره لمدة طويلة. لقمان الخبير المشاكس ضحك من سؤاله في البداية، لكن سرعان ما رد عليه بجدية: نعم يا دلخواز هذه هي الحقيقة التي يخفيها الكبار لأنهم يخجلون من فعلهم، ولا أعرف لماذا مع أنه أمر طبيعي جداً.

مع تأكيد لقمان لهذه الحقيقة سقطت أعمدة المعتقدات السابقة فوق رأس دلخواز، فبقي كالشريد وحيداً عارياً في شتاء قارص يعاني البرد والجوع من دون أي أمل بالخلاص، أينما ينظر يظهر له الثلج والريح والبرد.

هذا الموضوع تحكم بفكر وخيال دلخواز كان كالذي وجد نفسه ضمن المستنقع كلما جاهد من اجل الخلاص يغور فيه

أكثر فأكثر إلى أن ييأس ويرفع رأسه إلى الاعلى مناجياً السماء أن ترحم لحاله وتضيء له سبيله.

لقمان الذي يفهم رفيقه من أول نظرة إلى ملامحه، وجد بأن حالته ليست على ما يرام، فهمّ يسأله ويحرضه على أن يفتح له قلبه.

ـ أيها الخائن لقد بدأت تخفي عني اسرارك، فالتأمل والحسرة التي أنت فيها تظهر وبشكل أكيد بأنك عاشق ولهان، فمن هي سعيدة الحظ مالكة قلبك وعقلك..؟

ـ إن الحقيقة التي كانت خافية عني وظهرت عارية أمام ناظري تؤثر علي، تقلق راحتي تمنع عيني من النوم، ولا أستطيع التحكم بعواطفي وتصرفاتي. منذ ذلك اليوم سقط والدي من عيني فقدت إحترامي لهما، لم أعد اتحمل البقاء معهم ولا مشاركتهم الحديث أو الطعام، اصبحت سجينا ضمن غرفتي أكره الخروج منها، وحتى اختي الكبرى التي احبها، لا أستطيع تحمل حقيقة أن تنام مع رجل آخر.

ـ إنها سنة الحياة، فحتى الحيوانات تتناسل لكي تحفظ جنسها ومثلها النباتات، كل الكائنات الحية ذكر وانثى ومن إجتماع الاثنين تستمر الحياة.

ـ لا الاقي أية صعوبة في قبول هذه الحقيقة، لكن ماذا افعل بروحي المنهارة، كل شيء سقط من عيني وتحول إلى كذب وهراء.

ـ سوف تتعود مع الأيام، وغدا سوف تبحث عمن تصبح زوجة لك وستصبح أبا لأولاد عدة. عندما سمع ذكر الزواج، ابتسم واحمرت وجنتاه، فهو الأبعد عن عالم النساء، ويشعر بقوة جذب رهيبة نحو كل فتاة يقع نظره عليها، وخاصة

الجميلات منهن، لكنه أضعف من أن ينظر في عيني إحداهن، ويكتفي بالحلم والخيالات. كانت الفجوة تزداد اتساعاً وتعلو العوائق وتتعقد الحدود لتصبح هاوية سخيفة يستحيل تجاوزها.

شاهد لقمان شروده وحيرته وعدم قدرته على متابعة الحديث، فأراد تلطيف الجو.

ـ ان الرجل من دون فتاة مجرد حجر صلد، إنهنّ الحياة، وقد خلقهنّ الله لمتعة الرجال وعليك أن ترضى بقضاءه. لا يوجد أي طالب بلا محبوبة من الطالبات أو المعارف، لا يهم من تكون المهم أن توجد واحدة تملأ عليك دنياك تسليها وتتسلى بها. أنا نفسي حاولت مع العديدات، نجحت مرات وفشلت مرات اخرى، لكن في كلا الحالتين أجد نفسي مرتاحاً، والآن لي علاقات مع بعضهن، فعالم الطلبة عميق للغاية وأنت لا زلت في السطح ولم تجرب الغطس ولو لمرة واحدة. عليك بترك حياتك المثالية البالية، لتبدأ حياة المغامرات الشيقة عندها ستجد بأن الحياة أسعد وأجمل وتستحق العيش.

كلمات لقمان كانت تجد القبول لديه، وهو لا يناقش صحتها أبداً، لانه يحترق كالشمعة التي تذوب من دون أن يشعر بها أحد، إنه يعاني ويتألم من دون أن يتمكن من تجاوز خجله وخوفه، وكل أمله مرتبط بقدرات لقمان ورغبته في مساعدته.

- 6 -

مع أول نذاء للوالدة استيقظ ليصلي صلاة الفجر ويتناول الفطور بجانب المدفئة. كان الوقت باكراً لكنه حمل حقيبته

واتجه صوب الباب الخارجي، أوقفه صوت الوالدة: إلى أين..؟ لا تزال أبواب المدارس مغلقة الآن.

التفت إلى والدته، لم تنبس شفتاه عن أي كلمة، فقط ظهرت عليها ابتسامة خجولة، ثم استمر في سيره خارجاً إلى الطريق، يمشي على أقل من مهله، وصل إلى تقاطع الطرق وجلس أمام الدكان المغلق، كان الجو بارداً والريح الشمالية تلفح الوجوه، لكنه لا يبالي بكل ذلك لان هدفه الوحيد هو رؤيتها، تلك التي سقطت كالنيزك ضمن بحر قلبه وأحدثت فيه الهياج الذي بدأ، ولا يمكن السيطرة عليه. هذه كانت حالته منذ ذلك اليوم، السعيد أم المشؤوم، هو نفسه لا يملك الإجابة. في ذلك اليوم مزح معه صديقه لقمان مزحة ثقيلة بعض الشيء، فبينما هما واقفان في ساحة المدرسة بين العديد من مجموعات الطلبة والطالبات، قال لقمان: ما هذا يا دلخواز، تتصنع الحشمة إلا أنك والظاهر كالحية من تحت التبن.

ـ ماذا تقصد بكلامك يا لقمان. انني لم اخفِ عنك أي أمر.

ـ وتلك الفتاة هناك، تلك السمراء الجميلة. منذ عدة لحظات وهي تنظر إلينا بل إليك بالتحديد، فكيف تفسر ذلك.

دلخواز الأبعد عن عالم الفتيات والمغامرات كان يموت خجلاً وحياءً أمامهنّ، وقلبه يحترق لمجرد النظر إلى جمالهنّ ولا يفرق بين الواحدة والاخرى، فكل واحدة منهن صالحة لتكون موضوعاً للحب، لكن من أين له الجرأة على المبادرة والكلام معهنّ، وحتى لو حدثت مصادفة وبدأت إحداهن بالحديث معه لطلب شيء ما، أو لامر آخر، يرتجف ويرتبك ويتلعثم ويلعن نفسه وشخصيته المهزومة والجبانة، ويلوم نفسه لفترة طويلة على عدم الاستفادة من الفرص المتاحة

للبدء بعلاقة غرامية قد تهدأ العاصفة التي تغلي في جوفه وتنهي للاستقرار في حياته.

ما أن سمع حديث لقمان حتى ارتبك كمن يواجه افعى سامة، من دون أن يكون مستعداً لمثل هذه المفاجئة، نظر إلى الجهة التي أشار إليها لقمان، ليجد فتاة جميلة تنظر إليهما، فلم يصدق رؤياه ونسي ما قاله لقمان، بل سيطرت عليه البهجة، وخفق قلبه واحمرت وجنتاه وفضحته الابتسامة التي ظهرت على شفتيه.

ـ هل ستعترف أم ستختفي من وراء الانكار..؟

ـ لن اقول أي شيء، وأرجو أن تكون كلماتك صحيحة، وتكون هذه الفتاة مهتمة بي.

في نهاية الدوام، انتظرها مع لقمان إلى أن خرجت ، تبعاها من بعيد إلى أوصلت إلى بيتها بعد ذلك تكفل لقمان بجمع المعلومات عنها، ولم يقصر بل جمعها في فترة قياسية. إنها فتاة قروية تدرس في المدينة مع اخوتها وهي من عائلة غنية معروفة في المنطقة...الخ. مهما كثرت المعلومات هذا لا يؤثر في المسألة التي ترتبط بشخصه هو، لانه هو العاجز عن عقد أية علاقة، ولو مجرد حديث عابر، فكيف به والبدء بعلاقة حب مع فتاة غريبة، لم ينل منها إلا نظرة لا يعرف هل كان هو المقصود منها ام هكذا تراءى له.. ممما يكن، تلك النظرات كانت كافية لهز كيانه من الجذور، خلقت لديه أملاً كان يبحث عنه في متاهات الخيال، وهاهو يأتيه في الواقع، لذا فقد ارتبط بهذا الأمل بجميع خوالجه، ولكي يستمر ويتحول إلى حقيقة كان يفيق في الصباح الباكر وينتظرها عند مفترق الطريق إلى ان تحضر وتمر أمامه، وهو يبقى جامداً بلا حركة كقالب الجليد، فما أن تقترب برفقة صديقتها، حتى

يصاب بالإرتباك وتخونه جسارته ولا يتمكن حتى من النظر في عينها فيلعن نفسه كما مرات سابقة كثيرة. يبقى رأسه مطأطأ وعيناه إلى الارض إلى أن تمرا، فينظر اليهما من الخلف ثم يمشي خلفهما، يمنن نفسه بالنظر إلى جسدها وشعرها المرسل لكن العيون بقيت القلعة الصامدة التي لم يستطع اقتحامها والسر الذي لم يكتشفه. لان العيون هي البحر الواسع العميق وهو الخائف من البحار والجاهل بامور الملاحة.

خلال الدرس كثيراً ما يشرد به ذهنه، ويذهب بعيداً في أورقة الأوهام عند تلك الفتاة، لكن الوهم يظل وهما يزيد من لوعته وألمه من دون أن يغير شيئا في الواقع.

لقمان كان يسعى إلى مساعدة دلخواز لكي يتجاوز عقده المتعلقة بالتقرب من الفتيات، ولذا اختلق تلك الكذبة البيضاء وقال: بأن الفتاة تنظر إليه، لكن كانت نيتجة ذلك مخيبة لآماله، فقد سيطر حب تلك الفتاة عليه، وبذا إزداد عزلة على عزلته وتأكد له عجزه وفقد الثقة بنفسه وأثر ذلك على دراسته. عندها شعر لقمان بالخطر بدأ يبحث عن حل ينقذ به صديقه من ذلك الشرك الذي أوقعه فيه من دون قصد.

-7-

أراد أن يكحل العين فعماها، هذا ما حل بلقمان عندما أراد مساعدة صديقه.

لكي يحمله على تجاوز خجله وبعد تفكير عميق ومناقشات مع بعض افراد شلته، قرر أن يأخذه إلى إحدى العاهرات ممن يبعن جسدهن مقابل المال. ومع انه لا يحبذ هذه الوسيلة بسبب

خطورتها على سمعتهما وسمعة عائلتاهما المشهورتان بالخلق الحسن والتربية الصالحة، لكنه لم يجد أي بديل غير ذلك لتجاوز عقدة صديقه الكاداء تجاه الجنس الآخر. لم يرضَ دلخواز عن الفكرة بل عارضها بشدة، فهو الذي تربى ضمن جو ديني محافظ يجد في مثل هذه الاعمال جريمة لا تغتفر، لكن وبعد أيام عديدة من الحاح لقمان وتهوينه للمسألة ـ بالرغم من انه غير واثق من النتائج ـ أقنعه بان يواجه الامر بجسارة فالذنب ليس ذنبه، بل الملامة بكاملها تقع على ذويه وشكل تربيتهم.

دلخواز تكفل بتأمين المال، ولقمان بالسؤال عن كيفية الزيارة من بعض رفاقه المجربين، فهو عضو أساسي في الشلة لكنه وإحتراماً لوالده لم يقترب من المحرمات؛ الزنا والمشروبات والتدخين. اختارا فترة زمنية مناسبة لكي لا يتم مشاهدتهما من قبل أحد، وأيضا تلثم كل منهما بكفية بشكل لا يسمح لأحد ان يتعرف عليهما.

ضمن الخيمة التي نصبت بين العديد من الخيام. بجانب آخر حي من احياء المدينة، استقبلتهم العاهرة المتمرسة في مهنتها، عمرها يقارب الاربعين لكنها مليئة بالحيوية وليست بالقبيحة. دلخواز الذي كان يسير وراء لقمان، ما ان شاهدها حتى كاد ينهار ويسقط أرضاً، لكن لقمان كان يمسك بيده ويؤكد له بوقوفه إلى جانبه، جلسا على الارض ينظران إلى محتويات الخيمة حيث يوجد كل شيء، ضمن مستلزمات المطبخ إلى أكياس المؤن ومن الالبسة ...الخ.

المرأة التي وجدت فيهما التردد والخجل، طلبت منهما ان ينهيا ما قدما لأجله، قالت هذا وكأنها تريد شرب كأس من الماء، أما الصديقان فكانا يتهامسان، لقمان يشجعه ليدخل مع

المرأة إلى نصف الخيمة الاخر الذي يفصله مجرد قطعة القماش، لكن دلخواز يعجز عن الحركة وحتى عن الكلام، فكيف به ومضاجعة هذه المرأة الكبيرة وهي في عمر والدته.

أحس لقمان بالحرج وطلب من دلخواز ان لا يضيع الجهود التي بذلاها. تجاه هذا الإلحاح بدأ دلخواز يرجوه ان يذهب هو إلى المرأة لان هذا سوف يساعده على تجميع قواه المبعثرة وتجاوز الخوف الذي يشعر به. رد عليه لقمان بصوت هامس منزعج: لقد حضرنا إلى هنا من أجلك انت فما الفائدة من ذهابي أنا، فهل أنا الذي يعاني الصعوبات في التعامل مع المحيط والجنس الاخر.

ـ ارجوك ان تفعل وقد اتشجع بعدك، ألا تراني أرتجف، قدماي تعجزان عن حملي.

لم يجد لقمان بديلا عن مضاجعة المرأة، فهو لا يقبل ان يعود خالي الوفاض بعد عمل دام أيام وليالي.

ـ سوف ادخل اليها لكن ارجوك لأول مرة أن لا تخذلني، فان لم تواجه خوفك هذه المرة سوف تبقى على حالتك هذه طوال عمرك.

دخل لقمان كارها. آملاً أن لا تذهب جهوده سداً.

خرج من وراء الستار ليجد مكان دلخواز فارغاً، ناداه لكنه لم يتلقَ أي جواب. المرأة التي كانت تقف خلفه وتضحك بسخرية قالت: هذا الذي كان معك لا ينفع لمضاجعة النساء لأنه إمرأة أصلاً.

دلخواز لم يستطع مواجهة ذاته، فخوفه داخلي وهو مهزوم من الاعماق، ولن تنفع معه تضحيات وجهود صديقه. لقمان غضب وأصر على توبيخ دلخواز. لكنه تراجع عن

قراره بعد أن هدأ قليلا. فدلخواز لا يحتاج إلى التوبيخ لانه يوبخ نفسه بشكل مستمر، يعاني من حاله وجد نفسه ضمنها، يكرهها وطالما يتمدد على فراشه داخل الغرفة لوحده ينظر إلى السقف ويبدأ بمسائلة نفسه بحرية: أأنا السبب أم السنين العجاف والواقع الرديء هي المسؤولة عن علو وشموخ جدار الصمت والشوك الفاصل بيني وبين الناس، بيني وبين عينين تبحثان عن الجمال والسعادة..؟

هل أنا من اختار العزلة والوحدة والضيق من الجماعات والخجل من النساء..؟ هل أنا من اختار الحزن كأفضل ألوان الراحة والأمان..؟ أم هي سنين المحل والجهل، التي أوصدت بوجهي كافة الابواب والطرق ومنعت عني جميع الوسائل والاساليب، تاركاً لي باب الصراع مع الذات والاحتراق من الداخل مفتوحاً على مصراعيه، يحتضنني كلما زدت حزناً وعزلة. إنها السنين والأيام تظهر لي العصيان كطريق وحيد مجهول النتائج. فإما الرضوخ والقبول، وإما تحمل عبء المسيرة في طريق مظلم مليء بالموانع والعقبات.

- 8 -

كانت المرحلة الثانوية مختلفة تماماً عن مرحلة الطفولة التي تم توديعها، والمشاكل وتناقضات الموجودة التي لم يكن دلخواز يراها، تظهر الآن بكل وضوح كقرص الشمس المنير. اذا فالحياة ليست مجرد ألوان جميلة زاهية وحسب، بل توجد فيها القاتم والأسود أيضاً. هنالك الشر والبشر الذين ينتفعون من اذاء واستغلال اخوتهم... الخ. هذه الحقائق تظهر له في مناسبات عديدة بشكل متوالي، تؤثر على هدوءه واستقراره ولاسيما معتقداته وإيمانه المكتسب من العائلة،

تهجم عليه أفكار خضراء وحمراء وبيضاء، يجد في كل فكرة منها أوجه للصواب يقبل بها إلى ان تهجم فكرة جديدة لتطرد السابقة وتحتل مكانها من دون ان تلقي أثر الفكرة السابقة بشكل تام.

في أول يوم من حياة المدرسة الثانوية ـ كما حدث في أول أيام الدراسة الإبتدائية ـ صدمته حقيقة كونه من قومية مهضومة الحقوق ممنوعة من التعلم بلغتها، ينظر اليها باستصغار ولا ذكر لها في الكتب المدرسية.

وجد بأن عليه أن ينكر لأصله، وان لم يفعل سوف يجبر على نطح الجدار برأسه إلى أن يجرح ويسال دمه.

فذلك القروي من بني قومه وبالرغم من انه لم يصدر أي حركة أو كلمة منافية للاصول وكان جالساً لوحده، لكن نزعة التسلط التي ترغب في إثبات سطوتها وترغب بأن تنحني لها الرؤوس والهامات. فبحسب فكرهم الضيق والرجعي الكبرياء حصر بالحكام ولا يليق بالمحكومين، لهذا فقد اعلن لقمان بدء المعركة ولم يكن امام دلخواز الا السير وراءه. الكل يسير بحسب تيار جارف لا يمكن الوقوف بوجهه، إنهم مسيرون، دارت بينهم المشاجرة ولم تؤلمهم اللكمات والضربات التي تلقوها من الشباب، لانهم ردوا عليهم بلكمات أقوى، لكن الامر الذي تحول إلى حجر ثقيل وتمركز على صدورهم والذي لم يكونوا يتوقعونه، بتلك الدرجة من الوقاحة، هو موقف ممثلي العدالة والحكام موقف الموجه والادارة الذين كذبوا جميع مقولاتهم، وصدقوا إدعاءات الشباب المعتدين عليهم ومن ثم أهانوهم وهددوهم بالطرد من المدرسة في حال تكرار المشاجرات. عندما احتج لقمان وأصر بأنهم لم يفعلوا أي شيء يتجاوز حدود الدفاع عن النفس، اعتدى عليه

المدرب العسكري بالضرب والشتم، ودلخواز كان ينظر كالأبله لا يستوعب ما يحدث أمامه.

هذه الحادثة سوف تتكرر لأسباب مختلفة وبأشكال مختلفة، وستكبر يوما بعد يوم، هي الاولى بالنسبة لهم لكنها تتكرر منذ قدوم هؤلاء الحكام إلى المنطقة، قدموا اليها تحت اسماء جميلة؛ الاصلاح الزراعي والقضاء على الاقطاع وإزالة الجهل، لكنه في جوهره مخطط عنصري يغذي الشوفينية والتعصب القومي ويخلق صراعات لا تخدم الا المتسلطين من الحكام.

الصراعات والمناوشات الثنائية تتحول إلى صراعات بين المجموعات، وبعد أن تعرف الطلبة الجدد على القدماء، كانت معارك طاحنة تدور خارج المدرسة بعد انتهاء الدوام، رؤوس تفج، أيادي تكسر، سكاكين تنغرس في لحم البشر، إنها نتيجة حتمية لسياسة ضرب الإنسان بالإنسان، وبما ان الطلبة ضمن دبكة الرقص فهم عاجزين عن فهم حقيقتها، كانت العواطف هي التي توجههم وتحولهم إلى تكتلات للدفاع عن النفس، يتوحدون تجاه ما يظهر لهم كهجمة تستهدف وجودهم وهويتهم، من دون أن يدعوهم أحد بدون أن يتواجد مخطط مسبق كانوا قد تحولوا إلى القوميين الكرد، فحتى أبعد الطلبة عن هذه المسائل كان يجد نفسه مجبراً على الانحياز لأحد الاطراف، لان مجرد البقاء على الحياد يعني بكل بساطة الوقوع بين المطرقة والسندان، بين فكيّ الكماشة.

في تلك الظروف كان من الصعب الإستمرار في الدراسة بنفس الوتيرة السابقة، فمعظم القادمين إلى الثانوية كانوا من الاذكياء والنشيطين في مدارسهم، لكن الجو الجديد وتناقضاته

الحادة أثرت على العديدين، فقط القليلين استطاعوا الإستمرار في نفس مستواهم ودرجة تفوقهم.

دلخواز تأثر حتى نقي عظامه، تشوش تفكيره، وتراجع مستواه بشكل ملحوظ، فالهدف السابق الذي كان يدفعه للدراسة لا يكفي الآن، فإرضاء العائلة كان القوة المحركة لتفوقه المميز، لكنه وبعد أن اصطدم بحقائق لم تكن على البال ولا على الخاطر، حقائق لطمته بشدة هزته من الصميم، امور عديدة تجذبه كما يجذب المغناطيس الحديد. بين هذا وذاك وتلك أصبح كالحائر بين آذان الشيخ وناقوس الكنيسة، اما لقمان فكان كالعاصفة التي لا تعرف الهدوء وتحتقر السكون، وكأن النار تتأجج في أحشاءه وفي باطن عقله، تدفعه إلى الامام كطائرة نفاثة، فهو الذي لم يتردد لحظة في الدخول إلى الصدام لصالح بني جلدته، واستمر في ذلك منظماً وقائداً لجميع المعارك ونادراً ما خرج من الإشتبكات دون أن يصيب بجروح بليغة، ومع كل مرة يزداد إندفاعاً ورغبة في زيادة عدد الملتفين حول افكاره غير الواضحة أصلا، فهو يؤكد على فكرة واحدة، ومفادها أنهم أصحاب حق مهضوم ويجب عليهم المطالبة بتلك الحقوق.أما إذا ما سأله أحد ما عن تفاصيل الفكرة، سوف يتلعثم ولن يزيد على فكرته أي شيء مفيد. رغم كل ذلك كان يُحرض أصدقاءه على الدراسة والنجاح، مع انه لا يهتم بها شخصياً ويكتفي فقط بالنجاح تاركاً التفوق لغيره.

اذا ما كان لقمان المقود فدلخواز هو الكابح" الفرامل" الذي يهدء من سرعته ويسعى إلى تعقيل حركاته، بما يلقيه عليه من إستفسارات وما يديره معه من مناقشات. دلخواز الأبكم ضمن الجماعات الكثيرة العدد والغريبة عنه، يتحول إلى حديث جيد بين أصحابه، وخاصة عندما يتحاور مع

لقمان، عندها يصبح سيلاً جارفاً من الافكار والآراء. لقمان يرغب بإعلان العصيان يوماً قبل الاخر لكنه يتوقف أمام ملاحظات دلخواز: كيف ستفعل وما هي النتائج التي ستحصل عليها، ألا ترى بأننا لا زلنا صغاراً على امور نحبها لكننا نجهل كل شيء عنها، فأنت تتحدث عن الوطن المجزأ والرازح تحت نير المحتلين، وتعلن رفضك لذلك، وأنا معك، فهذه شعوب العالم جمعاء قد تحولت إلى دول مستقلة بعد ان خاضت نضال التحرر الوطني وبذلت جهوداً عظيمة، كل هذا ندرسه معا في مادة التاريخ، لكن ألا تظن بأن وضعنا كشعب مختلف تماماً عن الشعوب الاخرى ـ رغم قلة معرفتي لتاريخنا ـ فكل المحاولات والانتفاضات باءت بالفشل، أنا احبذ التروي قبل فعل أي شيء، فالعمل المغامر والفوضوي لا ينفع إلا العدو، ألم تسمع بتلك الحادثة التي كتب فيها بعض المحرضين إسم كردستان على السبورة في أحد صفوف ثانوية البنات، وهذا ادى إلى فتح التحقيق مع جميع الطالبات الكرديات وتم بنتيجتها معاقبة البعض منهنّ وطرد البعض الآخر، لهذا عليك التفكير جيدا قبل ان تقدم على خطو أية خطوة، وحتى قبل ذلك علينا دراسة تاريخنا بشكل معمق، دون ذلك سنكون كمن يحمل العصا في مواجهة البندقية.

ـ أنا متفق معك تماماً ولا لبس في كلامك. لذا تراني ابحث في الارض والسماء عمن يمهد لنا الطريق، يضيء لنا الدرب لنبدأ بعمل مثمر.

ـ ان كتب المدرسة وبالرغم من عدم تطرقها إلى تاريخنا كشعب، إلا أنها تزودنا بمعلومات عامة لا يستهان بها، وما عدى ذلك علينا بتأمين الكتب المختلفة التي تتحدث عن حقيقتنا، إنني الآن أقرأ خلسة كتاباً أحضره أخي إلى البيت

بشكل سري. لم أتمكن من إتمامه لانه أعاده إلى اصحابه، لذا عليك ان تؤمن لنا بعض الكتب.

ــ لاتقلق فلا أسهل من تأمينها والعديد من الشباب يعرضون علي قراءة بعض الكتب وسوف اقبلها منهم لنتحاور حول مدى صحتها، لأن كلام الكتب مغاير للحقيقة بحسب قول والدي.

- 9 -

مع كون الوطن هو الشغل الشاغل للقمان، إلا أنه لم يكن مانعاً للانشغال بمغامرات الشباب والعديد من الامور الاخرى، فضمن الدروس طالما يتحدى المعلمين ولا يلتزم بالنظام وفي العديد من المرات وصل الامر بينه وبين بعض المعلمين إلى حد التضارب. فتحدي المعلم حسب إعتقاده وخاصة مع المعلمين غير المحبذين عند الطلبة هو امراً باعثاً على الافتخار، وأيضا يتفاخر بقدرته الفريدة على معاكسة البنات، فهو يصطحب دلخواز، ينتظران الطالبات، يسيران ورائهن ويبدأ بترديد كلمات صبيانية يخجل منها دلخواز. كرة القدم هي هوايته المفضلة وطالما حلم بانه يصبح لاعب كرة عالمي يرفع اسم شعبه. يشارك في الحفلات والاعراس، وقد إصطحب صديقه عدة مرات إلى اعراس دعي اليها أو لم يدعى. ما أن تدار الدبكة حتى ينضم إليها ليجذب أنظار الجميع بحركاته الرشيقة والمنتظمة. لقد حاول تعليم دلخواز الذي لم ينجح الا بعد جهد جهيد. نجاح دلخواز ظل باهتاً، فحركاته تبقى لا شيء امام تفوق لقمان الفريد. لكن مجرد قدرته على البقاء ضمن حلقة الدبكة يعتبر نصر الذي طالما كان يبحث عنه منذ زمن طويل.

لقمان يغامر بإقتحام مختلف النشاطات واشكال الحياة المثيرة، لم يترك أي شيء سمع عنه أو رآه من دون ان يطلع عليه بنفسه ويجربه. صاحب الشُبان الزعران وتذوق المشروبات، سار معهم ليلاً وأزعجوا الناس والمارين بالشوارع، لكنه لم يرتبط بتلك الحياة ولم يغرق فيها. مغامراته العاطفية غالباً ما كانت تنتهي برضوخ الفتاة التي يريد النيل منها، فهو ما أن يعجب بواحدة منهن حتى يمطرها بوابل من المعاكسات، أولا يلاحقها لأيام متوالية ثم يبدأ بالحديث معها وحتى لو رفضت الرد عليه في أول الامر إلا أن إصراره الذي لا يعرف الملل كان يؤثر عليهنّ. ما أن تتحدث إليه الفتاة حتى يطلب منها موعداً بعد الدوام، يأخذها إلى حديقة المدينة حيث يختبان عن الأنظار، ويبدأ بالتهام شفتيها بنهم وجوع فظيع. وما أن يحقق رغبته من واحدة حتى ينتقل إلى اخرى، لكن جميع مغامراته لم تكن تتكلل بالنجاح فبعض الفتيات المحافظات اللواتي ينزعجنّ من تصرفاته يستنجدنّ بالاخوة وأبناء الأعمام الذين يكتفون بالتهديد غالباً، لكن بعضهم يوصل الامر إلى حد المشاجرة ومع انه تعارك مرات عديدة على هذا الطريق الا انه كان يستمر في مشاكساته الغرامية، لانه يبحث عن الظهور بمظهر البطل، والحصول على القبول من الفتيات هو إمتياز يعجز معظم اقرانه على الحصول عليه. لكن حتى هذه الرغبة الجامحة كانت تخمد مع الزمن لتترك مكانها لرغبات اخرى أسمى وأجل.

دلخواز المعاكس لصديقه بعيد عن مغامراته ولا يجرأ على المجازفة مثله، وحتى لو أراد ورغب، فطبيعته غير جاهزة لخطو اصغر خطوة من خطوات لقمان، لذا تراه يكتفي بالخيال والتأمل. يحقق في احلام الليل واليقظة مايريد، لكن الاحساس بالذنب لا يسمح له بالمتعة أبداً.

في صباح يوم بارد، تهب فيه ريح الشمال" باكور" التي تلفح الوجوه، كانا يسيران معاً نحو المدرسة وألبسة الشتاء تغطي جسدهما. في الطريق المليء بالطلبة الذين يشكلون سلسلة طويلة جداً، يفصل بين كل مجموعة واخرى أمتاراً عديدة.

دلخواز بادر بفتح موضوع للحوار يتسلون به حتى يصلوا المدرسة التي يستغرق الطريق اليها مدة نصف ساعة.

ـ هل ستصدق ماحدث معي البارحة.

ـ هات ما عندك يا"دلخواز" هل ختمت القرآن، أم حصلت على ثناء الوالدة، أم جاءك جبريل بالوحي بعد إعتكافك في تلك الغرفة...

ـ إذا تهكمتَ هكذا فلنْ اتحدث معك أبداً.

ـ لا تهتم بما أقول، فهاتْ ما بجعبتك.

ـ البارحة وأثناء العودة إلى المنزل وجدتها تنتظرني في نفس الموقع الذي كنت انتظرها فيه خلال شهور عديدة. اختلطت عليّ الامور، لكنها طلبت مني أن ارافقها في جولة نتحاور فيها، فسرنا معاً إلى أن وصلنا إلى حديقة المدينة، أقدامنا هي التي أخذتنا إلى هناك. قالت لي بأنها ومنذ الأيام االأولى لانتظاري لها في الطريق بدأت تفكر بي ومن ثم ولدت لديها الرغبة في مصادقتي لكنها كانت تنتظرني لكي ابادر لطلب الصداقة، وعندما يئست من مبادرتي قامت هي بالمبادرة: عندما رأيت بانك تكتفي فقط بالنظرات التي تسرقها خلسة، فهمت بأن عليّ أن أقوم بالبدء. فأيام عديدة قضيتها في الحرمان والحسرة، ولم اجد أي بديل على القيام بما لا تجرأ

أي فتاة على القيام به، فها انا التي أقدم لك يدي، وافتح لك قلبي، وذلك لانني كنت واثقة بانك تبادلني نفس المشاعر.

ـ أشكرك على جسارتك، فقد أزلت حملاً ثقيلاً كان يوجع كتفي يُحرم علي الراحة ويُكدر حياتي، طالما رغبت وخططت لمبادلتك النظرات والتمعن في عينيك بلا خوف أو وجل واردت مرافقتك والسير بجانبك إلى المدرسة. أفتح لك قلبي الجريح لكي تقدمي لي الدواء الشافي، لكن وبشكل مستمر خانتني جرأتي والمانع كان عدم ثقتي برد الفعل الذي قد يصدر منك، كنت أخشى أن أحرم حتى من التمتع بمشاهدتك من بعيد، فقد كان رؤيتي بك صباح كل يوم كافياً ليّ، أنا الوحيد الحزين الناظر إليك كقمر في قبة السماء.

أمسكت بيدي فسرت الرجفة في جسدي بالكامل، ووقفت جامداً خجلاً.

ـ مابك... هيا بنا ندخل الحديقة، نتمتع بجمال وخضرة الأشجار.

سرتُ وراءها كالمريد وراء شيخه، تغمرني الفرحة، لكن الخوف من المحيطين كان يكدر اللقاء والبهجة، كنت أتمنى أن يموتوا جميعاً وتقفل أبواب الحديقة، لأبقى معها لوحدي، نحن الإثنان إلى آخر الزمان، كنت شارداً مع افكار تهجم عليّ، وهي ممسكة بيدي تسير بيّ إلى هدفها المحدد وتتحدث عن الحب الذي سيجمعنا تحت سقف وأحد بعد إنهاء الدراسة.

تمشينا إلى أحد اطراف الحديقة حيث لا يوجد أحد تقريبا، جلسنا على العشب وراء إحدى الشجرات الضخام، كانت تنظر في عيني بتركيز مخيف وجذاب في نفس الوقت، ولم أكن أعرف ماذا يجب علي فعله، لم تخفف من شدة تركيزها الشديد في حدقة عيني، تمنيتُ لو أتحول إلى طائر أو حتى إلى

مجرد حشرة تختفي بين الحشائش، لكنها كانت مصرة أن أكون عشبة يابسة تحرقها بشرارات عيونها الحارقة.

لمست ما بي من خوف وسلبية شدت على يدي سحبتني إلى حضنها ووضعت شفتيها بين شفتي، عندها صدقني نسيتُ الدنيا بما فيها، سيطرتْ النشوة على فكري وتحول جسدي إلى بركان يوشك على الانفجار ليحطم نفسه وكل ما يحيط به، فقد كانت أول مرة أجد نفسي بين أحضان فتاة في الواقع، كانت تسيطر علي تماماً تمسك بشفتي بين شفتيها، كالكماشة تهرص الحديد بين فكيها، حتى تخيلت بأنها ستلتهم كامل وجهي، وإندفاعها الجنوني لم يترك لي أي فرصة للإفلات، حولتني إلى لعبة، بل إلى ريشة تلهو بها، لم تكتفِ بتماس الشفتين حتى إلتصقت بيّ بكامل جسدها. مددتني على العشب، ومدت يدها تريد خلع قميصي، وكأني تلقيت صفعة مفاجئة أو صب علي سطل ماء بارد، أصابني الهلع من هذه التي لا تعرف شهوتها أي حدود، قلت لها: بأن هذا غير جائز ولا يمكن فعل مثل هذه الامور في الحديقة العامة، لكنها كانت مصرة وفاقدة لوعيها، ولم أجد أية وسيلة للخلاص من ذلك الموقف المحرج إلا بتركها هناك والهرب للنفاذ بجلدي من الفضيحة.

ـ متى فعلت ذلك..؟ ألم نكن معا طيلة اليوم..؟ أظن بأن كل ما رويته لم يكن إلا حلماً من أحلامك المخملية.

ـ نعم. حتى في الحلم لم أستطع مجاراتك، وفررت أمام فتاة هي التي تطلبني.

ـ ستظل كما قالت عنك العاهرة" إمرأة " ولن تنفع معك أية وسيلة.

ـ لا تزعج نفسك كثيراً فأنا مرتاح هكذا، وأحلامي أفضل عندي من مغامراتك الخطيرة غير المحمودة النتائج." يضحك الاثنان".

الفصل الثالث

- 1 -

كريم الذي تدخل لقمان لمساعدته في أول يوم من أيام السنة الدراسة الثانوية، أصبح أقرب صديق اليهما. إنه شاب أنهى دراسته الاعدادية بتفوق في إحدى النواحي التي تبعد عن المدينة حوالي لستين كيلو متراً، وقد قدم إلى المحافظة للدراسة الثانوية. بسبب ضعف المستوى التدريبي في النواحي، وهو الآن يسكن في بيت اشتراه له والده ليدرس فيه مع اخته التي تصغره بسنة واحدة وهي في السنة الاخيرة للمرحلة الاعدادية، وقد حضرت اخته التي تكبره بعدة سنين معهما لتعتني بهما وبامور البيت ليتفرغا للدارسة فقط.

كريم شاب وسيم حنطي البشرة، ذو شعر اسود فاحم. طويل القامة نسبياً، نحافة جسمه تظهره أطول مما هو فعلاً. يضع نظارة طبية حول عينيه السوداوين، ملامحه تظهر جدية زائدة؛ كثير التأمل يحب العزلة إلا أنه ليس بالخجول أو من قليلي المعرفة بامور الحياة، ورغبته في الوحدة تنبع من اهتمامه بالفن، يهوى العزف على الطنبور، ولا يعزف ألا ألحان" محمد شيخو" يغني أغانيه الحزينة فقط عندما يكون

لوحده في الغرفة، ولا يقبل طلبات رفاقه بالعزف لهم وحجته في ذلك بانه ليس عازفاً وممارسته للعزف مجرد تهدئة للاعصاب. أما عشقه الذي يفني فيه معظم فكره وخياله فهو الرسم ومزج الألوان، كل شيء في حياته وظيفة وواجب يجد نفسه مجبراً على أدائه ما عدى الرسم فهو حياته وحبه، ينظر إلى محيطه من طبيعة وبشر يتأملها بعيون فاحصة، ثم يحولها في خياله إلى مناظر رائعة يرسمها بفرشاته بتأني شديد، فهو لا يرسم لعرض لوحاته على أحد ولا لبيعها في المعارض والمتاجر. ما يرسمه هو روحه ورؤاه للوجود مع رغباته وآماله.

اخته الكبيرة ليلى طالما احتجت بلغتها السلسلة والراجية على إنشغاله الزائد بالفن، وهي تحاول التعبير عن مخاوفها من تراجعه في الدراسة، إلا أنه يُهدأ من روعها وقلقها مؤكداً لها بأنه لن يضيع جهوده، وسوف يكون عند حسن ظن وآمال العائلة. كما يؤكد بأن نجاحه في الرسم هو السبيل الوحيد لنجاحه في الدراسة والحياة يقول لاخته: ان أراد أحد ان يودي بي إلى الجنون عليه أن يمنعني عن الرسم، فمع اللوحة واللون والفرشاة أشعر بأنني صادق لا احتاج إلى الكذب ولا إلى التحايل، وحتى الخوف يهجرني. أفتح قلبي وأمتطي صهوة الخيال أسرح معه أينما أشاء بلا حدود ولا موانع، احاول فضح الواقع المزري لنفسي أولا، فأنا في أمس الحاجة إلى تكوين ذاتي وأشعر بأنني صاحب رسالة، والناس بحاجة إلى من يصدقهم القول والعمل، إلى من يهديهم إلى أفضل السبل، لا أرغب في إدعاء امور فوق طاقتي، لكنني احس بأن الرسم جزء مني، فلا تمنعيني عنه، به فقط احس بأنني إنسان ضمن جماعات تظن بأنها تعيش كالبشر، وظنها أبعد ما يكون عن الحقيقة.

الاختان تحبان كريم وتسهران على راحته، فهو بالرغم من قلة كلامه وبقاءه لوحده في غرفته لفترات طويلة، يبقى القوة المعنوية لهما، وكل كلمة تصدر منه تكون بمثابة القانون تقبلانها وتعملان على تطبيقها، لأنهما تعرفان بأنه لا يتحدث إلا الصدق وعند الضرورة فقط.

نادراً ما يخرج من المنزل بعد إنتهاء الدوام، يمضي وقته في المطالعة والرسم، ويدرس الكتب المدرسية عند الضرورة فقط فهي لا تجذبه، ومع ذلك يبقى من بين المتفوقين في صفه. خروجه من المنزل يكون لتلبية بعض الحاجات من السوق أو يرتاد المركز الثقافي لحضور أحد المعارض أو المسرحيات الجادة أو لاستعارة بعض الكتب، وبين الفترة والاخرى يتجول مع اختيه في السوق.

حيث يمر على المكتبات للإطلاع على آخر المطبوعات من الكتب والمجلات، وأكثر ما يجذب إهتمامه هو أخبار الرسم والرسامين.

الكثير من الطلبة حاولوا التقرب منه لنيل صداقته، إلا أنه لا يقبل كل من هب ودب، فأصدقاءه يجب أن يكونوا أكثر من اخوة بالنسبة له، رفض العديد من الصداقات البسيطة والسطحية وإبقاها ضمن حدود المدرسة وحسب، لكن علاقته مع لقمان ودلخواز اتخذت شكلاً مختلفاً، فهما ومن دون سابق معرفة دخلا في صراع دائم مع الغرباء من دون أن تكون لهما أية منفعة في ذلك، فقط الشهامة والدفاع عن المظلوم كانت دافعهم، لذا اقترب هو نفسه إليهم وكسب ودهم ولم يكتفِ بذلك، بل دعاهما إلى زيارته في المنزل. وكانت هي المرة الاولى التي يدعوا أحد الطلبة لزيارته.

صحبهما إلى بيته الطلابي المتواضع، وعرفهما على اختيه، ليلى وزينب، وكان قد تحدث لاختيه عن هذان الطالبان اللذان ساعداه.

جلسوا معا، فارتبك دلخواز وبدأ العرق يتصبب من جبينه من دون أن يرفع نظره عن الأرض وهو كعادته لم ينظر إلى الفتاتين، بعكس لقمان الذي سلم عليهما بحرارة، وبدأ بالسؤال عن أحوالهن وكأنه يعرفهنّ منذ سنين أو كانه فرد من أفراد العائلة. هذا التقرب الطبيعي والحار من قبل لقمان أضفى السرور على الجلسة. كريم من جانبه ومن دون أن يطلب منه أحد، بادر إلى الطنبور، وطلب الاذن بأن يعزف لهم، مما أدهش الاختان..! فهذه أول مرة يعزف فيها كريم أمام الغرباء. وافق الجميع مسرورين خاصة دلخواز الذي سيجد مجالاً لجمع أشلاء روحه المبعثرة من الخجل.

بدأ بالعزف الحنون والرقيق والمليء بالحزن الذي يخاطب الأرواح المعذبة الحائرة، يواسيها ويمنحها الأمل عن طريق النضال وإعطاء الحياة حقها، فلا شيء بلا ثمن، لم يكفِ بالعزف وبدأ بالغناء، اتحد بما يغني ونسي نفسه "أي فلك بوته ده نالم..." لقمان كان يردد وراءه بدون أن يصدر أي صوت فقط كان يحرك شفتيه، مع حماسة العزف والغناء زالت أجواء الغربة تماماً وأصبحوا كعائلة واحدة، إلا أن معاناة دلخواز تستمر بالرغم من إكتسابه بعض الجرأة من محيطه الطبيعي.

بعد نهاية العزف والغناء وشرب الشاي، أدخلهم كريم إلى غرفته الخاصة حيث يوجد مرسمة.

ـ لا أعرض رسوماتي على أحد، فهذه اللوحات تمثلني أنا، هي جزء من روحي ونفسي، لكنكما الآن أقرب الناس اليّ.

أطلعهم على لوحاته واحدة واحدة مع الشرح لمعاني كل منها، جميع اللوحات كانت صوراً من واقع الشعب ومعاناته، رُسمت ببراعة وإتقان. إحدى الصور كانت لأم بلباسها الكردي وهي تغزل الصوف بالمغزل اليدوي ضمن بيتها القديم حيث تظهر أيضاً اللوازم والأدوات القروية. الاخرى كان يظهر فيها فلاح يبذر البذار حيث تظهر من وراءه القرية مع الارض السهلية الواسعة. الثالثة كانت لطفل يتيم ممزق الثياب حافي القدمين يبكي والدموع تظهر على خديه و.....الخ.

لقمان: أرى أن كافة لوحاتك تتطرق لمواضيع حزينة مع أنها متقنة وجميلة.

كريم: وهل يوجد في حياتنا غير الحزن..؟

لقمان: الحزن مُسيطر، لكن المسرة والروح المرحة الرافضة للموجود السيء والمقاومة هي الوسيلة لتقليل الحزن وزيادة السعادة.

كريم: لا أجد سوى الحزن أو جميع المقاومات تتحول إلى مآسي وأحزان ولا يبقى منها سوى مواضيع يستخدمها الكتاب والرسامون في نتاجاتهم.

لقمان: لكن أين الأمل في لوحاتك، حتى ألوانك قاتمة فهل تكره الزاهي من الألوان..؟

كريم: أنا احاول أن أنقل شعوري وإحساسي بالمحيط، لا احب الكذب ولا المبالغة، اريد أن أقول للناظر، **اعرف نفسك،** فمن يعرف نفسه سوف يسلك طريق الصواب.

دلخواز: اوافق كريم على رأيه، فمعرفة الذات نقطة البداية واولى خطوات المسيرة الطويلة. لكن بالرغم من ذلك

يبقى اللون الزاهي أحد أوجه الطبيعة والحياة وأيضاً الأمل يجب أن يكون له مكان في نتاجك.

كريم: سوف آخذ رأيكما بعين الإعتبار، مع أنني متمسك برأيي

استمرت الزيارة لساعات عدة، كانت الاولى وستستمر بشكل دوري، كانت زيارة لا يمكن نسيانها، فهي بداية صداقة حقيقة يندر وجودها.

- 2 -

رجعا معا، خلال المسافة الفاصلة بين بيت كريم وبيت دلخواز، لم ينبس لقمان بأية كلمة، ولم يشارك دلخواز في حديثه الذي لم ينتهِ، فدلخواز الذي ظل صامتاً بحضور الفتيات، تفتحت قريحته وبدأ بطرح آراءه حول جميع المواضيع التي تم مناقشتها أثناء الزيارة. كان لقمان يتظاهر بالاستماع إلا أنه في دنيا اخرى، في حال هي غير حاله، كان كالمصعوق...

ما ان اقتربا من بيت دلخواز حتى عبر له لقمان عن رغبته في الحوار حول أمر لا يمكن تأجيله للغد، لم يتردد دلخواز بل دخلا معاً المنزل وفي غرفة دلخواز الخاصة، بدأ بالحديث ليفجر البركان الذي يغلي في قلبه. تحدث عن الخنجر الذي شق صدره واخترق قلبه وعن الدم الذي بدأ ينزف كالنبع الدافق. لم يفقه دلخواز ما يرمي إليه صديقه للوهلة الاولى.

ـ هذه أول مرة في حياتي أجد فتاة تهزني إلى هذه الدرجة، فما أن رأيتها حتى أعجبتُ بجمالها ورشاقتها وكل شيء فيها كان مثيراً ونضراً، أردت أن أنظر إليها بنفس العيون التي

أنظر بها إلى جميع الفتيات، لكن لم أستطع وللمرة الاولى في حياتي، عندما التقت عيناي بعيناها، أحسست بسهم ينغرس في فؤادي. عرفت بأنها ليست ككل الفتيات، لا أعرف بالضبط، هل أنا الذي تغيرت، أم هي نوع مختلف من الاناث، أم الحالة التي جمعتنا كانت السبب..؟ هل كبرت على المغامرات الصبيانية أم أن بهاء طلعتها فاق قدرتي وأجبرني على الرضوخ، إنها المرة الاولى التي احس بهذا الإحساس هل هو الحب..؟ أشعر بأنني لن أكتفي منها ببعض القُبلات الحارة ولا بالتجوال معها في الحديقة، أظن بأنني غير قادر على العيش بدونها، فهل تصدق بأنني وقعتُ بمصيدة الحب، أنا الذي طالما كنت أرى بأن جميع فتيات العالم عاجزات عن تحريك قلبي، كنت اؤكد بأن الفتاة ليست إلا وسيلة للتسلية في مرحلة الشباب وستتحول إلى زوجة وربة بيت في الرجولة، لكن ها أنا سقطت بكامل هامتي فوق وجهي ضمن متاهة لا أعرف أين ستنتهي...

ـ لا اصدق اذني، أأنت من يقول هذا، أم أنني في حلم، لن اصدقك حتى ولو أقسمت بأغلظ أشكال الإيمان، فأنت زيرٌ للنساء، لا تهتم بهنّ إلا لتوقعهنّ في شراكك، وبعد أن تنال مُرادك تنصرف منهن ليمطرنك بوابل من اللعنات، لكن حذاري يا لقمان فهذه اخت زميلنا الذي وثق بنا وفتح لنا بيته وأجلسنا بين اخواته، لذا علينا أن نكون عند حسن ظنه، لا أستطيع منعكَ من المغامرات، لكن مع هذه الفتاة لن أتسامح معك وان ركبت رأسك سوف تسوء علاقتنا.

ـ لا سمح الله..

ـ أعرف بأنك لن تصدقني، لكن هذه هي الحقيقة، هل تعرف بأن جيمع فتيات العالم تحولنّ إلى لا شيء أمام بهاءها،

منذ أن وقع عيني عليها، أصابتني سِهامها التي لا ترحم، صدق أو لا تصدق. الامر ليس بيدي، فها أنا أتحدث معك لكن صورتها تسيطر على مخيلتي، وكأنني هناك في الغرفة جالس أمامها كالمعبود أمام الهه، يتمعن بالعظمة والكبرياء.

- ..... بالرغم من ضعف تجربتي، كنت أعرف بأن الحب يعني حماية المحبوب وصونه وعدم الإساءة إليه بأي شكل كان، والحب يرفض التلاعب والخداع والقذارة....الخ.

ــ على رُسلك، إنها ومنذ اليوم ستكون الوحيدة التي ستستحوذ على قلبي، ولن تلقى مني إلا الخير والسعادة.

ــ لن تلقى منكَ إلا المساعدة والتأييد بشرط أن تكون صادقاً، ولا تستسلم لعاداتك السيئة.

- 3 -

الأصدقاء الثلاثة أصبحوا كالاخوة بل وأكثر، كل منهم مكمن لأسرار الآخر، مشكلة أحدهم توجع رأس الاخرين أكثر من صاحب المشكلة نفسه، أصبحوا ثلاثة بقلب واحد مع أن الافكار تختلف في بعض القضايا.

لقمان ذو البنية القوية والطول المتوسط يظهر أكبر من عمره الحقيقي، ملامحه قاسية، ظهر شارباه قبل أقرانه وحاجباه كثيفان يضيفان الهيبة على عيونه السوداء، بشرته سمراء تميل إلى البياض، مليء بالهياج والعنفوان يكره الصبر ويحتقره، يرى فيه جبناً وتخاذلاً، يريد دائماً دق الحديد وهو حامي، فقد ترعرع ضمن عائلة ضحت بالكثير في سبيل قضية الوطن والحرية، والده قضى عدة سنوات من عمره ملاحقاً، وأخوه الاكبر قضى خمس سنوات في السجن وهو

في عز شبابه، فضاعت فرصته في إتمام الدراسة، وخلال تلك السنوات فقدوا معظم ثروتهم، لكن بالرغم من كل ذلك، لم تتراجع العائلة قيد أنملة عن مبادئها الوطنية وظلت تتابع أخبار الوطن بأجزاءه الأربعة. نعم لقد قطع الوالد رباطه التنظيمية بسبب الفضائح والأخطاء التي شهدها بنفسه، لكنه بالرغم من ذلك لا يزال متعاطفاً معهم يرجو لهم النجاح ولا يتوانى عن تقديم يد العون عند الحاجة. يتحول إلى كتلة لهب وهاجة عند سماع أخبار سارة تتعلق بأي جزء أو حركة، وبالعكس يصبح قطعة جليد باردة مع ورود أخبار سيئة. بالطبع الأخبار السيئة والمحزنة كانت الغالبة. أخبار الحرب الدائرة في كردستان الجنوبية كانت موضع فخر بالنسبة له، وقد زادت فرحته ببداية حرب العصابات في شمال الوطن ـ بالرغم من قلة معلوماته عن تنظيمات الشمال ـ فلسنوات طويلة ظل الجنوب مركزاً للحركة الكردية تجذب كافة الأنظار، لكن كارثة حلبجة وحملات الأنفال التي أظهرت للمرة الثانية ضعف القيادة التقليدية المعتمدة على البنى الاجتماعية المتخلفة وعدم قدرتها على إيصال القضية إلى الحل العادل، وأظهرت حقيقة كون كردستان مستعمرة دولية وان الكرد لا صديق لهم. بالرغم من فظاعة ممارسات نظام بغداد الفاشي لم تتحدث وسائل الإعلام عن حلبجة.

هذه الكارثة أدت إلى إنهيار أعصاب الوالد، فخلال عدة أيام لم يذق الطعام، أغلق باب غرفته على نفسه، لم يذهب إلى العمل، والعائلة بدروها قلقت عليه. كانت الفاجعة تفوق طاقته. البعض عرضوا عليه أن يأخذوه إلى الطبيب، خشية ان يصاب بالجنون والبعض اقترحوا ان يراقب بشكل متواصل لكي لا ينتحر. لم يحدث شيئاً من هذا وذاك. لكن مأساة حلبجة بقيت وصمة لا يمكن للزمان أن يزيل أثارها. تجاعيد وجه

الوالد تزايدت بوضوح. شعره زاد بياضاً. قل كلامه وندرت ضحكاته. ملامحه لا تظهر إلا التشائم والحزن.

لقمان الذي نما تحت رعاية هذا الأب، كان يشعر بحقد دفين ممن أحزنوا والده وسجن أخوه ودبروا المجازر لشعبه. يريد فعل شيء بل أشياء كثيرة، لكن كيف ومتى وبأي من الاساليب..؟ يقترح تكوين عصابات لضرب الشباب الغرباء بشكل منظم، يقترح كتابة الشعارات فوق الجدران وأيضا حرق الاعلام المرفرفة فوق المدارس، لا يفكر بالنتائج. لكن دلخواز كان بمثابة العقل الحكيم يهدأ من روعه، يناقش معه جميع مقترحاته يؤكد له سلبيتها وعدم فائدتها، يدعوه إلى التروي والصبر. فالوقت لا يزال طويلاً لفعل الكثير والدراسة والمطالعة هي أفضل خدمة ممكنة لتقديمها للوطن.

دلخواز الأشقر ذو الشعر المجعد الجميل، يملك عينان واسعتان تظهران حيرته وشكوكه، اذناه فقط كان الجزء الذي يقلل من جمال صورته الرائعة، فالاذنان كبيرتان أكثر من اللازم. إنه الطفل المدلل للعائلة يظهر للناظر قوي البنية ومفتول العضلات لكنه في الواقع رخو وضعيف جسدياً، كونه لم يعمل طوال حياته أي عمل مجهد وحتى الرياضة لا يمارسها إلا في المدرسة. ملامحه بشكل عام تظهر براءة نادرة مما ادى ببعض الحساد على القول: بأنه إمرأة أكثر من كونه رجلاً. موقفه المعارض لمغامرات لقمان الفوضوية كان نابعاً من شكل التربية التي تلقاه ضمن العائلة المتدينة والغنية، فخلال السنين الماضية وبعكس عائلة لقمان تماماً لم تتعرض لأية مصيبة أو كارثة بل إزدادت غناً ومركزاً. بقيت على الدوام بعيدة عن الحركة الوطنية بجميع إتجاهاتها، ونادراً ما كانت تتبرع ببعض المال بشكل سري ـ لكي لا تنعت بالعمالة ـ نعم لقد كانت عواطفها مع شعبها لكن بشرط أن لا تتضرر

مصالحها وأيضاً علاقاتها المستقرة مع رجالات الحكومة في المدينة.

أما كريم فهو من عائلة متحزبة وعريقة ضمن حزبها، لكنه لم يحبذ الأجواء الحزبية وظل بعيداً يكتفي بالمراقبة والاستماع، مما سهل له الاستفاد من المعلومات الوفيرة التي تتداول ضمن الحوارات الساخنة المستمرة وأيضا من وفرة الكتب المتنوعة التي طالع معظمها، وهكذا أصبح يملك فكرة حول مجمل المواضيع التي تطرح ضمن صفوف الشعب، كان قد سُئم من الاحاديث التي تتردد على مسامعه منذ أن كان طفلاً. فجميع المحيطين به يتحدثون عن المساواة والعدالة الاجتماعية والحقوق لكنهم في الواقع يديرون مصالحهم العائلية، ووالده كان يؤكد له بان زمن النضال قد ولى منذ أن اتفق زعماء الحزب مع الحكومة بتوجيه من الحكام في موسكو، ومنذ ذلك اليوم انصرف أعضاء الحزب ومناضيله إلى البحث عن منافعهم. البعض يسعى للحصول على مقعد ضمن الإدارة المحلية، والبعض يتطلع إلى كرسي البرلمان والاخرين يسعون إلى الوزارة، أما البسطاء فيرضون بالحصول على منح دراسية لأولادهم مع أن هذا الأمر ليس متاحاً للجميع. كان الجميع يعترفون بالازداوجية وخاصة عندما يكونون لوحدهم، لكن أمام الشعب يخلقون مئات الحجج لاقناع الفقراء بضرورة النضال في سبيل تحقيق حكومة الكادحين.

كريم الذي كان يشاهد حقيقة المتحزبين وكرد فعل تجاه أنانيتهم ولكي يكون صادقا مع نفسه التي تكره الزيف وتحب الحياة على حقيقتها؛ تحب الحقيقة بالرغم من مرارتها، ولان ظروف الحياة كانت دائما أقسى من أن يواجهها بمفرده، فقد حمل فرشاته وتسلح بالألوان يحارب بها ويظهر الحقائق

لنفسه إلى أن يحين الوقت الذي يصرخ فيه مع رسوماته في وجه العالم أجمع.

تعرفوا، عن طريق كريم، على أحد النشطاء ضمن صفوف الطلاب وهو خالد الذي كان محتقراً من قبل لقمان. كان يكرهه بسبب شخصيته الأقرب إلى الانوثة وأيضاً لأنه دائم الهرب كلما احتدم الصدام مع الغرباء، لكن نظراً لكونه من معارف كريم كان يجبر نفسه على الوقوف معه وحتى التحدث معه سواء في المدرسة أو في بيت كريم، لكنه مع ذلك لم يجد عنده أي شيء يستحق الاهتمام سوى معلوماته العامة التي يكررها مثل الببغاء من دون أن يتمكن من شرح ما يقول فهو قد اكتسب معلومات من جو العائلة السياسية، لكنه بعكس كريم منخرط في تنظيمات الحزب ويدعوا الطلبة للالتقاء به والإنضمام إلى منظمة الشباب المرتبطة بحزبهم. كريم كان كارهاً لخالد ولأمثاله وانتهازاتهم وإستخدامهم لاسم العائلة والحزب، لكنه كان مجبراً على تحمله لأنه من الأقرباء، وبسبب العلاقة الحميمية التي تربط والده بوالد خالد.

كثيراً ما يبدأ خالد بطرح آراء حزبه حول تحقيق العدالة والمساواة وانهاء الفقر ضمن المجتمع وضرورة مساندة العمال والفلاحين، وكريم لا يناقشه أبداً بل يكتفي بالسخرية منه ويقول له:

ـ اذهب وقل هذا الكلام لوالدك ورفاقه فلا أحد منا يملك الأملاك التي بحوزة والدك. هلا سألته يوماً من أين جمع تلك الثروة وهو مجرد موظف حكومي متواضع..؟ لماذا لا يوزع أملاكه على الفقراء، أم أنكم تقولون مالا تفعلون..؟

لقمان لا يكتفي بالسخرية بل تثور ثائرته عندما يشاهد خالد وهو يتحجج فينفجر في وجهه قائلا:

ـ ألست أنت الذي يتحول إلى أرنب جبان يسرع هارباً عندما يبدأ شجار ما، أم أن العدالة تتحقق بطول اللسان والكلام الفارغ.

خالد يهرب من لقمان فهو يعرف انه لا يرحم المعارضين له، لذا لا يريد إزعاجه.

ـ ما الذي تستفيده من معاركك تلك، إنني أتعامل مع جميع الطلبة دون أن أتشاجر مع أحد، ولا أجد نفسي مجبراً على تلقي الضربات وفج الرؤوس.

ـ لكن هؤلاء يخلقون ألف حجة للإعتداء على الضعفاء والفرادى من أبناء جلدتنا، وإدارة المدرسة لا تتخذ أية إجراءات بشأنهم، فهل نستقبل ضرباتهم بالبسمات ونحني رؤوسنا ليدوسوا عليها...؟

ـ لا أقصد هذا لكن برأيي إن الدراسة والحصول على الشهادة، أفضل من مشاجرات لا ننفع فيها.

كريم ـ بسخرية ـ نعم يا خالد فالشهادة هي هدفك والمنحة تنتظرك، وموسكو لا تقاوم.

خالد ـ لِمَ تسخر مني ووالدك ساعي على تأمين المنحة لكَ مثل والدي.

كريم ـ حتى ولو أمنها، من قال لك بانني سأقبل بها.

- 4 -

الشاب يحب الظهور والبروز بمظهر مغاير يسعى إلى إثبات الذات بشتى الوسائل و يدخل في صراع مع الجيل السابق له، فهذا الجيل ينكر حقوق الشباب ويضطهدهم بشكل

مباشر وموضوعي. البعض يجتهد في الدراسة كوسيلة لإثبات التفوق، والبعض يجد في عرض العضلات، والمشاجرات مع حياة الفوضى الوسيلة الأمثل، القلة ممن فقدوا روابطهم بجميع القيم يمارسون جميع المحرمات والممنوعات. وآخرين يجدون في الفنون نافذة لكسب الثقة بالذات وكوسيلة لتشغيل الطاقة الكامنة والقدرات الإبداعية، أما عديمي الثقة بالذات فيرضون بحياة الظل ويجدون أماكن للانزواء للهروب من الناس مع أن فكرهم يرفض العزلة. أي أن سبب العزلة ينحصر في عدم القدرة على مواجهة الواقع.

إنتقاء إحدى هذه الوسائل أو غيرها ليس مرتبطاً بإرادة ورغبات الشباب، بل الظروف المحيطة بهم هي التي تجبرهم على الولوج إلى طريق معين والإستمرار فيها إلى أن تتغيير الظروف، لكن في معظم الأحيان يكون الوقت قد فات ومضى فلا يتمكن المرء من البدء مرة ثانية. نفس المؤثر لا يترك عين الأثر على جميع البشر. فظرف إنسان معين مختلف عن ظروف باقي البشر، فحتى الأخ لا يحيا نفس الظروف التي يحياها أخوه حتى ولو كانا توأمان.

دلخواز وأصدقاءه وبدافع من رباطهم العائلي يستمرون في الدراسة يفتحون أذانهم لأوامر الأهل ويغلقونها في وجه الصوت الصادر من قلبهم، لكن ليس إلى الأبد.

في إحدى الإستراحات التي تفصل بين الدرس والآخر كان الثلاثة واقفين معا ينظرون إلى باحة المدرسة، حيث اللوحة تظهر فوضى رهيبة يختلط الحابل بالنابل، مجموعات عديدة واقفة أو جالسة تتشمس طلبا للدفء بسبب الجو الشتائي البارد وكل مجموعة تتبادل الآراء فيما بينها فهموم الشباب لا تنتهي، لكن المرأة تظل سيدة النقاشات جميعاً. البعض جمع

عدة جوارب على شكل كرة صغيرة يلعبون بها وهم يصدرون ضجة مزعجة، أما في إحدى زوايا الباحة حيث يوجد البوفيه(كشك) يقف العديد لشراء السندويشات أو لشرب الكازوز وهم مستعجلون جداً خوفاً من رن الجرس الدال على إنتهاء زمن الإستراحة. الطلبة الفقراء يلاقون الأمرين من أجل الدخول إلى البوفيه، فهم وبسبب قلة نقودهم يريد الواحد منه أن يشتري السندويشة بسرعة قبل أن تلتقي عيناه بعيني أحد المعارف وإن حدث ذلك فهو يموت خجلاً. فمع أنه يريد أن يظهر شهامته ويدفع النقود بدلاً من هذا الصديق لكن ونظراً لجيوبه لفارغة تراه يلعن الفقر والفقراء.

في زاوية اخرى حيث يوجد المرحاض يتزاحم الطلبة والبعض يصرخ على الموجودين في الداخل لكي يسرعوا، غالباً ما ظهر المناوشات هناك فلا أحد يقبل الكلمات المهينة ولا حتى نظرة محرضة. لكن هذه المشاداة الكلامية لا تتحول إلى معارك حقيقية بل يؤجلون المسألة إلى نهاية الدوام، حيث يجمع كل طرف انصاره ومعارفه، بعد الإنصراف في مواجهة بعضهم البعض، في البداية يحاول البعض حل الامر بان يتصالح المختلفان، لكن في أغلب الأحيان تفشل هذه الجهود لتظهر العصي والسلاسل والسكاكين لتكون الكلمة الاخيرة للقوة وكثرة العدد.

بينما الأصدقاء يستمرون في متابعة أحداث الباحة الفوضوية، انضم إليهم خالد الذي سلم عليهم وبلا مقدمات بادر إلى فتح أحد مواضيعه غير المحبذة عند الأصدقاء.

ـ ان هذا الواقع المزري لا يحتمل ويجب على الشاب المثقف لعب دوره في التغيير والتجديد، فلو ترك الامر بيد الكبار ستظل الامور كما هي. إن الشباب هي الفئة الوحيدة

الراغبة في التجديد وهي بروحها الراديكالية لا تقبل الحلول الوسط، وغيفارا هو القدوة والمثال الساطع بما أنجز وحقق.

كريم: ها نحن ندرس ونطالع الكتب لنزداد معرفة وعلماً، فما الذي نستطيع فعله أكثر من ذلك.

ـ بسخرية، أم أنك تنوي حمل السلاح وليس لنا علم بذلك.

ـ السلاح والحرب لا مكان لهما في قاموسي كما تعلمون، لكن النضال السياسي والثقافي هو وسيلة مثالية، وهدفي من هذا الحوار هو فتح المجال أمامكم للتعرف على التجمعات السياسية المختلفة.

ــ كريم تجمعاتك هذه لا تنفع سوى لنفخ البالونات وإجتماعاتهم ليست إلا فقاعات صابون إنهم يجتمعون منذ عشرات السنين فهل حققوا أي شيء و.....

قاطعه لقمان قائلا: عفواً كريم، إنني اريد حضور مثل هذه التجمعات، فكيف يكون ذلك. تحول خالد إلى طاؤوس لا حد لغروره، فها هو لقمان نفسه يطلب منه الحضور إلى الاجتماعات وليس هذا فحسب بل يقاطع كريم أيضاً.

ــ إن كنت راغباً فسوف اصحبك إلى إجتماع سيعقده مسؤول حزبي كبير، وسيكون عند حسن ظنك. اتفق الأصدقاء الثلاثة على الذهاب إلى الاجتماع، وكريم رضي بالذهاب فقط لمرافقة أصدقاءه ذلك لأنه يعرف أغلب مسؤولي الحزب ولا يحب أحاديثهم التي لا تملىء بذرة التين.

في المساء إجتمع الاربع في موضع محدد كانوا قد اتفقوا عليه أثناء الدوام، دلخواز كان قد أخذ الاذن للخروج ليلاً بعد جهد جهيد، تقدمهم خالد الذي قادهم إلى بيت يقع في أحد أحياء المدينة الفقيرة. ضمن إحدى الغرف الواسعة والمتواضعة

إجتمع زهاء الثلاثين طالب مع بعض الطالبات، الكل جالس بصمت القبور ينتظر قدوم الرجل الذي سيدير الاجتماع. لم تمضِ الا فترة قصيرة حتى دخل رجل متوسط القامة نحيف أبيض الشعر تجاوز الاربعين من عمره، سلم على الجميع بأن رفع يده، فقام الجميع مرددين السلام. طلب منهم الجلوس ومن ثم جلس هو أيضاً في الصدور مواجهاً للجميع وبدأ بالحديث الذي دام حوالي ساعة. تطرق فيه إلى وضع الشباب ضمن المجتمع ودورهم في تطوير وتجديد الحياة الاجتماعية، كما اشار إلى دور ووضع الطبقة العاملة ومعاناتها. في الختام ولكي يؤكد اميته تحدث عن أوضاع بعض الشعوب المضطهدة في العالم وعن وضع الاحزاب الشقيقة لحزبهم في الدول المجاورة بعد أن أنهى خطابه طلب من الحضور أن يبدو إستفساراتهم واسئلتهم إن وجِدَتْ بعد أن نطق آخر كلماته وبشكل مباشر طلب أحد الشباب الاذن، كان يرتدي معطفاً عسكرياً ويلتحف بكفية وكأنه أحد عمال الإنشاءات، نهض الشاب يريد الحديث واقفاً على قدميه، المسؤول تدخل بأن طلب منه أن يتحدث وهو جالس، لكنه لم يستمع لما قال بل بدأ بالحديث وكأنه واقف بين جمهور غفير من المتظاهرين: لا أريد طرح أية أسئلة فما تطرقت إليه واضح جداً، بل أرغب بطرح عدة أفكار، مع محاولة عدم الإطالة، كي يبقى الوقت لباقي الزملاء ويتحدثوا هم أيضا.... إعترض المسؤول بشدة وغضب وطلب منه الجلوس والصمت وأكد على عدم وجود الوقت لكي يتحدث الجميع لذا يجب الاكتفاء بطرح الاسئلة إن وجدت وإلا فليجلس. لكن الشاب استمر قائلا: أرجو أن تحترم الرأي الآخر فأنت مسؤول في حزب تقدمي يسعى لحل مشاكل الشعب، وأنا فرد من هذا الشعب ومن حقي أن اعبر عن أفكاري. لم يجد المسؤول بدا من الاستماع.

النقطة الاولى التي اريد إنتقادها هي سياسة وممارسة حزبكم ذو التاريخ الطويل الذي لم يستطع الوفاء بوعده للجماهير ولم يحل مشاكل الشعب، بل انضم إلى السلطة الحاكمة وأصبح الشريك من الرقم الواحد في جميع المساوئ المعاشة. اما المسألة الثانية فهي نقدي لتقربكم النخبوي البعيد عن الجماهير وبقاءكم ضمن جماعات ضيقة مدجنة وفي مناطق محدودة من الوطن والمسألة الثالثة والأخيرة هي نقدي لموقفكم الإنكاري تجاه الشعب الكردي وقضاياه، فها أنت تتحدث عن نضال الشعوب المجاورة وهذا شيء جيد لكنك لم تذكر معاناة الشعب الكردي الذي أنت منه ولو بكلمة واحدة بالرغم من الحرب الدائرة في جبال كردستان والشعب المنتفض في معظم مدن شمال الوطن، إنني متأكد بأن موقفكم هذا بعيدٌ عن الشيوعية، لان الشيوعي يساند المظلوم أينما كان، بينما أنتم تنكرون أصلكم.

لم يسمح له المسؤول بإكمال حديثه، فقد طفح الكيل، وقاطعه بشدة قائلا: هل أنت مبعوث لكي تُفرغ الإجتماع، إن موقفك وحديثك يدل على أنك من المخربين، ولذا لن أترك لك الحبل على الجرار، لأنك تماديت كثيراً، فاجلس صامتاً في مكانك أو اخرج فوراً. عندما رأى الشاب مدى الأثر الذي تركه حديثه على المسؤول والحاضرين فضل الجلوس ليرى النتائج إلى آخرها، بهدف ضحد الإنتقادات التي أبداها ذلك الشاب، بدأ المسؤول حديثه مجدداً، إننا حزب جماهيري وهدفنا الوحيد هو خدمة الشعب بكافة فئاته وخاصة الكادحين منهم، ولا يوجد لدينا أي فرق بين الشعوب، والشعب الكردي هو أحد شعوب المنطقة ونحن مهتمين به، لكننا نرفض الوسائل التخريبية لأنها مضرة ولا تجلب غير الويلات.

بهذه الكلمات وأمثالها أنهى الاجتماع، بعد أن نال من الغضب والغيظ أكثر مما يتحمله. فور خروج المسؤول، خرج الشباب تابعاً كما دخلوا، واستاذن لقمان من أصدقاءه وهرول للحاق بذلك الشاب الذي أضفى على الإجتماع طابعاً حماسياً، وتحدى المسؤول وعرض القضية الكردية كما تحدث عن الحرب الدائرة في الجبال. كان يسير لوحده بسرعة حين ناداه لقمان لاهثاً، توقف وهو يتساءل عن المنادي. بادر لقمان بالحديث: أنا لقمان طالب في الثانوية، لقد أعجبت بحديثك وأرغب في صداقتك، فأنا أسمع عن الرفاق ونشاطهم من هنا وهناك لكن لم تتح لي الفرصة لرؤية أحدهم. إبتسم الشاب ومد يده مصافحاً، سر لقمان ووضع يده بين يده، فشعر بالقوة الكامنة فيها والتي كادت تعصر كفه، ومن ثم بدأ الشاب قائلا: أنا سيامند أدرس في نفس المدرسة التي أنت فيها وأعرفك وأعرف أصدقائك، وقد كنت أبحث عن مبرر للإتصال بكم من دون أن تفهموا ذلك بشكل خاطئ، لكن هاهي الصدفة جمعتنا، فهيا بنا نمشي ونتحدث في الطريق. سارا جنباً إلى جنب بدون هدف محدد، واستمر سيامند في حديثه: ضمن الاجتماع لم اعبر عن كامل أفكاري، بل اكتفيت فقط بإظهار الازدواجية التي يعيشون فيها، هؤلاء يخدعون الشعب وهم ليسوا سوى موظفين لا عمل لهم سوى ترديد مايقال في موسكو ودارة مصالحهم الضيقة هنا في وطننا، ومادامت موسكو تنكر وجود قضية كردستانية فهم هنا يصرون على هذه الافكار بشكل مقنع، ويسمون النضال الوطني والكفاح المسلح بالارهاب تماماً كما تسميه الفاشية التركية. لقد مضى الزمان الذي يسمح لهم فيه باللعب من دون أن يجدوا من يقول لهم قف. وما فعلته اليوم ليس إلا أبسط الامور، ألم ترى ذلك المسؤول الكبير، إنه أكبر من والدي عمراً، لكنه لم يتحمل

الإستماع إلى بعض أفكاري، وذلك لأنها تظهر وجهه البشع والمقنع.

توقف سيامند عن الحديث لبرهة قصيرة ثم بادر إلى السؤال: دعنا منه الآن وحدثني عن أوضاعك و أوضاع أصدقائك. بدأ لقمان بفتح قلبه لهذا الشاب، وكأنه يعرفه منذ سنين عديدة، فقد وثق به وبجديته. حدثه عن حقده الدفين على المحتلين لوطنه وعلى الذين سجنوا أخاه وعن رغبته في أن يعيش مثل باقي أفراد الشعوب المتحررة، وعن الفراغ الذي يحس نفسه فيه بالرغم من الأعمال التي لا تنتهي يجد نفسه ضمنها، لكنها جميعاً لا ترضي غروره، كما تحدث عن صديقه الفنان ودلخواز الورع.... بعد أن تم التعارف بينهما، وعده سيامند أن يواظب على صداقته وأن يمده بكل ما لديه من أفكار ومعلومات وكتب.

- 5 -

بعد ذلك الاجتماع إزداد إهتمام الأصدقاء بما يدور حولهم من صراعات فكرية وسياسية حول مصير شعبهم، وأيضا كثرت لديهم الكتب التي تتطرق إلى حالة وقضية الشعب من وجهة نظر جميع الاطراف لكن الاتجاه الأكثر تأثيراً كان ذلك الذي عبر عنه ذلك الشاب ـ سيامند ـ فقد كان تياراً معاكساً ورافضاً لجيمع التيارات يجمع في داخله، الغضب والحزن والألم والأمل وخيالات لا أجمل ولا أسعد مع المغامرة والانتقام، كان موجة عاتية طغت على جميع الموجات السابقة واحتوتها، لم تعترف بالموانع والعقبات، تجرف كل شيء تسحق وتحرق البالي والقديم الرجعي، عنيفة رافضة للموجود النكرة والضعيف القانع على ميراث الإنكار والرضوخ،

رافضة للقابع بما رسمه له الاعداء بأسماء محلاة كالقدر واخوة الدين. تيار تحول إلى الصاعق الذي فجر دواخل مجتمع يعادي نفسه ويسير بعكس الزمان، يقترب رويداً رويداً من حافة الهاوية، يحول الإنسان إلى اثنان وشخص إلى شخصان، أحدهما يصارع الآخر، يرفض حياة وموقف الآخر ويُجبره على النهوض من سبات طال أمده. هذا السبات الذي حولهم إلى عبيد مرتبطين وفقراء يبتهلون إلى الرب في السماء ويقبلون الأيادي المجرمة، فلقمة العيش وكثرة الأفواه الجائعة تكسر الظهر وتذل النفوس.

كان شيئاً جديداً وككل جديد فقد رغب به الناس. بعضهم بدافع الفضول والبعض الاخر بدافع الحاجة إلى منقذ. تحول إلى موضوع اتحد حوله الكثير من الناس واختلفوا مع من عارضوه. بدون إرادة الناس تحول إلى الموضوع رقم واحد في النقاشات فكل شيء في هذه الفكرة الجديدة وخاز كالشوك، يجرح جميع جوانب الحياة القديمة ويهدف تغيره من الجذور.

دلخواز لم يسلم من تلك الأحداث بل تأثر بها لدرجة أثرت على مستواه الدراسي، فهو يملك نفساً رقيقة وقلباً حنونا لم يتحمل ما يقال وما يكتب، وقد سيطرت صور الشهداء على مخيلته وأصبحت جزء من أحلامه، خاصة بعد قراءة الكتاب الذي يتحدث عن مقاومات السجون وعن المناضل مظلوم دوغان وقيامه بإحراق جسده في يوم النوروز. منذ إطلاعه على ذلك الكتاب يحس بالذنب ويجد نفسه مسؤولاً عما يعانيه الشعب من آلام وعذاب، يمتلأ رغبة بفعل شيء أو أشياء، لكن كل ذلك يبقى في الخيال فهو أضعف من أن يبادر إلى فعل ما.

الأخ الأكبر لدلخواز كان قد علم بإنشغال أخيه بقراءة كتب غير الكتب المدرسية، وذلك عن طريق الوالدة، وللتأكيد من

الأمر قام بتفتيش مكتبته حيث شاهد فيها كتباً من منشورات الأحزاب الممنوعة، عندها قرر الحديث معه ورده عما انخرط فيه من أعمال صبيانية ـ كما يظنه هو ـ وانتهز الفرصة في المساء، عندما عاد دلخواز برفقه لقمان إلى البيت.

بدأ يسأله عن الدراسة، فردا بأن الوضع جيد وسوف ينجحان بكل تأكيد ككل السنين الماضية. أخرج الأخ الكتاب ووضعه أمامهما على الطاولة. اهتاج دلخواز وسيطر عليه الخوف فعجز عن الحديث، لكن لقمان بدأ يتحدث عن محتوى الكتاب وضرورة الإطلاع على تاريخ وحاضر الشعب، كواجب على كل إنسان وطني. الأخ الأكبر لم يسمح للقمان بالتمادي في الحديث بل قاطعه وبدأ يتحدث بلغة آمرة لا تسمح بالأخذ والرد: لازلتما صغيرين على الدخول في علم السياسة، كافة الساسة لا عمل لهم سوى استغلال اندفاع وحماس الشباب وقلة معرفتهم بحقائق الحياة، هؤلاء لم يتركوا قرع الطبول لكن لم يحصدوا الا الفشل، ولم ينل الشعب منهم سوى خيبة الأمل والمجازر، إن أهم شيء أمامكم هو التفوق في الدارسة، وإن كنتم صادقين فالوطن يحتاج إلى العلماء وأصحاب الشهادات العالية.

ثم وجه كلامه إلى لقمان بالتحديد: هل نسيتَ ماجرى لاخيكَ حسن من جراء طيش الشباب..؟! ألم يحطم مستقبله الدراسي وأهدر عمره في السجون، والعائلة ألم تذق الامرين بسببه، عليك أن تتخذ من كل ذلك دروس وعبر تحميك وتهديك إلى أسلم الطرق. عليكم معرفة صالحكم، فما يقال ليس إلا كلام يجمع به بعض الماكرين المال ليلهوا به، لقد تحولت السياسة إلى تجارة بعيدة عن المبادئ، وإن لم تصدقوني إسألوا الكبار ممن تعامل مع مختلف الاحزاب،

فمعظمهم ترك السياسة بلا رجعة، لنترك كل ذلك، فهل تعرفون كم هو عدد التنظيمات على الساحة، ولماذا تحدث الإنشقاقات كل صباح ومساء، فلو كانوا صادقين وتهمهم مصالح الشعب، لكانوا الآن متحدين، فيد الله مع الجماعة، ومن دون الوحدة لا يمكن فعل أي شيء. أكتفي الآن بالتنبيه فقط، لكن لن أسمح لكم بأن تضيعوا مستقبلكم على أشياء فارغة.

أنهى حديثه بكلمات مهددة، وخرج من الغرفة وهو يظن نفسه رجلاً نادراً لا مثيل له. الصديقان نظرا كل منهما إلى الآخر. خرج ذلك المغرور وأخذ معه الكتاب، وهو أمانه من سيامند. تأثر دلخواز بحديث أخيه وقال: أظن بأن معظم كلامه صحيح فهل نحن بحالتنا المتردية قادرين على تغيير الواقع المر.

ـ لقد انقلبت راسا على عقب من أول مواجهة. اخوك لا يهمه الا منفعته العائلية فقط والوطن في قاموسه ليس الا مقدار المال الذي يكسبه في كل صفقة يجريها، فهو لم يخدم القضية في حياته أبداً، ولاننا أصغر سنا منه ونبدي له الإحترام، يقوم هو بلعب الدور المرشد والموجه العارف. لا تهتم بما يقول فنحن سوف نختار أفضل الطرق، ولن نترك الدراسة لكن يجب أن لا ننسى بأنهم ينكرون وجودنا ويرفضون لغتنا وثقافتنا ويجبروننا على النطق بحسب رغباتهم، ألا تتذكر كيف أجبرونا على الإنضمام إلى منظمة الشبيبة، فأين هي حرية الإختيار والتعبير..؟ إن أخاك ينظر إلى الامور من منظاره الخاص، و قد رضي بالواقع واستسلم له وليس لديه أي رد فعل ـ ولو بسيطاً ـ تجاه الظلم المفروض علينا، إننا كشباب نحب الحياة الحرة، علينا أن نصنع الحياة التي نرضاها بجهودنا وأن لا نقبل أي شيء غير ذلك.

ـ كم أحسدك، فمنذ أول يوم تعرفت فيه عليك، لم أجدك في حالة التردد. تختار هدفك بسرعة البرق. تؤمن به وتبذل قصارى جهدك لتحقيقه وتنجح دائماً. أما أنا ومنذ أن وعيتُ نفسي لا أملك القدرة على الاختيار فكل شيء في الخارج يؤثر عليّ، العائلة كبلت روحي وجسدي ومع ذلك تطلب مني تحقيق آمانيها في النجاح الدراسي وتُجبرني على اداء الفرائض الدينية. الجامع والقرآن يهزاني من الصميم فأبقى دائم التفكير بيوم القيامة ومصير الكفرة الذين أرجو أن لا أكون منهم. العلم الذي ندرسه يبعث فيّ الشك بالدين فتزداد مأساتي. الغرباء بتصرفاتهم العرقية يدفعوني إلى التفكير بحالة الشعب وحتى في البدء بالنضال لأجله.

حالة التنظيمات تخلق لدي حالة من اليأس والقنوط، وها أنا بين طرق عدة، أرغب في معظمها لكني في الواقع أبقى عديم القرار، وأنتظر قدوم أحدهم لكي يمسك بيدي، أسير معه عدة أمتار فيأتي الآخر ويأخذ بيدي ويعيدني إلى مفترق الطرق الذي كنت فيه أصلاً، وها أنا واقف فيه أنتظر ما قدره لي الزمان.

ـ عزيزي دلخواز، لقد مضى على صداقتنا أكثر من عشرة سنوات وهي مدة كافية لكي نعرف بعضنا البعض، أنت الآن توضح موقفك، لكن الشيء الوحيد الذي ينقصك هو إتخاذ موقف محدد من التناقضات العديدة التي تؤثر عليك، فأنت الآن لا شيء مع وجود روابطك الهشة مع أشياء كثيرة، وعليك الإختيار لتصبح صاحب هوية.

ـ أتفق معك، غير أن الامر ليس بالبساطة التي تتصورها، فأنت وطوال حياتك كنت تعتمد على نفسك في كل شيء تقريباً، أما أنا بعكسك تماماً كان كل شيء جاهزاً لي حتى قبل

أن أطلبـه، أي انـا مُـدار مـن قِبـل الاخـرين ومُـشكل بحـسب رغباتهم، أنا مملكة للخوف من البقاء لوحدي من دون معين، اريد ان أحيا في وئام وسلام مع جميع الخلق في دنيا هانئة.

ـ رغبـات نبيلـة لكـن كيـف الـسبيل إلـى تحقيقهـا فـي عـالم يـتحكم بـه أصـحاب المنـافع المغـرورين بمـا بـين يـديهم مـن سلطات يستغلون بها جهود البشر. إن الرغبة لوحدها مع النية الحسنة غير كافية بل يلزمها القوة. النية الحسنة لوحدها تفتح أبواب جهنم.

ـ سوف احاول ولن أعدُك بغير ذلك.

- 6 -

خلال سنوات اللاستقرار حيث الأرض تحت أقدامهم كتلة جليدية كبيرة عائمة فوق مياه المحيط، تذيبها الشمس من جهة وتحملها الأمواج إلى أماكن غير محددة.

كأحد الاعمال الروتينية ضمن المدرسة، كانت المسيرات الإحتفاليـة بأعيـاد الحكومـة الرسـمية شـيئاً مكروهـاً، لكونهـا إجباريـة وشـكلية. فـآلاف الطلبـة يـسيرون سـاعات طويلـة، لا ينبـسون بكلمــة، إلا عنــدما يجبــرهم المعلمــون علــى إلقــاء الشعارات أمام كاميرات التصوير.

كانت مشاركة الطالبات في هذه المسيرات سبباً في إضفاء الجاذبيـة عليهـا، لكـن هذه المشاركة كانـت تتسبب فـي ظهـور الـصراعات بـين مجموعـات الـشباب، فوجـود الفتيـات يحـول الـشباب إلـى كبـاش وثيـران جامحـة وجـاهزة لـسحق كـل مـن يقترب منها.

في المسيرة التالية لتعرف لقمان على زينب وتعلق قلبه بها، كان الأصدقاء يسيرون قريبين من بعضهم البعض، بشكل نظامي وهادئ، لكن أبسط الاسباب كان كفيلاً بنشوب حرب كلامية بين الطرفين المتنازعين، هذه الحرب كانت تشكل التمهيد للحرب الفعلية بعد نهاية المسيرة - كانت الاحماء السابق لدخول الحلبة - قبل الوصول إلى منصة الاستقبال كان الجميع قد وصل إلى قناعة تامة بأن قتال اليوم سيكون دموياً، والذي زاد الطين بلة هو تحرش بعض شباب الغرباء بفتيات من معارف لقمان، إحداهن كانت زينب التي استنجدت بأخيها ما أن رأته من بعيد. هذا الامر كان بمثابة الصاعق الذي فجر القنبلة فقد ظهرت السكاكين والعصي والسلاسل وحُميت المعركة التي استمرت إلى ان تدخلت قوات حفظ الأمن التي ضربت الجميع بلا تفريق، وكان ما نالوه من الشرطة أكثر بكثير مما نالوه ضمن القتال.

ضمن القتال كان لقمان الجسور من دون منازع، فبنيته الجسدية القوية، ورغبته الدائمة ليكون القدوة لرفاقه، وحقده الدفين على الغرباء، إلى جانب وجود زينب، كل هذه العوامل مجتمعة، حولته إلى نمر ينقض على المتحرشين، يجرحهم، يوقعهم أرضاً. فينفضون عنه مبتعدين، حتى أمام الشرطة لم ينهزم، بل انتظر إنسحاب جميع رفاقه، وكان آخرهم، بعد أن نال من الجروح والرضوض أكثر من جميع رفاقه. لكنه لم يكن يشعر بالوجع أو بالألم، فقد كان منتشياً لدفاعه عن زينب.

في بيت كريم حيث اخذوا قسطاً من الراحة بعد المسيرة والمشاجرة. تناولوا الطعام ومن ثم بدأوا بحوار حول ما جرى، وكان كريم هو السابق في المناقشة: كم أكره هذه المعارك الحيوانية، كم تمنيت ولازلت أن أعيش بعيداً عن

هؤلاء، ولكن ومع الأسف آراهم في مواجهتي أينما حللت بوجهي، إنهم كوابيس تعكر صفو حياتي وخلوتي.

أكد دلخواز مقولة كريم بأن قال: أنا أيضاً غير قادر على تحملهم، لأنهم يتصرفون وكأن الله خلقهم لكي يتحكموا بنا. مع أنني أتعامل مع بعضهم، لكني لا أرتاح لهم أبداً، وإحساسي بأنهم غرباء لا يتركني أبداً، لا أستطيع الثقة بأي منهم، حتى أفضلهم خلقاً احتاط جداً في حواري معه، ومع ذلك أنا أكره الشجار.

انزعج لقمان وقال: لا ينفع مع هؤلاء سوى لغة العنف والقوة، هؤلاء ينظرون إلى أنفسهم وكأنهم سادة على الناس، ويستحلون تعذيب الضعفاء، لكن إذا ما رأوا القوة واليد الصلبة في مواجهتهم عنها يتحولون إلى عبيد، إنهم لا يختلفون عنا كثيراً، ومعظمهم من مهضومي الحقوق، ومع ذلك فهم صم وعمي وبكم أمام الحكومة، وحكوماتهم العديدة تقف مكتوفة اليد أمام حفنة من الصهاينة ممن إحتلوا أرضهم جبراً. علينا أن نكون أقوياء ومتحدين، كما كنا اليوم. ألم ترو كيف إنهزموا الواحد بعد الآخر.

بالمناسبة هل شاهدتم ما فعله خالد، لقد وقف منادياً بأن نكف عن القتال، فاقتربت منه راغباً من ضربه، إلا أن أحد المتحرشين سبقني وادمى انفه، فصاح باكياً وانهزم كالفئران لا يلوي على شيء.

كريم: إنه بطل الكلام وطول اللسان فقط، لكل حادث حديثه كما يقال، فمع المتعدي لا تنفع الا المقاومة، ومع المسالم يحلو الاخاء، أما خالد وجماعته فموقفهم إستسلامي، وما إسم السلام الذي يختفون وراءه إلا قناع. والدي أيضا منهم لكن إرتباطه بهم لا يتجاوز انتظار دوره في الحصول

على المنحة الدراسية للسفر إلى البلاد الحمراء المتجمدة. لقد عبرت له عن عدم قبولي للمنحة والهجرة، لكنه يصر ويقول بان من حقه ونتيجة لخدمات كثيرة قدمها للحزب. أمام إصرار الوالد لم استمر في الرفض، لكني بداخلي مُصرّ على التفوق في الدراسة لكي لا أكون بحاجة إلى المنحة، سأتمم دراستي هنا ولن أرحل إلى الخارج سأبقى مع رسوماتي وألحان الحزن والأمل.

-7-

لقاء واحد كان كفيلاً بتغيير لقمان.. فقد سُئم من لعب دور المحب المزيف، أو فقدت مغامراته جاذبيتها، وبدأ يبحث عن إنسانة يرتاح إليها يعشقها. يجدها كالملائكة أو كالنجوم بعيدة المنال. معظم الفتيات اللواتي أعجب بهنّ استطاع أن ينال منهنّ مراده ثم تركهنّ، أما اللاتي رفضنّ مسايرته فقد حقد عليهنّ وتركهنّ. لكن ها هي اخت صديقه قد احتلت كامل قلبه وسيطرتْ على عقله وخياله من حيث لا يدري، فهي مختلفة عن جميع الفتيات اللاتي تعامل معهنّ. جمالها كان باهراً قدها رشيق متناسق ووجهها يفوح بالبشرى والمرح، ولم يفقد براءة الطفولة. شقراء جميلة يغطي رأسها شعر ناعم مائل إلى الصفرة يزيد جمالها بهاء ورونقاً، عيناها الزرقاوين يشعان مثل نجمتين في قبة السماء. تنيران الدنيا. تبعثان الحياة في الأرواح الخامدة. يداها الناعمة والناصعة ما أن لمست يده حتى احس بحرارة تسري في جسده بالكامل. كل هذا وقف أمامه شاركة في الجلوس والأكل والمناقشة، كانت المرة الاولى التي ينظر فيها إلى فتاة بعيون مختلفة. يشعر بأنها قريبة منه ويبحث عنها منذ أمد طويل، مع ذلك لم ينظر إليها

مباشرة، لم يُركز ناظريه على عينيها ولا على صدرها كما كان يفعل دائما، لانه لا يريد إزعاجها بأي شكل من الأشكال. كان يكتفي بنظرات يسرقها بسرعة البرق. لكنها كانت كافية لالتقاط الصورة التي نقشت في دماغه، هذه الصورة التي ستظل النابضة بالحياة تمنحه القوة والحيوية.

بعد أن إعترف لدلخواز بحبه لاخت كريم، طلب منه المساعدة في عقد لقاء معها لأنه يخشى أن يساء الظن به لو كان لوحده، وهذا ما لا يريده البتة. وافق دلخواز لأنه واثق من وعد لقمان بعدم إبداء أي تصرف مسيء لزينب أو لأخيها. إنتظرا معاً بالقرب من المدرسة التي تدرس فيها زينب، وبعد إنتهاء الدوام، كانت بصحبة إحدى زميلاتها تقتربان من موقف الباص حيث ينتظر الصديقان، ما ان وصلت إلى الموقف حتى إنتبهت لوجود صديق أخاها. ارتبكت للحظة، ثم بادرت إلى السلام والسؤال عن حالهما، مما مهد الطريق امام لقمان وسهل مهمته، رغم كونه صاحب تجربة غنية في معاملة الفتيات لكنه امامها يتحول إلى إنسان اخر. يصبح حساساً يحسب حساب كل حركة من حركاته وكل كلمة من كلماته، حتى تواجده هناك في ذلك الوقت قد يخلق لديها سوء الظن لذا بادرها برد السلام وعبر لها عن سروره بالصدفة التي أدت إلى تقاطع طريقهما، ثم سألها عن الدروس. بإختصار حاول بشتى الطرق ان يؤكد لها بأن وجودهم في نفس المكان مجرد صدفة. زينب من جانبها ردت على جميع تساؤلاته ولم تشك في تصرفهما، وتحس بأنهما قريبان منها، خاصة لقمان، فهو موضع ثقة أخيه وهو الذي ساعده في المدرسة بدون معرفة سابقة، وأيضا لم تنس ما أبداه من شهامة في يوم المسيرة عندما استنجدت هي بهم. وأكثر من

هذا وذاك فقد ارتاح قلبها لـه بعد الزيـارات العدة التـي قـام بهـا إلى منزلهم.

قبـل مجـيء البـاص ـ الـذي تـأخر ـ تطـرق لقمـان إلـى مواضـيع عديـدة، تحـدث فيهـا عـن نفـسه ودراسـته وعـن صراعاته ومشاجراته ضمن المدرسة وخارجها، وكذلك عن مشاريعه المستقبلية. ولم ينسَ الحديث عن إعجابه بكريم وفنه. ارتاحـت زينـب لحديثـه الـسلس وحيويتـه وتفاؤلـه الـشديد بالمستقبل وقد اكتفت بالاستماع اليه حتى مجيء الباص حيث ركبوا معاً.

الفتـاة المرافقـة لزينـب ظهـر مـن تـصرفها بأنهـا مـن عائلـة محافظة، فما أن بدأ الحديث بين لقمان وزينب حتى إبتعدت عنهما مسافة خطوتان ولم تنظر إلى الجهة التي يقفان فيها بل كانت دائم النظر إلى الطريق الذي سيجيء منه الباص. اما دلخواز فقد وقف بجانب صديقه يستمع إلى حوارهما، من دون أن يحاول المشاركة، لكنه كان يحسد صديقه على ما يملك من قدرات ويتحسر لما هو فيه من عجز.

مـع الوصـول إلـى الموقـف الـذي سـتنزل فيـه زينـب وصـديقتها، دعـتهم لتنـاول الغـذاء، لكنهمـا اعتـذرا ووعـداها بالزيارة في موعد قريب.

- 8 -

تطورت صلة سيامند بلقمان بسرعة مذهلة، فلقمان كان كومـة مـن البـارود جـاهزة للاشـتعال، ولـم يكـن سـيامند إلا الـشرارة التـي أشـلعته ليتحـول إلـى نـار حاميـة تلهـب كـل مـا تـصادفه. لقد تـرك معظـم عـادات الـسابقة وتفـرغ لعمـل واحـد

وهو الوطن. يمضي يومه في مناقشة الطلبة الذي يستمعون إليه بأذان صاغية ولا يعارضون إلا نادراً، فهم يعرفون طبعه الحاد وقبضته المؤلمة، إنه يسمي كل الممتنعين عن قبول فكرته بالخونة والانتهازيين. وخالد ـ الذي كان قد تلقى التوبيخ من مسؤوليه بسبب احضاره لسيامند المخرب إلى الإجتماع ـ المكروه من قبله اصلا تحول إلى عدوه اللدود يشهر به وبتنظيمه علانية بين الجماعات. حركته المكوكية تستمر في المدرسة، وبعد الإنتهاء من الدوام تبدأ زياراته إلى بيوت الطلبة. كل هذا جذب أنظار العائلة وخاصة والدته التي قامت بشرح حالته للاب الذي بدوره انتظر قدومه في المساء وانفرد به ليطلع على ما يشغله، ولنصحه بما لديه من تجارب.

ـ ولدي لقمان أنت تعرف جيداً بأنني لا اريد التدخل في امور حياتكم، بل تركت لكم المجال حتى تتعرفوا على الحياة بأنفسكم، وحتى اليوم لم أندم على ذلك وبالرغم من أن سجن اخاك قد قصم ظهري وحولني إلى عجوز قبل العجز، لم ألجأ إلى تغيير معاملتي لكم. لكنني لا أرغب أن أصدم بك كما صدمت بأخيك وبحسب ما روته لي الوالدة فان تحركاتك خلال الشهر الأخير زادت على المعتاد كثيراً، وأهملت الدراسة تماماً، فصارحني القول لكي أكون عوناً لك.

ـ أعرف يا والدي بأنك منحتنا ثقة يحسدنا عليها أقراننا، وأيضا أنت الذي ربيتنا على حب الوطن والارتباط به، وما القبض على أخي وهو في سن الشباب إلا ناتج من هذا السبب، وأنا إبنك وتربيت على أقوالك وكنت منذ صغري أتخيل اليوم الذي سأكبر واصبح قوياً قادراً على خدمة الوطن. وها هو اليوم قد أتى. إنني الان اساهم في النضال إلى جانب الرفاق ضمن المدينة وأنوي الإستمرار...

ـ من الذي عرفك عليهم، كيف وثقت بصدقهم، أليسوا من عملاء الحكومة الذين يجرون أرجل الشباب من أمثالك إلى ان يقعوا في الشرك ويضيع مستقبلهم..؟

ـ هؤلاء ليسوا كما تظن، وهم مختلفون جداً، لكني وإلى اليوم لم أفعل أي شيء قد يضر بي. أكتفي بالعمل بين الطلبة، احاورهم وأدعوهم إلى خدمة الوطن بما يملكون من طاقات وإمكانيات.

ـ ألست صغيراً على الدخول في عالم السياسة، ألا تنتظر حتى تنتهي الدراسة، وبعدها يكون لكل حادث حديثه. لم ولن أمنعك من خدمة الوطن، لكني أعتقد بأنك لازلت صغيراً على حمل أعباء القضية التي يعجز الرجال الكبار عن حملها، إنه أثقل مما تتصوره، لقد استشهد في هذا الطريق آلاف الشرفاء ولم يبقَ من اثارهم سوى شرف المقاومة، لذا أراك متسرعاً قليل التفكير والحيطة، تسيرك عاطفتك الجياشة وحبك للمغامرات، وهذا هو مكمن الخطر. العاطفة لوحدها تؤدي بصاحبها إلى المهالك، لكن التفكير الراجح والتحضر الجيد والاستناد إلى التجارب السابقة هو الطريق الاصوب، لذا عليك بالتردي والصبر، ومعرفة هؤلاء الثوار جيدا. فما سمعته عنهم لا يريحني أبداً، فما رأيك لانْ يحضروا إلى بيتنا لكي نتحاور، أم أنهم لا يجرؤون إلا على محاورة الصغار من أمثالك.

ـ ليسوا كما تعتقد، وسوف احضرهم في المرة القادمة لتراهم وتتعرف عليهم بنفسك.

- 9 -

للمرة الثانية اصطحب دلخواز، وانتظرا مجيء زينب في نفس المكان السابق، وما ان لاحت برفقة إحدى زميلاتها، حتى وخز لقمان فخذ دلخواز مازحا وقال: انظر إلى تلك القادمة مع زينب، يا لها من فاتنة، إنها تستحق ان تستولي على قلبك، وأنا سأطلب منهما ان نسير معا سيراً على الاقدام، فعليك أن تتقرب منها عسى أن تنال إعجابها.

اقترب الفتاتان، وما أن رأت زينب الصديقان حتى خفق قلبها بشدة، وبادرت بالسلام عليهما بسرور بالغ. فهي قد أحست بتقرب لقمان الخاص منها، وخاصة بعد أن رات ما أبداه من جسارة للدفاع عنها، ولم يكن ذلك إلا محاولة لينال القبول لديها.

بعد السلام والسؤال عن الصحة، تشجع لقمان بعد مشاهدته للسرور في ملامح زينب، فاقترح عليها أن يسيرا معاً إلى البيت سيراً على الاقدام، لم تعترض زينب لكن زميلتها اعتذرت وعبرت عن رغبتها في إنتظار الباص.

سارت زينب مع الصديقان، يتحدثون عن الدراسة والامتحانات بفرح وسرور، بعد أن قطعوا نصف المسافة. عبر دلخواز عن رغبته في شراء شيء ما من أحد المحلات، وطلب منهما السير على مهل لانه سيلحق بهما بسرعة، أدرك الاثنان بأن مسألة الدكان ليس الا حجة لكي يعيطهما الفرصة للحديث على إنفراد. سارا على أقل من مهل، وبدأ لقمان قائلا: زينب هذه هي المرة الثانية التي انتظر فيها قدومك، فأرجوا أن لا تفهمي موقفي بشكل خاطئ، فأنا لا أنوي على الحاق الضرر بك ولا تشويه سمعتك، فأنت اخت لكريم أولاً والفتاة الاولى التي عشقتها قلبي، منذ أول يوم زرت فيه منزلكم،

انطبعت فيه صورتك في مخيلتي وباتت لا تفارقني أبداً، لا في الليل ولا في النهار، لا تظني بي الظنون، فانا لا اريد منك أي شيء، فقط أردت أن أعبر لكِ عن مشاعري وصدقي في حبكِ...

ـ بخجل ظاهر ـ إنني احترمك يا لقمان ويكفيني لذلك المديح الذي يبديه أخي عنك، اما موضوع الحب فلا استطيع الكذب عليك بالقول: بأنني احبك. أعتقد بأننا يجب ان نكتفي بالصداقة الآن. ولا أنكر بانني شعرت من تصرفاتك ونظراتك ما يظهر مشاعرك نحوي، وقد فاتحت اختي ليلى بذلك وهي بدورها طلبت مني أن اكون صادقة مع عواطفي وأن لا أتسرع بربط حياتي بأي إنسان قبل ان اصل إلى مرحلة النضوج، والوقت لا يزال طويلاً امامنا فلا تسرع.

ـ اردت فقط ان اصارحك بموقفي، ولك مجمل الحرية في اختيار الشخص الذي ستمنحيه قلبك، لكني اعبر عن حبي لك ولن اتوانى عن بذل كامل طاقتي لاسعادك في حال رضيت بي كرفيق لعمرك. وحتى لو لم يحدث ذلك سوف تجدينني أخاً مخلصاً ومستعداً لتقديم كافة الخدمات الممكنة لاخته.

كادت زينب أن تطير من الفرح وظهر ذلك بوضوح على ملامحها، لكن لسانها يرفض الاعتراف.

ـ اشكرك سواء تحولت صداقتنا إلى حب أو لا. لن تجد عندي إلا الوفاء والاخوة.

ما أن اقتربا من المنزل حتى لحق بهما دلخواز الذي قال: ألم أقل لكما بان تسيرا على مهل.

لقمان رد عليه مازحاً: كنا نسير على مهل لكن اظن بانك أنت الذي تأخرت.

ضحك الثلاثة ببراءة. وودعتهم زينب داخلة المنزل.

-10-

بعد أيام من الحوار الذي دار بين لقمان ووالده. عاد لقمان من المدرسة وأخبر والده بأن الرفاق سوف يزورهم الليلة. الوالد من جهته عبر عن إستعداده لإستقبالهم، كما طلب منه أن يعلم والدته لكي تستعد أيضاً.

والد لقمان الذي كان يجلس لوحده امام المدفأة ويحمص رغيف الخبز بوضعه على المدفأة، يفعل ذلك بينما فكره يشرد به إلى الأيام الماضية عندما كان شابا مليئا بالنشاط والحيوية، توجهه الآمال كولده لقمان الآن. كما تذكر أصدقاءه في النضال والعمل السري وكذلك فترة الاختفاء من اعين السلطات، حيث عاش بعيدا عن أهله وزوجته. يمضي كل فترة في بيت أحد الوطنين البعيدين عن الشبهات. كانت أياماً جميلة رغم جوانبها الصعبة، لكن مع سقوط الثورة، سقطت آماله ولم يبقَ منها الا مجرد جمرة في قلبه وفكره، وسوف تتحول إلى نار وهاجة مع أول فرصة أو بريق أمل جديد. فهل يمكن ان يكون أصدقاء إبنه هم هذا الأمل، أم هم مجرد مراهقيين سياسين يتحمسون للنضال لفترة لا يلبثون أن يتركوها إلى امورهم الشخصية...؟ فكر في كل ذلك وترك القرار لما ستراه عينيه وما ستسمعه أذناه.

مع هبوط الظلام. دق الباب، فهرع لقمان مسرعاً ليفتحه، وجد الرفيق سيامند برفقة شاب يراه لأول مرة، أطول من سيامند عريض المنكبين يلتحف بكفيه تحميه من البرد ويرتدي معطفاً عسكرياً وفي قدميه ينتعل حذاء رياضياً، طلب منهما ان يتفضلا إلى الداخل، لكن سيامند اعتذر بذريعة أعمال

تنتظره قائلا: إن الرفيق أحمد سوف يبقى عندكم هذه الليلة. وهو عضو قديم في الحزب وقادر على القيام بالمهمة أفضل مني.

استاذن سيامند للمغادرة، ودخل أحمد مع لقمان إلى البيت، حيث استقبله الوالد بترحاب، مع أنه لم يجده كما توقع، فقد كان ينتظر شخصاً أكبر عمراً، لكنه يرى هذا الشاب اليافع الذي لا يكبر ولده إلا بعدة سنين، كما تظهره ملامحه.

بعد كلمات الترحيب وشرب الشاي، بدأ والد لقمان بالسؤال الإعتيادي: من أين أنت يابني، هل أنت تسكن في المدينة أم القرى...؟

ـ يا والدي، إنني كردي، وجميع مدن وقرى كردستان هي مساكن لي، وقد تركت أهلي ومنزلي وتطوعت لخدمة الوطن.

صُدم الوالد من أول إجابة، لم يجد مثيلاً لها في حياته الطويلة.

ــ إن كنت لا ترغب بالبوح بمكانك، لا يهم، هات ما عندك، فقد حدثني لقمان عنكم، وأيضا سمعت العديد من الاقاويل عن نشاطاتكم غير المحبذة.

ـ ماهي هذه الاقاويل، ما الذي سمعته يا والدي..؟

كلمة يا والدي التي إستخدمها احمد للمرة الثانية أثرت عليه بشكل إيجابي.

ــ يقال بأنكم تستهدفون الشعب في حربكم وترتكبون المجازر بحقه.

ـ صراحتك تشجعني على الإجابة بصراحة مماثلة، هل تصدق ما يقوله العدو عن عدوه، إننا ثوار بدأنا بحرب

التحرير، والعدو مقابل ذلك أعلن حالة الطوارئ وشن حرب مضادة، وهو الذي يستهدف الشعب وخاصة القرى الوطنية، ولا يكتفي بذلك بل جند العديد من ضعاف النفوس الكرد لكي يحاربوا ضدنا تحت اسم حماة القرى "الجحوش" وهو بذلك يطبق سياسة ضرب الحديد بالحديد، وبالرغم من كل ذلك يتهموننا بالارهاب ومعاداة الشعب أي يقتلون القتيل ويمشون بجنازته.

ـ ليكن ما تقوله صحيحاً، لكن كيف تفسر معاداة جميع المنظمات الكردية لكم ولسياستكم..؟ وهل من المعقول ان يكونوا مخطئين جميعاً...؟

ــ إن الخطأ والصواب لا يقاس بالكثرة والقلة، وانت تعرف حق المعرفة بأن الحقيقة تبدأ من أشخاص قلة ثم يقبلها الجميع عندما يشاهدوا صحتها في الواقع، ونحن كحركة فكرية سياسية عسكرية، كان ظهورنا ناجماً عن فشل القوى الموجودة على الساحة الكردية وأنت عايشت نكسة /1975/ عن قرب وتابعت أخبار حلبجة والانفال. نحن نطرح أنفسنا كبديل فكري يسعى إلى بعث الروح الوطنية والديمقراطية إلى جانب تطوير الجانب التنظيمي لدى الجماهير، وبذلك فقط سنتمكن من تحويل القوة الفوضوية إلى قوة عظيمة يستحيل القضاء عليها، وسلاحنا الاساسي في ذلك هو خلق المناضلين المرتبطين بقضية الشعب الجاهزين لبذل كامل طاقاتهم، مع اننا نعارض السياسات السابقة ونعتبرها ناقصة وخاطئة، لكننا لا نرفض مبدأ الوحدة الوطنية على اسس صحيحة، وهذا ما يبتعد عنه أولئك الذين تتحدث عنهم، انهم يكررون أقوال ودعايات العدو الفاشي.

ـ لقد عايشت الثورة ورايت سقوطها وأعرف أسباب الهزيمة، وهي ليست محددة بالطرف الكردي فحسب. فبالرغم من السلبيات العديدة من الناحية الفكرية والسياسية والتنظيمية، إلا أن الوضع الدولي كان له الدور الأكبر في الهزيمة، وعليكم إدراك هذا الجانب جيداً، فمهما تطورت الثورة وعظم شأنها لن تتمكن لوحدها من النجاح من دون وجود دعم دولي حتى ولو كان محدوداً.

ـ هذا الامر محسوم من جانبنا، ولنا جهود حثيثة لعقد العلاقات مع دول المنطقة والقوى العالمية لكن رأينا يؤكد على ان إرادة الإنسان وتوحيد جهود الشعب ضمن اطار تنظيمي عصري هو السلاح الامثل للوصول إلى الحل في القضية الكردية، والكفاح المسلح المعتمد على جهود الشعب وإمكاناته هو أحد وسائلنا الاساسية، لان العدو يرفض حتى الاعتراف بوجودنا كبشر.

ـ كلامك منطقي، وعلمك أكبر من عمرك، لكن العبرة بالنتيجة، أنا رجل قد شيبت المصائب شعري، واحس بالخوف مع كل بداية جديدة، فالهزائم التي عايشتها تحولت إلى كابوس ولعنة، ولا رغبة لي في أن أكون شاهداً على مأساة جديدة، وعليك أن لا تسمح للقمان بترك دراسته فالإنسان المتعلم هو ضمانة النجاح.

ـ ومن قال لك بأنني أتحدث إلى لقمان، إنه شاب واعي ونشيط ولا يحتاج إلى التوجيه ولا أعتقد بانه سيترك الدراسة، مع ان هذا الموضوع يخصه ويخصكم. ان قدومي اليوم هدفه طلب المساعدة منك ومن العائلة.

ـ لقد فاتني القطار يا ولدي، ولم أعد قادرا على فعل أي شيء.

ـ لا تقل ذلك، فيكم البركة، تجاربك النضالية وسمعتك الحسنة كفيلة بجمع شمل مئات الرجال من المعارف والجيران. اننا لا نبحث عن نخبة من المثقفين فقط، بل هدفنا هو الوصول إلى جميع فئات الشعب وخاصة الكادحين والفقراء، أصحاب المنفعة الحقيقية في التحرير.

ـ لا أستطيع أن أعدك بشيء. فأترك الامر للزمن، فلا زالت معرفتنا في البداية، لكنك تستطيع البقاء عندنا كلما شئت، واعتبر البيت بيتك.

بقي احمد في غرفة لقمان تلك الليلة، حيث استمر حوارهما إلى وقت متأخر، كانت المرة الاولى التي يجالس فيها ثورياً من شمال الوطن. اما والده فقد تحدث مطولاً لوالدته قبل أن يناما، تحدث لها عن الشاب الذي وجده مميزاً. لباسه المتواضع، معرفته الواسعة جلسته المحترمة، شخصيته القوية، اسلوبه الجذاب والشيق...الخ. ان كان جميع رفاقه مثله فيستحيل أن يفشلوا، لقد أحببته وأرجو أن لا أكون مخطئاً في ظني.

الفصل الرابع

- 1 -

كالذي يبحث عن شيء أضاعه، ثم يجده فجأة، فيندمج به بروحه وجسده ويغرق فيه. فتختزل حياته في هذا الشيء لوحده، وتتحول الدنيا بمجملها إلى شيء تافه مادام قد لقي ما يرغب ويحلم به. هكذا كان لقمان الذي كان موضوع الوطن شغله الشاغل. يبحث عن وسيلة وطريقة توصله إلى هدفه، فهو يجد نفسه كاليتامى والمتسولين، لكن ما أن وجد الرفاق حتى أصبح واحداً منهم وهو لا يعرف عنهم الا اسمهم " ثوار كردستان". ومنذ ذلك اليوم تحول إلى سيل عارم لا يعترف بالظروف والعقبات. يمضي وقته في المطالعة وقراءة كتب الحزب والتجوال بين أصحابه، يحثهم على البدء بالنضال من أجل الحرية والوطن، يتحدث طويلاً برغم معلوماته القليلة، وهو يكرر ما يسمعه من الرفاق باسلوب شيق على أصحابه الذين يتفاوت موقفهم بين القبول والرفض، بين مجرد الاستماع احتراماً لشخصه والسخرية بما يتفوه به بعد أن يبتعد عنهم، بالرغم من أن موضوع الوطن كان قد تحول إلى موضوع الساعة ـ تصاعد الانتفاضة في معظم مدن كردستان الشمالية وإنتفاضة الشعب في الجنوب إلى جانب

المعلومات الواردة عن الشباب الذين يستشهدون في الجبال والسجون والمظاهرات - الا ان البعض كان عديم الثقة ومستسلماً للواقع الموجود راضياً به. هؤلاء ولكي يبرروا مواقفهم البشعة والمتخاذلة، كانوا ينعتون امثال لقمان بالمتهورين ومراهقي السياسة، وفيما بينهم يتحدثون عن المس العقلي الذي أصاب لقمان ويؤكدون بأن الجنون هو الذي جعله يهمل دراسته والعمل لمساعدة العائلة وإهدار معظم وقته في الحديث عن وطن محتل مجزء بين أربع دول أصبح مجرد خيال لا يمكن الوصول إليه إلا في أحلام لقمان وأمثاله. هذه المقولات لم تكن لتؤثر على حماسه المنقطع النظير بل كان يزيده إندفاعاً واصراراً على الإستمرار.

خلال فترة ليست بالطويلة اكتسب مؤيدين كثر. البعض منهم متحمس ويرغب في العمل والنضال بشكل فعلي، والبعض يكتفي بالتأييد والتعاطف، ودلخواز وكريم من بين هؤلاء المؤيدين. حيث تدور بين الأصدقاء الثلاثة نقاشات مطولة تشتد في الكثير من الأحيان حول مواضيع شتى تتعلق بمختلف مجالات الحياة، لكن الموضوع الأكثر تداولاً كان قضية الوطن وتحريره.

الخلاف بين كريم ولقمان كان حول الوسيلة. كريم وبسبب تربية العائلة أولا ولكونه فناناً من جهة ثانية، كان أقرب إلى المرونة ويفضل الوسائل السلمية، يؤكد بأن حل المشكلة تتطلب توعية الشعب وتقويته بالعلم، فالشعب الواعي والمؤمن بقضيته لا توجد قوة في العالم قادرة على استعباده. والفئة الواجب عليها فعل ذلك هم الشباب المثقفين أصحاب الضمير والبعيدين عن المصالح الأنانية. لكن لقمان يعارضه؛ تقول هذا وأنت أدرى مني بالواقع الذي فرض على الشعب، تتحدث عن الوعي ونحن معرضين لسياسة الانكار، قل لي هل أنت

قادر على التحدث عن القضايا المصيرية دون خوف أو وجل. أخي حسن ومع أنه شاب لم يتمم الدراسة الثانوية سُجن خمس سنوات فقط لأنهم أمسكوا معه نشرة لأحد التنظيمات المأذونة من قبل الدولة. هذا ما يمارس في هذا الجزء، لكن في الأجزاء الاخرى الوضع أسوء بكثير، حيث تحكمهم حكومات فاشية تحرق أبسط أشكال المعارضة، فكيف لنا والحال هذه أن نجد الامكانية للتوعية والتطوير الثقافي. ان القوة والبطش لا يمكن رده الا بالقوة، وها هي دول عديدة وصلت إلى حريتها بالكفاح المسلح.

ـ لم يستخدم أحد من تلك الشعوب السلاح مثلنا، نحن نحارب منذ مئة عام، وكل عصيان كان يليه اخر.استشهد مئات الآلاف حتى إرتوت أرض كردستان بالدماء. ومع ذلك لم نصل إلى الهدف المنشود، وذلك بسبب التخلف والبعد عن المقاييس العصرية.

ـ أوافقك، لكن الآن الوضع مختلف وطريقة الحرب المتبعة مختلفة تماماً عما كانت عليه في السابق. هذه الحرب هي التي تعطي القوة والجسارة وتزيد الإيمان لدى الشعب وتجعله يلتف حول الثورة والتنظيم الذي سيتكفل بمواضيع التوعية.

دلخواز: إننا بين نيران أربع، تحيط بنا من جميع الجهات، وأينما حللنا لا ينالنا الا الموت والويلات. تاريخنا البعيد والقريب يظهر هذا، فمن مَنْ سنهرب وسنحارب مَنْ، هل تصدق بأنهم سيسمحون لنا بالوصول إلى أهدافنا..؟ بالتأكيد لا..! فما ان نتقوى قليلا حتى يتحدوا وينقضوا علينا كقطيع من الذئاب لتكون نهايتنا كنكسة 1975 وأنفال 1988 وسقوط مهاباد وغيرها.

ـ هذا منطق التخاذل والمتخاذلين، فالعدو ولأنه يستغل أرضنا الخيرة لن يتوانى عن فعل أي شيء. فهل نقف مكتوفي الأيدي، هذا الشعب يلزمه من يهديه إلى طريق الصواب، وان لم يقم الشباب بدوره، سيستمر الوضع كما هو بل سيسوء مع مرور الوقت. والخلاص الفردي غير ممكن مهما عمل الفرد وحتى لو اعلن استسلامه. ان الخلاص الجماعي هو الحل الوحيد ومن دونه سوف نحيا كما عاش آباءنا وأجدادنا تحت رحمة الحكام والزمان نصارع الفقر والحاجة. لقد وصلت إلى نتيجة واحدة وأعتقد بأنها الأصوب، يجب أن يُضحي البعض في سبيل الجماعة. نعم لكل فرد رغباته وأحلامه يسعى إلى تحقيقها كشخص، لكن عندما تكون جميع الطرق مسدودة، عندها يجب كسر هذه الموانع مهما غلى الثمن، أنا الآن لا افكر في طرق مختلفة أو امور متناقضة، بل اؤمن بكل قواي بضرورة العمل الثوري، وأعلم وان لم يكن علماً كافياً، بالصعوبات التي تعترض طريقي، وكذلك ادرك مصير اللذين باشروا بمثل هذا النضال فإما الشهادة في ساحات الوغى أو السجن، ومع ذلك احس بأن ناراً تتوهج في أعماقي لا ترضى الخمود، بل تزداد حرقة مع مرور كل يوم تدفعني إلى خطو خطوات أكبر.

ـ في العجلة الندامة وفي التآني السلامة. إن معرفتنا لا تزال بسيطة، وأية خطوة نخطوها الآن قد نندم عليها غداً، أحيانا المراقبة وإنتظار شروق الشمس من وراء الافق، يقلل من الام السير في الظلام، ألا تراني كالمتصوفين، أعتكف في غرفتي معظم يومي، أتامل الحياة. ماضيها وحاضرها. أرغب في إستكشاف المستقبل، ومن كل ذلك اصل إلى لوحة قد تستغرق في أسابيع عدة لكن مع إنهاء اللوحة احس وكأنني عائد من معركة مصيرية انتصرت فيها، وأمام بوابة المدينة

يستقبلني الشعب مهللاً وفرحاً، بينما أنا استمر في سيري تحت قوس النصر مكللاً بالنار. لكن عندما تخذلني مخيلتي ويهرب مني الوحي ألجأ إلى الطنبور. أعزف لكي تنتشي روحي، ولأجمع قدراتي المبعثرة وأكون قادراً على تحمل الحياة.

لست عدوا للصبر، لكن لكل شيء حدود، وقد تعودت على خدمة نفسي بنفسي وأيضا لم أتوانَ عن خدمة المحيطين بي. فكيف تطلبون مني التحمل والحرب مستعرة في الجبال..؟ ألم تسمعوا بذهاب سيامند لقد حضر قبل عدة أيام مع الرفيق أحمد وودعني الوداع الأخير. قال لي: الوطن والشعب ينتظرون بصبر وشوق، والنصر يتوقف على تكاثف الجهود، ويجب على كل فرد أن يساهم بما يملك من طاقات... إنني أنتظر اليوم الذي سنلتقي فيه فوق ذرى جبال الوطن المحررة.

بعد ذهاب سيامند هرب النوم من عيني كهروب الأرنب أمام الذئب. صعدة سيامند لا تفارق ذهني. هل تتذكرون موقفه المناهض لآراء ذلك المسؤول أثناء الاجتماع، لقد كبر بعيني منذ ذلك اليوم، وها هو يصل إلى الذورة، نعم انه يوحد الكلمة بالفعل لقد إجتاز الحدود لخوض الحرب مستعداً للشهادة في كل لحظة فداءً للمثل الذي افد بها. استطاع الوصول إلى ذلك القرار الحاسم، لكني لازلت افكر، وهذا يعني إن إيماني لا يزال ضعيفاً. أنا مستعد لجميع أشكال النضال في مدينتي، لكن ترك كل شيء والتفرغ للنضال فقط هو موضوع لم أحسمه بعد. ذهاب سيامند أحسني بما اعانيه من أنانية، فأنا اريد العمل بالقرب من عائلتي وأصدقائي ومن أحب...

دلخواز: هل أفهم من حديثك بأنك تنوي الذهاب إلى الجبل..؟ لماذا...؟ ألا يكفيك بأن أهملت دراستك، وتركت العمل الذي تساعد به ذويك. وتدور ليلاً نهاراً بين الشباب ساعياً إلى خدمة الثورة. حتى إرتباطك بنا، احس بأنه قد قل ولم يعد كالسابق، ها أنت تتحدث عن التضحية والفداء، فهل هذا الامر توقف عليك فقط..؟ ألا يوجد شباب ليقاتلوا في الشمال حتى تذهب أنت وسيامند...؟ إنني الاقي صعوبة في فهم تصرفاتك، أراك مختلفا عما عهدتك، فأين مزاحك وسخرياتك، أين مغامراتك ومشاجراتك..؟ لقد تركت كل شيء واكتفيت بالسياسة والثورة. هل تعرف ما يقال عنك من قبل بعض الطلبة..؟ إنهم يقولون بأنك فقدت عقلك وخدعت من قبل القادمين من الشمال؟ أنا لا اؤيد قولهم لكن لكل شيء حدود ـ كما قلت ـ وأنت كنت موجهي على الدوام، أما الآن فإني أراك متسرعاً، مندفعا أكثر من اللازم واشارك كريم في دعوته إياك إلى الصبر وإنتظار وضوح بعض المسائل.

لقمان كان يدرك دوافع دلخواز إلى قول هذه الاشياء، فهو لا يتحمل إبتعاده لعدة أيام، فكيف به إذا ما تركه إلى الأبد..؟

ــ الإنتظار إلى حين ظهور النتيجة، ألا يعني الجبن والانتهازية..؟ وإذا ما حدث ذلك لن يتردد أحد في اللحاق بالناجحين، إنني أتحدث عن موضوع يحتاج إلى طليعة مضحية تراهن على حياتها بالكامل في سبيل حرية الشعب وتقدمه، ولي رغبة في أن أكون واحداً من هؤلاء، ورغبتي هذه لا تنبع لكرهي للدراسة أو للحياة معكم، ولا نتيجة يأس أصابني، أنتما اقرب الناس اليّ وتعرفان أدق تفاصيل حياتي. لقد أقدمت على الحياة كما يقدم العاشق على موضوع عشقه، لكن الحياة صدمتني مرات مرات فحكايا الام عن اختفاء والدي عن السلطات وعن مداهماتهم الوقحة لمنزلنا والكلمات

الوسخة والبذيئة التي تنال من شرفنا كشعب، بالاضافة إلى سجن اخي الذي حول حياة العائلة إلى جحيم، عشناه لحظة بلحظة حتى في الحلم اصبح السجن أحد مواضيعنا الرئيسية. وكلما كبرت كبرت معي الصدمات، في المدرسة على أنكار أصلي، برغم معرفتي التامة بأن من ينكر أصله لا أصل له. عليّ ان أتحدث بلغة هي ليست لغتي أتعلم بها. حتى ربي لا يفهم الا لغة الحكام وعليّ الصلاة بلغتهم. لكي تفتح لي أبواب العمل والنجاح عليّ أن اكون ذيلاً لأحد النعال السخية وهذا ما لم ولن تقبله روحي. لقد رضيت بالضرب من المعلمين ولم أنكر أصلي الكردي ولم أتوانَ عن سؤال المعلم عن كردستان، عندها تعرف يا دلخواز كيف احمرت بشرته وضاق صدره من الخوف، كان كمن شاهد شبحاً، لم يعرف كيف يتصرف، وخرج لينادي المدير الذي طردني من المدرسة ومنعني من العودة إلا بعد أن أحضر وليّ امري. أحيانا كثيرة أشعر بأن هذه الحياة ليست لي، بل توجد حياة اخرى في مكان آخر تنتظرني. لذا كنت دائم البحث، وها قد ارتاح قلبي لحياة هؤلاء الثوار وصحبتهم، وعرفت بأنهم خير الناس وأنا متأكد بأنني لن أندم مادمت معهم أتعقب خطاهم.

ـ انا أيضا اشاركك في حبك لهم وقد أعجبت بهم ووثقت باخلاصهم في النضال وبعدهم عن المنافع الأنانية والضيقة، لكن هذا لا يعني بأن تترك الدراسة، فحصولك على الشهادة سيؤمن لك مجالاً أوسع حتى ولو اخترت الحياة الثورية، فلا تكن كمن تقوده العواطف، بالعقل السليم والناضج تهون الامور وتزال العوائق.

ـ دلخواز بلغة عاطفية متأثرة " أنت تدعي بأنك ستضحي من أجل الشعب"، لكن موقفك يحتوي على الانانية فانت ستترك أصدقائك وأهلك ومحبيك. هؤلاء جميعاً مرتبطين بك

ويرغبون بأن تكون قريباً منهم، أما أنت فتصر على فعل الهاجس الخطر الذي هجم على فكرك من دون أن تفكر بالأهل الذين ينتظرون نجاحك بفارغ الصبر، وأيضا مشاريعنا المشتركة، رميتها ورائك ونسيتها، كنت سأصبح طبيباً وأنت صيدلانيا، وستكون صيدليتك في نفس العمارة التي تحوي عيادتي.

ـ لست فرحاً لتركي لكم ولا لتركي للعائلة والمشاريع. لازال تفكيري مستمراً وأرجو أن لا أخطا في القرار الذي سأتخذه، إلا أنني الآن أعرف تماماً بأن الشعب يحتاج إلى أطباء من نوع آخر، هو بحاجة إلى من يمنحه الجسارة ومن يتقدمه في مسيرة الحرية. إنه جاهز لكل شيء.

- 2 -

الحافلة كانت تنقله إلى إحدى القرى الكثيرة التي يمارس فيها النضال التنظيمي. كان ساعياً عما يحيط به من فوضى، يجلس في مقعده لوحده مفكراً بالمعضلة التي وجد نفسه فيها، فحياته بالرغم من جوانبها المأساوية، كانت تستمر بانسيابية مليئة بالحيوية والنشاط، لكنه الآن مضطر على الاختيار بين أمرين، مجبر على التضحية بأحدهما، فحبه لزينب الذي أكسب وجوده معانٍ جديدة وجميلة تحول مع مرور الأيام إلى قيد يربط رجليه، يمنعه من التقدم من دون أن تكون إحدى عينيه تنظر إلى الوراء، لقد اختار الثورة أو الثورة هي التي اختارته. لم يتردد لحظة في الاندماج مع الرفاق ومساعدتهم بشتى الوسائل وفي هذه النقطة بالذات كانت تبدأ المعاناة، فزينب كأخيها، ترفض الارتباط المطلق بأي شيء مع أنها لا

ترفض التعامل مع الجميع، تفكر أكثر بكثير من العمل، لقمان المغامر يريد الإمساك بيدها ليطيرا معاً، يبحثان عن الحرية في مخبئها، وهي العابدة للعقل ترفض خطو أية خطوة قبل أن تتأكد من صلابة الأرض تحت قدميها. يفكر لقمان ويرحل إلى عالم الإحتمالات عسى أن يجد حلاً ينجيه من إحتمال التضحية بزينب.

بينما هو في محرقة الصراع الداخلي الرهيبة. فوجئ بإمراة غريبة تنادي عليه بصوت هامس، فاستيقظ من أحلام اليقظة التي لا تتركه أبداً، وهو على أهبة الاستعداد لمواجهة جميع الطوارئ، تمعن في الحافلة فوجدها خالية إلا منه ومن إمراتين وبالاضافة إلى السائق ومعاونه. المرأة التي نادته رجته المساعدة، وهو بدوره ومن دون تفكير مسبق عبر لها عن جاهزيته للمساعدة ـ فهذه إمرأة ـ عندها عبرت له عن مخاوفها من نيات السائق الذي ما برح ينظر إليها وإلى مرافقتها من المرأة، يغمز لهما بعيونه الوقحة، وليس هذا وحسب، فالمعاون أيضا لم يكفَ عن التملق وإبداء عواطف زائفة بالرغبة في الخدمة وتقديم العون لكن بشكل مُريب.

الشهامة والمروءة هي من خصال لقمان والجرأة كذلك، إلا أن الموضوع كان له جوانب اخرى، فهاتان المرأتان تنتميان إلى القومية الحاكمة وهما من المهاجرين الذين قدموا إلى المنطقة واستولوا عنوة على أراضي القرويين بمساعدة الحكومة، لذلك يحقد عليهم ويتمنى رحيلهم اليوم قبل الغد. فما الذي يلزمه بمساعدتهما، أليست هذه فرصة للتشفي منهم... وهم السبب في معاناته وشعبه أليسوا هم السبب في تركه لحبه والإنضمام للحرب....الخ. بهذه الطريقة كان يفكر لقمان المغامر الشقي وزير النساء. لكن كإنغراس إبرة في جسده ظهرت أمامه صورة أحمد، ذلك الثوري المتزمت والذي

انتقده بشدة بسبب آراءه المتعصبة القريبة من الشوفينية، لقد كان موقف الرفيق بخصوص هذا الموضوع واضحاً: يجب التفريق بين الحكام والشعوب. فالثوري صديق لجميع الشعوب، أما الحكام فهم أذيال للمستعمرين وشركاء في مص دماء الفقراء، وهم الذين يوقعون الشعوب بعضها ببعض ليتسنى لهم التحكم بمصائرها. لذا يجب معاداة الحكم المبني على الظلم والفوارق القومية والطبقية.

عاداته ورغباته القديمة كانت تلح عليه بترك المرأتين لمصيرهما، وهو بذلك ينتقم بشكل غير مباشر، لكن هذا الشعور ما لبث أن زال، فضميره الحي وعدم قبوله للإزدواجية، يدفعانه إلى إتخاذ الموقف الذي يليق به كثوري يسعى إلى العدالة والحرية.

بالرغم من الحقد والكره إلا أنه صاحب قلب رقيق حنون غير قادر على رد اليد التي تطلب منه المساعدة، وخاصة إذا كانت هذه اليد يد إمرأة.

نظر بتمعن إلى المرأة التي تقف بجانبه تنتظر ما سيبدر منه بفارغ الصبر. عيناها تظهران الخوف والرجاء، وجدها أصغر بكثير مما تصوره لأول وهلة، بسبب ملابسها، لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، بينما مرافقتها تقارب العشرين وهي أيضا تنظر إليه بنفس النظرات وهي جالسة في كرسيها.

ـ لا تهتمي فالأمر بسيط جداً، ويحتمل أن يكون ما تقولين مجرد سوء فهم، فمعظم سائقي النقل العام تصرفاتهم بعيدة عن الأخلاق وتغلب عليها السوقية، لكن في الحالتين سوف تجديني في خدمتكي.

بحسب الإجرة التي دفعها لقمان مقدماً عليه النزول في قرية سابقة للقرية التي ستنزل فيها المرأتان، لذا قام إلى

السائق وعبر له عن رغبته في النزول في نفس قرية المرأتان. هذا الطلب الإعتيادي جداً رفُض من قبل السائق بغضب شديد لا مبرر له، وأبدى إنزعاجه ورفضه. لقمان بقي محافظاً على هدوءه، لانه ادرك نية السائق السيئة وقد يجد في اسلوبه حجة للعراك، ومع ذلك تمادا في الثرثرة والمعون بدوره لم يتوانَ عن صب البنزين على النار. عندها لم يجد لقمان أي بد من إستخدام لهجة جديدة، اخرج قطعة من النقود. وضعها أمام السائق، ثم قال مهدداً: انت سائق، تعمل بإجرتك، ومجبر على إيصالي إلى المكان الذي اريد. أما إذا كنت ترغب بشيء آخر فقل ذلك بصراحة. بينما كان يتحدث أظهر مؤخرة المسدس الذي يحمله بشكل يراه المعاون ثم عاد للجلوس في مقعده. هذا التصرف كان من الممكن ان يتحول إلى معركة غير معروفة النتائج. تهامس السائق والمعاون مطولاً وهما ينظران من المرأة إلى لقمان الذي تحول إلى قط متأهب لجميع الإحتمالات. استمرت هذه الحالة المتوترة إلى أن توقفت الحافلة في المحطة التي رغب بها لقمان. نزل برفقة المرأتين بينما السائق تحول إلى دب يزمجر ويردد اللعنات والشتائم ثم انطلق بحافلته بسرعة جنونية لا يلوي على شيء.

كرد للجميل قامت المرأتان بإستضافة لقمان في بيتهما، قبل لقمان الضيافة آملاً في كسب صداقة هذه العائلة ورغب بطرح أفكاره عليهم إذا ما وجد الوضع مناسباً.

استقبل بحفاوة ـ الغرباء كرماء مع الضيوف ـ وزادت هذه الحفاوة والتكريم عندما علمت العائلة بما أبداه من شهامة. ما أن جلس حتى أحضروا له الطشت والابريق ليغسل يده ووجهه ومن ثم بدؤوا بتناول الطعام المكون من منتجات الحيوانات. الفتاة التي كانت ترافق زوجة أخيها ضمن الحافلة

كانت تلتهمه بنظرات مليئة بالشهوة ـ الفتيات ضمن المجتمعات المتخلفة وبسبب الكبت تعايشنّ معاناة رهيبة في السيطرة على غرائزهن وعواطفهن الجياشة ـ تروح وتجيء وكأنها في ليلة زفافها، أما المرأة التي حادثته وطلبت منه النجدة فقد جلست معه إلى جانب زوجها وباقي أفراد العائلة لم تتحدث كثيراً لكن ملامحها وتصرفاتها بل كل حركاتها كانت تدل على الشكر، لأنه تطوع لإنقاذ حياتها بالكامل، لان المرأة في الشرق تقاس بشرفها المحصور في حفاظها على عضوها التناسلي غير مدنساً، لكنها أصرت على أن يُعرف نفسه ومكان إقامته لكي يتمكنوا من رد الجميل له. العائلة بأكملها أصرت على هذا الطلب، عندها غامر لقمان بالكشف عن هويته بعد أن تأكد من صدق مشاعرهم تجاه عمله النبيل، لكنه حافظ على الدقة في كلماته خاصة بعد معرفته لزوج المرأة الذي يعمل كمعلم لمدرسة القرية ومسؤول عن الحزب الحاكم في عدة قرى في المنطقة.

ـ أنا كردي. وأعتقد بأن هذا يظهر من حديثي الركيك ـ ومناضل من مناضلي الثورة الكردستانية التي تسمعون أخبارها بشكل يومي. أما عائلتي فتسكن في المدينة لكني لا أتردد عليهم إلا نادراً بل أتجول بين صفوف الشعب لخدمة الثورة.

ـ هذا الإعتراف الصريح وضع زوج المرأة ـ المسؤول الحزبي ـ في مأزق لا يحسد عليه، فهو مكلف بالإخبار عن أعضاء هذه الجماعة أينما وجدوا وتقديم تقارير عن نشاطاتهم بشكل عام ودوري. وها هو أحد أعضائهم النشطين يجلس في بيته وهو عاجز عن فعل أي شيء تجاهه. لكنه ولأول مرة فكر بما كان يقال له منذ ان وعى نفسه في الدنيا، وخطر بباله سؤال لم يتردد في طرحه:

ـ لماذا تتركون أهلكم واحبائكم وتلتحقون بالمجهول في الجبال..؟

ـ سؤال تعرف جوابه أكثر مني، فإلى أية درجة تحيا براحة وهناء ضمن هذه الحياة المتخلفة من جهة والتي تتحول إلى جحيم بسبب النعرات العشائرية والطائفية والقومية. ألا تشاهد الحالة المزرية التي يحياها الشرق، الذي كان عظيما في زمن ما..؟ فهذه حفنة من اليهود تحولت إلى كابوس يتعاظم يوماً بعد يوم لينهي وجودنا بالكامل، هذا عن الوضع العام أما بخصوص الكرد فما بالك بشعب ينكر وجوده وتُمنع عليه الحياة بحسب عاداته وتقاليده وحتى لغته يحظر الحديث بها وتفرض عليه لغة هي غير لغته يتعلم بها ...الخ هذا هو الشعب الفلسطيني المجاهد يستمر في النضال برغم الحقوق الكثيرة الممنوحة له، انه لا يرضى بديلاً عن الاستقلال الكامل بأي شيء آخر، أما نحن الذين نسعى إلى العيش المشترك ضمن حدود معقولة من العدالة والحقوق، فنجد أنفسنا وجهاً لوجه سياسات بعيدة عن الإنسانية تستهدف إنهاء وجودنا كشعب.

كلمات يرددها بطلاقة، مستفيداً من الوضعية التي هو فيها، ولولا ذلك لكان الآن في السجن يصرخ من الألم والعذاب. المسؤول عاجز عن إبداء أي رد فعل ومجبر على التعامل بالمثل تجاه شهامة ضيفه، يفكر بما يقوله، يجد فيه جوانب صحيحة. فهو أيضا غير مرتاح في حياته ولا في عمله وتعامله مع مرؤسيه، وأيضا السكان الكرد من القرى المجاورة ينظرون اليه بعيون الحقد مع أن لسانهم يقول أشياء محترمة. أما بخصوص هذه الجماعة التي يتحدث عنه ضيفه، فمنذ أن وقعت اقدامهم على أرض المنطقة قادمين من الشمال، قلبوا الأوضاع رأساً على عقب. الكرد تحولوا إلى عاصفة

هوجاء تبحث عن شيء تحطمه، طاقاتهم الكامنة ظهرت ويستحيل أن تقف أية قوة في وجههم، ان لم تقصم الخيانة الداخلية ظهرهم مرة اخرى. بينما يفكر بهذا الشكل المتأثر بحديث لقمان، تذكر حادثاً لا يستطيع نسيانه. في ذلك اليوم الصيفي استيقظ باكرا للذهاب إلى الناحية، ضمن الحافلة كان يتطلع إلى الارض المعطاء التي قدمت محصولاً وفيراً، من بين جميع الاراضي نظر بشكل خاص إلى أرض مزروعة بالعدس وهي ملك لأحد أصدقاءه الكرد كانت ارضاً واسعة والعدس ناضج تماماً. فكر في الصعوبة التي سيواجهها صديقه من أجل تأمين العمال للحصاد، لأن الخطورة تزداد مع الأيام، فالحرائق لا ترحم السنابل الجافة.

بعد أن أنهى عمله في الناحية، عاد بعد الظهر ليرى ما لا تصدقه العين أرض صديقه الشاسعة التي لم يكن يعتقد بامكانية حصدها في عشرة أيام، وجدها خالية تماماً وكل العدس مكوم فوق بعضه البعض. من هول المفاجئة سأل أحد الجالسين بالقرب منه، فأجابه بأن هذا عمل "الابوجية" يجمعون المئات من العوائل بكبيرها وصغيرها وينهون اصعب الاعمال في ساعات معدودات، ثم يبدأون بالغناء والرقص ويعودون إلى بيوتهم فرحين مسرورين. هذا الكلام ذكره بأيام العمل الطوعي التي كانوا يقومون بها كحزب. العديد كانوا يتحججون ويمتنعون عن الإنضمام، والمنضمين يتلفون المحصول أكثر بكثير من حصده. بعد هذا التفكير المتعمق توجه اليه مسؤول آخر.

ـ نحن جميعاً امة يجمعها الدين، وحتى لو وجدت الاخطاء علينا ان نبحث عن الحل معاً.

ـ كيف ذلك والجميع ينكرون وجودنا القومي يفرضون علينا هوياتهم وتاريخهم ويعتبروننا مجرد ظلال. نحن لم ولا نرفض الحلول المشتركة التي تراعي مصالح الجميع، لكن الموضوع أكبر من ذلك بكثير. هنالك حقيقة ونحن مجبرين على إثباتها وهذا يستلزم منا القوة وهي تكمن في الجماهير المنظمة ونحن نعمل في ذلك السبيل، ولا توجد لنا أطماع في ثروات ولا أراضي أحد. لنا هدف واحد وهو نيل حقوقنا والعيش على أساس المساواة مع الجميع.

استمر الحوار في جو من الوئام حيث شعر المسؤول لأول مرة بمعاناة الاخر. فطول عمره كان يتموقع في وضعية الدفاع والمعرض للهجوم. كان ينظر على الكرد بنظرة الند أو العدو المحتمل الذي ينتظر الفرصة السانحة لكي يطردهم من المنطقة. أحب صراحة لقمان وطلب منه أن يبات عندهم بسبب قرب حلول الظلام، لكن لقمان الملتزم بمهامه أصر على الذهاب. وكذلك رفض أن يحضروا له سيارة لنقله إلى المكان الذي يريد وقال: ان القرية ليست بعيدة، وأنا احب السير ليلاً تحت ضوء القمر.

ودعهم على أساس أن يكرر الزيارة ان سمحت له الظروف.

- 3 -

الانقطاع عن حياة إستغرقت سنوات الطفولة والشباب لم يكن بالامر الهين، إلا أن الأمل بتوفير شكل أفضل للحياة كان يقوده. لم يستطع مقاومة قوة الجذب الرهيبة الكامنة في

الثورة. الوداع الاخير كان الموقف الاصعب خلال مسيرة الثلاث سنوات التي أمضاها في الفعاليات بين الجماهير. وداع الأهل الذين انضموا بروحهم وامكاناتهم إلى الثورة لا يتوانون عن تقديم أي شيء في سبيلها، والأصدقاء المؤيدين له في السراء والضراء. وأيضا وداع زينب تلك التي شغلت فكره واحتلت مخيلته، وكانت المنافس الأول والاقوى للثورة. كانت سداً أمام صفاء روحه للثورة، فهو يحبها وارتبط بها منذ أول يوم تعرف عليها وتقوت علاقته بها كلما زادت صداقته لاخيها كريم. تمنعت عنه في البداية بتأثير العادات الاجتماعية التي تؤكد على الفتاة عدم الثقة بأي شاب. لكن بعد أن وثقت بأخلاقه وصدق عواطفه، بادلته الحب بحب أعمق وأكثر هياجاً، ولم تتردد في إخبار أخيها عن طريق اختها ليلى. كريم من جانبه لم يرفض هكذا علاقة بل حاور لقمان كصديق وتأكد من سلامة عواطفه وحرصه على زينب وسمعتها.

لقاءاتهما استمرت بشكل دوري، فبنيت دنيا لا أروع ولا أجمل من الأحلام. كل منهما يضع حجراً ليضع الاخر الحجر الثاني. تحاورا حول كل شيء من أبسط الامور إلى اعقدها. من امور البيت المشترك الذي سيجمعهم إلى مسائل الوطن المحتل. اختلفوا بداية ثم وصلوا إلى فكرة مشتركة. أصبحا شخصاً واحدا بجسدين. علاقتهما بقيت عذرية مليئة بالاحترام، فلقمان ما ان تعرف على زينب حتى تعرف على الثوار الذين يملكون أفكاراً ثورية حول تحرير المرأة وتقديرها وإعطاءها ما تستحق من إحترام. أما زينب فقد وجدت في تقربه الشيء الذي تحلم بها. فهذا الشاب أنيق قوي وجسور وعارف بامور الحياة ويحترمها لشخصها. لم تجد في تقرباته أي نوع من الخداع أو الزيف. لم يطلب منها أي شيء يقلل من إحترامها لذاتها، وبالرغم من الفترة الطويلة التي

استمرت فيها علاقتهما لم يطلب منها ان يقبلها ولا أن تظهر معه بمظهر يضر بسمعتها كفتاة شريفة. وحتى عندما تناقشا حول الزواج وبناء البيت المشترك كان يؤكد لها بأنه لن يعاملها مثل الحريم، بل سيكون شريكها العادل في كل شيء. هذه العلاقة والحب الصامت كان الجانب الأكثر ألماً في وصول لقمان إلى قرار اللحاق بالانصار.

كلما زاد إرتباطا بالثوار وانشغل بالمهام التي يُكلف بها. يشعر بأن زينب ستزداد إعجابا به. فالقلائل من الشباب يجرؤون على خوض النضال السياسي بالشكل الذي يقوم هو به، لكن مع نمو فكرة الإلحاق بالثوار والمشاركة في الحرب ولدت في عقله وقلبه حرب ضروس لا رحمة فيها. كان يبحث عن وسيلة للمصالحة لارضاء الرغبتين لكن كل طرف كان يرفض الآخر بشدة. فالحرب التي تشكل أملاً يسعى لتحقيقه تحرمه من حبه، ولقاءه بجانب عشقه يعني حرمانه من حلم طالما سعى إلى تحقيقه وهو أكثر من مجرد حلم ورغبة، بل واجب لا يمكن تأجيله. هذا الصراع الداخلي شغله وأحزنه، حوّل حياته إلى عذاب وشقاء. تحول قلبه إلى حلبة للقتال من دون أن ينتصر أي طرف. استمر هكذا إلى ان حلت الليلة التي حضر فيها سيامند لوداعه. هذا الوداع رجح كفة الثورة. رجح كفة العقل الذي يفكر بالواجب قبل الرغبات والعواطف، فها هو صديقه الذي كان الوسيلة لتعرفه على الثوار، يصل إلى اولى القمم من دون ان يتراجع أو ينظر إلى الوراء. لقد أصبح القدوة الصادقة فيجب أن يكون التلميذ المخلص. خلال أيام وليالي أجرى حساباته وناقش الامور بتعمق شديد وتوصل إلى قرار شبه نهائي، سوف يحاول إقناع زينب المحبة للثورة والوطن والتي تتشوق إلى الحرية والخلاص بالذهاب معه إلى الجبل، ليكونا مثالاً للمحبين. فالحب من دون

وطن مهدد، وإنجاب الاطفال لن يزيد إلا عدد مسلوبي الهوية المنكرين. اقنع نفسه بهذا الطرح وتجهز لكي يواجه زينب به. مع أنه غير واثق من النتيجة.

مع اقتراب موعد تركه للمدينة بشكل نهائي، التقى بزينب التي كانت قد سمعت بما قرره من اخيها، لذا فقد بادرت إلى الحوار والحزن ظاهر في وجهها، تلاقي الصعوبة في التعبيرعن ارائها.

ـ هل جئت لتودعني الوداع الذي لا لقاء بعده، كم منعت نفسي من الاستسلام لحبك لكن في النهأية وقعت وها انا ادفع ثمن وقوعي. فهل هكذا كان اتفاقنا، ام ان الذي جمعنا خلال السنين الماضية اصبح في طي النسيان..؟ كل العواطف التي كنت تبديها، لم تكن الا مجرد كلمات ينطقها اللسان، من دون ان يشعر بها القلب... لم تستطع الإستمرار ومنعت نفسها عن البكاء.

ـ لا أستطيع إقناع نفسي بأنك انتِ من تقولين هذا، قلبك يحبني ويعرف تماماً مدى الحب الذي أكنه لكِ. خلال الفترة التي جمعتنا حاولت قدر الامكان ان أكون مخلصاً لكِ، وأظن بأنني نجحت في ذلك. فتحت لك قلبي لتتعرفي عليّ وعلى همومي وأحزاني. على الحسرة التي تأكل لحمي وتمتص دمائي. إنني متأكد بانك شاركتني كل ذلك. ألم يكن حب الوطن والشوق للحرية هو جامعنا. ولولا ذلك لما تعرفت على كريم وبالتالي عليك. فترة إرتباطي بكِ هي أجمل مراحل حياتي، كنتِ النور في ظلام حياتي التي لم أجد فيها سوى الظلم والتعسف. كنتِ بر الامان الذي ارتاح فيه من عواصف وأعاصير البحار. لقد أصبحتِ جزء لا يتجزأ من روحي وعقلي. لقد نقش اسمك في صدري فوق قلبي. وطالما تمنيت

أن تسمح لنا الحياة بالعيش معاً لنملأ الدنيا بهجة وسروراً. لكن الظروف تتحكم بنا تدفعنا إلى امور قد لا نكون مستعدين لها. الأمر ليس بيدي. فكرت بالإبتعاد بلا وداع لكي لا أضعف أمامك. أنتِ نقطة ضعفي الوحيد. لكن في النهاية لم أرضَ بذلك وأجبرت نفسي على إضاح موقفي أمامكِ، فأرجو أن تفهمي موقفي بفكركِ لان قلبكِ لن يسامحني. هذا هو السبب الرئيسي في رغبتي باللقاء. أما الثاني فهو رغبتي في أن أعرض عليك فكرة خطرت ببالي وسوف أرويها بشرط أن لا تفهمي منها رغبة مني في التأثير على حريتك في الإختيار، زينب كانت تستمع وهي في حالة سيئة، تبحث بين كلماته عن مجال تدخل منه إلى قلبه لتخاطبه لأنها تعرف تماماً بأن عقله مليء بالواجب الوطني فقط، لقد فكرت بأن أطلب منكِ الذهاب معاً إلى الجبال، فالعديد من الرفيقات كما تعرفين قد إحترفن العمل الثوري وهن الآن يحملنّ السلاح ويحاربنّ في سبيل الحرية والوطن، بعد هذا الاقتراح لم تتحمل زينب الإستماع وبدأت بالرد:

ـ إن إصرارك هو السبب في بداية هذا الحب التعيس ومادمت مرتبطاً بالحرية إلى هذه الدرجة لماذا تنشغل بامور القلب والعاطفة..؟ لم أندم على علاقتي بكَ، وباستمرار وجدتك تستحق ما أمنحه لك من ثقة وإهتمام، ومع الزمن تحولت إلى مستقبلي. طرتُ معكَ إلى جنان لا يسكنها سوى العشاق. تحولتَ إلى جزء من كياني، فلم أعد أتصور حياتي من دونكَ. وها أنت بعد كل هذا تحكم كل شيء، ولا ترى سوى الوطن. لماذا طرقت بابي وأدخلتني في دوامة العشق التي أنا في غنى عنه..؟ هل تريدني أن أبكي ورائك وأنت تودعني إلى مغامراتك التي لا يعرف أحد كيف وأين ستتوقف..؟ لا تكتفي بذلك وحسب وتطلب مني مسايرتك

واللحاق بك إلى الجبال والحرب. فهل هذا هو الوعد الذي قطعته ليّ..؟ انني احب وطني مثلك ولن اتخاذل في خدمته، لكن الحرب شيء فوق طاقتي، وأعتقد بأن طلبك هذا مجرد تبرير لتركك إياي. لن اقول لك اذهب أو لا. لكن عليك أن تدرك جيداً بأنك تمزق قلبي الذي احتضنك ولا أحد يعلم ماذا سيحل به.

ــ هل أنا المذنب في حبي لك، أم الظروف هي التي جمعتنا..؟ جمالك وروحك النقية هجمت علي من حيث لا ادري. وقعت أسيراً واحتلت قلبي. إستسلمت بالكامل أمام جبروتك، فهل يحاسب القلب على ما يحبْ..؟ لم أختر هذه المسيرة ولم أكن أتوقع بأنني سأرى هذا اليوم البائس، ولا بقدرتي على الإبتعاد عنكِ. الأسباب كثيرة والنتيجة واحدة. الحياة الموجودة غير مستعدة لفتح أحضانها لامثالي، اريد حياةً حرة وبدونها الموت أهون، لقد بدأت منذ سنوات ولا اتخيل الرجوع قبل قطف الثمار. قلت الكثير ووعدت بالكثير واقسمت بالوطن والشهداء بأن الحياة بلا حرية مجرد خيانة، فكيف أستطيع ترك رفاقي الذين يلتحقون بالحرب الواحد بعد الاخر. الامر خرج من يدي، الظروف هي التي تحتم على إنسان مثلي، إختيار الثورة طريقاً وحيداً للهناء بحبه، ولكِ مطلق الحرية في إختيار شكل حياتكِ.

ــ لا أستطيع متابعة الحوار بعد أن إخترت طريقك، وأتمنى لكَ التوفيق فيه. أما بخصوصي أنا فهذا موضوع سأفكر فيه ملياً قبل أن اعطي قراري الأخير.

ـ لن يكون هذا آخر لقاء لنا. فسوف أحضر إلى منزلكم الليلة لاودعكم جميعاً.

ـ ليكن ما تريد. سوف أتعذب برؤيتك مرة اخرى.

-4-

في نفس المكان الذي شهد بداية صداقتهم، إجتمع الثلاثة، كان الغم والحزن بادياً على الوجوه والجميع حائرين في ما يجب قوله أو فعله. حتى لقمان الذي يتصنع بالتبسم أو يبدأ ببعض الاحاديث من دون أن يكملها، كلما تقع عينه على زينب وهي تنظر إليه بنظرات ملؤها التساؤل والعتاب، تتشوش أفكاره وينسى ما كان ينوي قوله.

عندما وجد كريم بأن الحالة ليست على ما يرام بادر إلى ألته الموسيقية وبدأ بالعزف والغناء لتبقى ليلة الوداع ذكرى في مخيلة الحاضرين. بدأ ولأول مرة في حياته بعزف ألحان مفرحة مليئة بالأمل. ألحاناً تتحدث عن الثورة وإنتصارها القريب. عن الجبال التي تحولت إلى وكر للحرية. كان يعزف ويغني وكل الحضور أذان صاغية. بالموسيقى سمح للجميع بالحديث، تحولت الأنغام إلى كلمات لم ينطقها أصحابها لكنها وصلت وأدت وظيفتها. توقف العزف بسبب حضور الطعام الذي جهزته ليلى خصيصاً للقمان ـ وليمة من المأكولات التي يحبها ـ طبق من اللحم المفروم المتبل والذي وضعت البندورة المقطعة فوقه وتم طهيه في الفرن الكهربائي، وإلى جانب الطبق وزعت المقبلات؛ المخلل ـ اللبن ـ شوربة العدس. بعد إنتهاءهم من تناول الطعام دعاهم كريم إلى غرفته الخاصة ليريهم آخر رسوماته. تبعه الجميع بلهف. وقفوا أمام اللوحة المرسومة باللون الزيتي، التي تكاد تكون أجمل ما رسم كريم حتى ذلك الوقت، حصان أصيل يميل لونه إلى الحمرة واقف فوق قدميه الخلفيتين في مواجهة ذئب أغبر يكشر عن أنيابه

التي تسيل منها الدماء، وضعية الذئب تظهر تأهبه للانقضاض على الحصان الذي يظهر قوةً وثقةً لا خوف فيها. من خلف الحصان تظهر يد تحمل خنجراً وهي تحاول طعن الحصان من الخلف. إحدى عيون الحصان مركزة على الذئب والاخرى على الخنجر. بعيداً في طرف اللوحة تظهر جماعة من الثعالب وأبناء أوى والضباع تنتظر نتيجة المعركة. بالرغم من كل ذلك يظهر الحصان جسارة فريدة.

ـ في هذه اللوحة أردت أن أعبر عن حقيقة الثورة؛ قوتها وعنفوانها، وما يترقبها من صعوبات. إنك تودعنا، يوجه كلامه إلى لقمان، وقد لا نلتقي مرة اخرى. هذا الفراق السريع أحزنني لكن تأكد بأن آمالنا واحدة مهما اختلطت الوسائل، وبقائي هنا لا ينبع من خوف أو جبن أو إرتباط ببعض المنافع والأهواء. بل هي قناعتي وإيماني بدور الفن في توعية الشعب وفي إظهار حقيقة الشعب للعالم أجمع. قد أكون في بداية الطريق وقد تكون يدي هاوية وبعيدة عن المهارة اللازمة، الا أنني مصر على الوصول إلى درجات الإبداع والخلق لدحض الفكر الانكاري الذي يدعي بأننا كشعب مجرد بدائيين.

ـ قد تكون الحرب وسيلة المرحلة الأساسية، بيد أن هذا لا يعني بأن الفن عديم الجدوى، بل العكس فهو كالرصاص والقذائف يلقي الرعب في قلوب الأعداء، وثقتي أكيدة بقدراتك على الوصول إلى ما تتمناه.

دلخواز: رغما عني سأقول كلمة الوداع متمنياً لك النصر والعودة بسلام، مع أنني كنتُ ولا أزال راغباً ببقائك بجانبنا، ومع ذلك لا أملك الحق في ردك عن قرارك، كما لا أملك الجرأة لقطع روابطي والرحيل معك. لكن قلبي معك، ولن أتردد في تقديم المساعدة للرفاق هنا.

ـ عليك بإختيار طريق حياتك وليكن لك رأي مستقل. ضع النجاح نصب عينيك، ولا تبقى بين المطرقة والسندان، لانه سيبقيك في موقف الضحية، عندها لن تجد من يمد لك يد العون، لأنك ستغرق في متاهة التناقضات. حاولت مراراً أن انقذك من ذاتك المترددة لكني لم أنجح، لكن عليك ببذل قصارى جهدك.

استمرت السهرة لوقت متأخر، أمضوها بالمناقشات والاستماع إلى عزف كريم. أما زينب المتواجدة بجسدها لم تكن موجودة بفكرها. تحولتْ إلى شمعة تحترق بمرور اللحظات، فالذي سلمت له قلبها يرحل إلى الأبد ولا تملك أية وسيلة لابقاءه بجانبها.

حانت لحظة الوداع الصعبة. لقمان الذي جمع قواه بالكامل كي لا ينهار، بدأ بوداع كريم وليلى، وما أن سلم على زينب حتى انسحبت باكية إلى غرفتها ولحقت بها اختها. حافظ لقمان على برودة أعصابه ورفض أن يرافقه كريم لأبعد من باب المنزل، وما أن إبتعدوا عن المنزل حتى انهمرت دموعه الصامتة بتلك الدموع التي كانت تنغرس كالإبرة في جسد دلخواز .

دلخواز ينظر إلى صديقه القوي وهو في أضعف حالاته من دون أن ينبس بأية كلمة. لم يحاول مواساته ـ لأنه يعرفه جيداً ـ سارا معا لا يلويان على شيء، إلى أن وصلا إلى النهر. فجلسا ينظران إلى صورة القمر المنعكسة على سطح الماء الجاري أبدا، الماء يجري ولا يلتفت إلى الوراء ليسأل زائريه عن سبب لجوئهم إليه في هذا الوقت المتأخر من الليل في برد الشتاء القارص.

على ضفة النهر وأنغام خريره الحنون بدأ لقمان بالكلام. شاكياً حاله إلى النهر والقمر والليل وإلى صديقه: ما ذنبي وما الذي أقترفه بحق الالهة والسماء والبشر..؟ هل كتب عليّ أن أجرح في قلبي، واجبر على ترك حبي، وان تحترق أحلامي لتتحول إلى هباء..؟ لازلت في بداية حياتي وها أنا أضطر إلى الإختيار بين حبي وواجبي، بين قلبي وعقلي، فان اخترت زينب وإنغمست في ملذات الحياة، سوف أظل طوال عمري شاعراً بالنقص والجبن، بسبب تركي لرفاقي في معمعة المعركة، اما وأنا أختار الواجب، اجد قلبي يعصر وينزف دماً، يرغب في ترك هذا الجسد الذي خانه، فلمن أشكو، ومن سيسمع ندائي ويرى دموعي...؟

ـ تماسك يا صديقي فأنت الأقوى دائماً. لم تكن الا القدوة والمثال للمحيطين بك، وما تحياه حقيقة واقعنا المر. أينما نظرت لا ترى سوى الاشواك والموانع والمناظر الكريهة، إلا ان آمالك أسمى وأشرف، وحبك لا يعرف الحدود، فلا تشكو بل تفاءل. فكلنا نحترق ضمن أتون حياة، لم يكن لنا رأي في القدوم اليها، وها هو الخابور مثلنا يحترق أملاً.

ـ شكراً على صداقتك التي لا تعرف إلا الوفاء، لن أنساك ما دمت على قيد الحياة. كلامي ليس إلا محاولة لمواساة ذاتي المعذبة. لقد تأخرت وعليّ الذهاب، فالرفاق ينتظرونني، وكذلك عليك بالعودة إلى البيت فهذه أول مرة تتأخر فيها إلى هذا الوقت.

احتضن صديقه لآخر مرة، واستلم منه قلماً كهدية ووضعها في جيبه مع الصورة التي قدمها له كريم.

- 5-

إلى أية درجة تكفي قراءة الكتب للوصول إلى المعرفة والحقيقة..؟ هل أدراك حقيقة ما تكفي لممارستها في الواقع العملي..؟ أم العكس هو الصحيح. كانت الحياة بالنسبة لدلخواز كالنهر الهادئ تسير ببطئ وتأني. هكذا فهمها واحبهما، إلى أن صدمته من حيث لا يتوقع. في المدرسة ومع إكتساب كل معلومة. يتأكد بأن ما ظنه حياة لم تكن إلا قوقعة زينتها له العائلة، ليهنأ فيها فترة، من دون ان يحسبوا حساب الأيام القادمة. العالم واسع لدرجة يستحيل عليه إداركه. معرفة شيء ما يظهر له مدى جهالته وضعف معرفته بالوجود، كلما فتح باباً يظهر له إثنان، وما ان يفتحهما حتى يظهر له عشرة وهكذا دواليك. لم يتعب ولم يمل، بل كان الفضول دافعه للتقدم. قرأ كل ما وقع بين يديه وامتلك نظرة حول كل فرع من فروع العلم، لكن وبرغم ذلك يحس بنفسه جامداً في مكانه لا يتحرك ولو قيد شعرة.

لقد تولدت في عقله أفكار عديدة، فهو معجب بدعاة الحرية والعدالة بين البشر. يشارك صديقه لقمان في أهدافه، ومع ذلك يبقى سلبياً يتطلع إلى من يمسك بيده ويتقدمه في كل خطوة. أحيانا يفكر في حاله اذا ما غاب لقمان. يعرف هذا إلا أنه لا يتخذ أي تدبير ولا يحاول ان يصبح صاحب شخصية مستقلة.

قرء في أحد الكتب عن طريقة لتجاوز الخجل، تتلخص بالذهاب إلى ساحل البحر في مكان خالي، وهناك يبدأ بالصراخ بكل قواه ومع مضي الأيام يتغلب على خجله. تفاءل بعد قراءة هذا الكتاب بل كاد يطير من الفرح. لم يصبر بل اصطحب لقمان، وخرجا من المدينة حيث الارض الخالية. وبدأ بالصراخ مرة واثنين وثلاث.... الخ مع كل صرخة كان صوته يرتفع. شعر بنشوة تسري في عروقه. لكن التغيير الذي حدث في تقرباته كان بسيطاً. فلا يزال خجله يتغلب عليه بين

الجماعات الكبيرة وبوجود الجنس اللطيف يتصبب عرقاً حتى في عز الشتاء، ولذا لم يصبح صاحب قصص غرامية كأصحابه، مع انه يتطلع بلهفة إلى كل النساء ويحول الجميلات منهن إلى مواضيع لأحلامه في الليل والنهار.

ارتبطت حياته بلقمان الذي اختار طريقاً شائكاً، وتركه ليواجه مصيره بمفرده. منذ اللحظات الاولى للفراق احس بظلام شديد مخيف يسيطر عليه. بنار تلتهم جسده تحوله إلى رماد. لأول مرة في حياته شعر بالرغبة في الموت فحضن الام لم يعد يتسع لهمومه وما يعترض طريقه من صعاب. لم يكن مجرد صديق كباقي الأصدقاء، بل كان توأمه ومُعينه في كل خطوة يخطوها. مع غيابه وجد نفسه أعزلا لا حول له ولا قوة. فالعائلة لاتزال تدق ناقوسها القديم. تطلب منه إكمال الدراسة.

خلال السنوات الاخيرة من مرافقته للقمان تعرف على عوالم شتى؛ فهم بأن الدنيا ليست مخملية اللون كما كان يتراءى له، بل تحتوي جميع الالوان من ازهارها إلى اقبحها، ادرك بانه ينتمي إلى قومية منكرة، محكوم عليه بحمل هوية لا تمت له بأية صلة، عرف بوجود الآلاف ممن يعارضون هذا الواقع يناضلون ضده ويسعون إلى تغييره، وما الخطوة التي خطاها لقمان إلا جزء بسيط من حركة شعبية واسعة النطاق، وهو نفسه انضم إلى النضال مساعداً للقمان، يتجول معه بين الشباب، يساهم في التحضير للاجتماعات. يوزع البيانات. يشارك في العمل الطوعي وحصد (العدس والقطن) لمد الثورة بالمال اللازم. كان يقوم بكل ذلك مسايرة صديقه وكفرد يسير بحسب التيار العام. ما أن رحل هذا الصديق حتى وجد نفسه كالتائه بين أفكار عديدة، الثورة ومجتمع الوطنيين له جاذبية خاصة لا تقاوم. اما جو العائلة فمغايرة تماماً، ما أن

يعود إلى البيت حتى تظهر أمامه حياة رتيبة أفرادها بعيدين عن التيار العام ويتحاشونه تحت شعار؛ ابعد عن الشر وغني له. مجمل اهتمامهم ينحصر في الحياة العائلية ومنافعها.

عاد إلى البيت في ليلة الوداع الاخير. التقته امه قلقة خائفة، إلا أنه لم يلتفت اليها ولا إلى تساؤلاتها التي لم تنتهِ الا بعد ان أغلق باب غرفته من الداخل. عندها باءت محاولات الام، لفهم السبب في الحالة التي هو فيها، بالفشل. فارتدت بائسة تحترق بالنار التي تلتهم جسد فلذة كبدها.

تمدد على الفراش. نظر إلى السقف الذي كان ينخفض بالتدريج. إرتبك عندما رأى ذلك، وأراد الحركة لكن أعضاءه لم تستجب، فزاد خوفه، السقف يهبط والجدران تتقارب لتهرصه وتحوله إلى كتلة من العجين. جسده ينتهي، فدماءه سالت ولحمه وعظامه إتحدا وأصبحا جزء من السقف والجدران. ومع ذلك لا يزال يرى ويحس ويفكر. الألم والحزن والوجع والكآبة يجبرونه على الصراخ. على طلب النجدة. لكن محاولاته تبوء بالفشل، والصرخات التي تخرج من أعماقه تظل في الحنجرة، وتبقى عضة لا تتحول إلى كلمة أو صرخة. الاحاسيس والرغبات والافكار، يحولونه إلى بركان معدوم الفوهة، يغلي من الداخل. يحترق بدون ان يكون قادراً على الاحراق. يتمنى من اصحاب القدرات الخارقة ان تهب إلى نجدته وتخلصه بأي شكل كان ومهما غلى الثمن. فجأة عاد كل شيء إلى نصابه، الغرفة وجسده. تفحص جسده عضواً عضواً وحاول الوقوف على قدميه، فطاوعته أعضاءه. نهض ليغسل وجهه ويزيل اثار العرق، فتح باب الغرفة، وجد فتاة تبتسم له.

اندهش وعجز عن أبداء أية حركة أو كلمة. فمن هذه ومن أين اتت وما الذي تبغيه..؟ برغم جمالها الفاتن، لكن حالته لم تكن تسمح بإستقبال أحد وخاصة النساء. انه يبحث عن صديقه ولا أحد سواه قادر على مواساته. كان لا يزال واقفا كالصنم، إلى ان بادرت الفتاة بالامساك بيده وادخلته إلى الغرفة، وبدأت تتحدث إليه: أنت لا تعرفني. لكني أعرفك جيداً وأعرف ما تعانيه من حيرة وحزن وضعف، كما أعلم إمتلاكك لقلب صاف وعقل راجح. تبحث عن صديقك الراحل الذي لن يعود أبداً. حضرت أعرض عليك صداقتي، فهل تقبلها، هل تقبل أن اشارك همومك واحزانك، ان اقدم لك يد العون. كالذي يبحث عن بغيته في السماء ويجدها في الارض قريبا منه. غمرته فرحة عظيمة لم يستطع اخفاءها. ابتهج وعبر بملامحه عن احتياجه الشديد إلى إنسان مخلص.

عندما شاهدت بعيونها الفاحصة درجة الحرمان التي يحياها. ذرفت الدموع حزناً على هذا الإنسان. وهو بدوره شعر برغبة في البكاء؛ فالبكاء علاج للنفس يريحها. يزيل الأحزان مع أنه رمز الضعف وسلاح عديمي الحل والقدرة، بين الرغبة في البكاء والتمعن في وجه الملاك الذي لبى ندائه. شعر بأنها تتحول إلى نور ساطع باهر يجبره على اغلاق عينيه. أصر على عدم الرضوخ وفتح عينه ليجد نفسه لوحده ممدداً على فراش بكامل لباسه، حتى الحذاء لم يكن قد خلعه من قدميه. الشمس كانت في كبد السماء تلدغه بضوئها وحرارتها اللذان يخترقان النافذة. أدرك بأن ما راه لم يكن إلا حلماً من أحلامه اليومية، فأحس بتعاسة لم يتحملها. قام يتحضر للخروج إلى الشخص الوحيد الذي يمكن له أن يحل محل لقمان، كانت الوالدة تنتظر خروجه من الغرفة منذ الفجر، وقد جهزت له الإفطار، الا انه لم يصغَ اليها بل لم

يشعر بوجودها وخرج كالسهم إلى مراده. قطع مسافة ليست بالطويلة. بدأ التردد يهجم على فكره كالمطر الذي يبدأ بعدة قطرات ثم يتحول إلى مدار يغمر الارض بالمياه، لام نفسه على ما بها من ضعف. فما ذنب كريم حتى يتحمل مشاكله التي لا تنتهي. نعم هو صديقه ويحبه، لكن هذا لا يمنحه الحق بأخذ وقته. فكريم شاب يعرف ما يريد، يتجه إلى هدفه من دون ان يتأثر بالظروف. يقسم وقته بين الدراسة والفن. يسير قدما نحو بيت كريم والمهانة التي يحس بها في داخله لا تفارقه، فإلى متى سيظل معتمداً على الاخرين، ولما لا يمتلك الإرادة والقوة التي يمتلكها الآخرون. يتأرجح بين العودة من حيث أتى وبين إتمام ما جاء من أجله، إلى أن وجد نفسه امام الباب يطرقه ورجلاه تحملانه بالكاد إستقبله كريم الذي ادرك من الوهلة الاولى بأن رحيل لقمان هو السبب في ما آل اليه صديقه. أراد أن يواسيه ويمنحه النصح، عسى ان يهديه إلى طريق الرشاد.

كريم لم يكن أقل تاثراً برحيل لقمان، لكنه وبالرغم من احساس الفنان المرهف يتمتع بعقلانية في تحليل الأحداث، لا يسمح لها بالتأثير السلبي على مجريات حياته. ما أن صرح لقمان بنيته، حتى قبل أن يعلن ذلك، كان قد ادرك بان الاندفاع الذي يتمتع به لقمان سوف يوصله إلى تبني الثورة. فروح العصيان والانتقام كانت تقوده منذ أول يوم تعرف عليه، وكانت السبب في تعارفهما، خلال فترة تعارفهما حاول بما يملك من خطابه ومعلومات ان يدفعه إلى الصبر وإستخدام وتبني وسائل أكثر مرونة والتمتع بخصوصية المرونة، لكن محاولاته لم تلقَ النجاح المرتقب. كان لقمان يستمع باذان صاغية يرغب في الاستفادة من قدرات صديقه الفكرية، لكنه في قراره الاخير كان يستمع فقط إلى قلبه المعاني والباحث

عن حياة جديدة بديلة عن حياة الذل والعبودية المفروضة عليهم، بحسب تعبير لقمان، لذا لم يستغرب قراره خاصة وان هذه الثورة تتمتع بجوانب جذابة للشعب، فالشعارات التي تبنتها في تحرير كامل تراب الوطن، والاعتماد على الشعب وخاصة الكادحين منهم وكذلك الوسيلة ـ الحرب ـ كانت بالنسبة للشباب كالمنارة بالنسبة للسفن يجتمع حولها الجميع، ماعدا التائهين والانتهازيين.

ضمن غرفة كريم جلس دلخواز متردداً حائراً. بعد ان طلب كريم تحضير القهوة من اخته، جلس مقابله تماماً. يحاول بتقربه الرفاقي ووجهه البشوش أن يهدأ من روعه، ليتمكنا من الحوار بشكل عقلاني بعيداً عن العاطفة.

ـ ارجو المعذرة. لم أكن راغبا في إزعاجك في هذا الوقت المبكر، لكن صدقني لا أعرف كيف.. إلا أن قدماي أوصلتاني إلى بيتك.

ـ هون عليك يا أخي. أنت تعرف بأن البيت بيتك. والصديق عند الضيق كما يقال. لم أستغرب قدومك، وأنا سعيد لأنك اخترتني للمناقشة. لم أنم البارحة وصورة لقمان لم تفارق مخيلتي. نحن فقدنا أصدق أصدقائنا، لكنني فرح لأجله ولأجل القضية التي اختارها. فالجبل كان طموحه ورغبته، والقضية هي الأشرف بين القضايا ولا يعز عليها أمثال لقمان.

ـ هل قدر لنا الولادة لكي نتمرغ في أوحال اناس بشعين لا يهمهم سوى اشباع بطونهم وإرضاء غرائزهم على حساب معظم البشر، أحيان كثيرة أتمنى من صميم قلبي وبكامل قواي العقلية أن أكون جاهلا. فالجهل راحة؛ فها هي الملايين من البشر تكتفي بأبسط اشكال المعيشة ومع ذلك تنام قريرة العين،

راضية عن حياتها تعمل ليلاً نهاراً ولا تبدي أية ردة فعل تجاه مستغليها.

أما أنا وبسبب هذه الكتب اللعينة أصبحت كالمشوش عقلياً، لا أعرف رأسي من قدمي، أعيش بلا هدف. كل شيء فقد معناه واصبح تافها. الدراسة والنجاح فقدت طعمها. العائلة ـ التي احبها ـ تحولت إلى صخرة كبيرة وضعت على صدري تكاد تخنقني، فلم أعد أحتمل مراقبتهم لتحركاتي ولا أستطيع تلبية طلباتهم، أما...

لم يتحمل كريم هيذانه فقاطعه: على رسلك يارجل. نحن بعيدين عن يوم القيامة ـ إن وجد ـ ما بالك تحمل الفأس وتقطع كل ما تلقاه في طريقك ولا تفرق بين الاخضر واليابس. لازلت في ربيع عمرك وتتحدث كشيخ طاعن في السن فقد قواه. يعد أيامه القليلة التي تفصله عن القبر. إن الحياة عمل وجهد مع أهداف تسعى إلى تحقيقها. أراك تريد كل شيء جاهزاً، وانت واقف في مطرحك بلا حراك.

ـ أي عمل وأية أهداف. إنني كمن اصيب بعمى الالوان، أينما أنظر يظهر لي السواد الكالح يظهر لي الليل بما يحويه من خوف ورعب. وسراجي الوحيد رحل وتركني تائهاً بلا مقود ولا معين.

ـ منذ ظهور البشر على سطح الأرض، وإلى يومنا الراهن. هو في صراع مرير من أجل السمو بمستوى حياته، وما نشاهده اليوم كحقائق ومعجزات كانت في الماضي مجرد حلم وخيال حتى للمتفائلين.

اذا ما كان الموت هو نهاية المطاف لجميع الناس ـ من دون ان يغرق بين غني وفقير بين أبيض وأسود ـ فما الفائدة

من إختيار الطرق الطويلة، أليس الافضل سلك أقصر الطرق ما دام الهدف النهائي هو الاستقرار في القبر..؟

ـ لا بد للإنسان من قدومه إلى الوجود، لكن اختيار شكل الحياة مرتبطة به وبما يبديه من إرادة وجهد وذكاء. قد يكون واقعنا سيئاً ويحمل جوانب مأساوية، الا أن النضال في سبيل تجاوزه وظيفة للعارفين والمدركين وخاصة من الشباب. إنك تشاهد الشباب يحيطون بنا كالنحل، طنينهم يصل إلى أعالي السماء، يحلقون من زهرة إلى اخرى، يطيرون ويهبطون، البعض متردد والاخرون متشائمون. إلا أن الحركة تدل على الحياة والأمل. أنت نفسك كنت مرافقا للقمان في مختلف تحركاته كنت مؤيداً له في أفكاره، كان يفكر ملياً وبجدية تامة.

هدفه واضح وضوح الشمس. اسلوبه في الحركة كان مختلفا عن اسلوبنا، لم يعطِ ولو أبسط إحتمال للفشل، بل وثق بالنجاح فقط.

تتحدث عن الموت وهو سنة الحياة، إنه آخر المطاف. اخر حرف في الرواية، لذا عليك بقراءة الرواية من بدايتها وتمر بكامل أحداثها إلى النهاية. فلا يمكن لأحد ان يفهم رواية ما بمجرد قراءة آخر فصل أو آخر صفحة. والذين يدعون العكس ليسوا الا الكسالى والجبناء، ممن يعجزون عن تحمل مجريات الرواية بالكامل. عليك بقبول الحياة بتناقضاتها وتتخذ موقعك ضمن الصراع الدائم الذي بدأه الإنسان كمخلوق مفكر على سطح هذه الارض الجميلة.

ـ الصراع يلزمه القوة والإرادة الحديدية، وهو ما اعاني من فقدانه. في الوقت الذي كنت إلى جانب لقمان كنت احس بالراحة والآمان وتتحول ظلمة الحياة إلى نور، تهون جميع الصعوبات وتمهد الطرق الوعرة. اما بعد انفصاله عني أشعر

بعدم القدرة على الإستمرار بدونه. انني افكر باللحاق به، فطالما زين لي حياة الأنصار وقال: بأن الطريق الوحيد المؤدي إلى الحرية والسعادة يمر بالجبال التي تحولت إلى بؤرة للأمل.

ـ باستغراب ـ تنوي الذهاب إلى الجبل..؟

ـ هذه الفكرة سيطرت عليّ وأغلقت بوجهي جميع الابواب والطرق المغايرة.

ـ والدراسة وجهود السنين هل تذهب أدراج الرياح..؟ أم أن عواطفك قد تحكمت بعقلك لدرجة فقدت فيها القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب. إن ذهاب لقمان منطقي جداً، وروحه المنتفضة لن تستقر إلا في الجبال، أما أنت الذي لم تخرج من حضن امك بعد، كيف ستتحمل تلك الحياة، ألن تتحول إلى فريسة سهلة للحرب وانت ابعد الناس عن العنف. طبيعتك مسالمة، جسدك ضعيف، نفسيتك حساسة، تلاقي الصعوبة في التعامل مع أقرب أصدقائك، فكيف بك واناس من مغارب الوطن ومشارقه، كيف ستتلائم معهم ..؟ صدقني بأن ما تقوله ليس إلا رغبة عابرة، زائلة عاجلاً ام آجلاً. فلا تستعجل، ولكل مشكلة حل، وعلاجك هو التأني والحوار العقلي البعيد عن العاطفة والرغبات الآنية.

ـ تتحدث عن الدراسة وهي الآن عذاب لا يطاق. انا الذي لم يكن يجاريني أحد في تفوقي أصبحت عاجزاً عن اداء أبسط الوظائف، وحتى المعلمين إندهشوا من تراجع مستواي، وطلبوا والدي إلى المدرسة، وبلغوه بحالي. هو بدوره لم يتوانَ عن تأنيبي من جهة والسؤال عن السبب من جهة ثانية، وهذا زاد الطين بلة وعادت مراقبة العائلة تزداد. فهم مستعدين للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل حصولي على

الشهادة التي يطلبون بها، لكن حالتي لا تسمح بذلك أبداً. وقعت العائلة بين نارين أهونهما يحرق جميع آمالهم، تركهم إيايّ يعني رسوبي في الدراسة، أما زيادة الضغوطات فقد تؤدي إلى نتائج لا تخمد عقباها. ذهاب إلى الجبل، الهجرة إلى الخارج، الجنون وغيرها كل هذه الإحتمالات تزيد من خوفهم وحساسيتهم.

لست واثقاً من صدق عواطفي ورغباتي، فكل وجودي ينجذب إلى الشمال، بالرغم من جميع المغريات التي تقدمها العائلة، أجد اني كسمك السلمون اترك البحر الواسع واخوض النهر بعكس التيار، لاصل إلى المنابع في الجبل. إحساسي هو قائدي يوجهني، يؤكد ليّ صحة الثورة وجمالها، مع أن عقلي يوشوش هذا الصفاء النفسي ويتدخل بين الحين والآخر، يظهر مخاطر السير وراء الحواس والاهواء.

ـ اذاً أنت مصمم على اللحاق بلقمان.

ـ لا مناص لي غير ذلك وأرجو أن لا أكون من النادمين.

ـ يصعب على أمثالك إتخاذ قرارات صائبة، لأنك مجرد كرة يتقاذفها قلبك وعقلك من دون ان تصل إلى بر الامان. ان الثورة حصان جامح يستحيل على البسطاء ترويضه. لقمان أمنّ بفكره وأحرق جميع روابطه بالحياة القديمة، تخلص من تناقضات حياتنا لينضم إلى تناقضات أشد وأعنف، إنه الصراع ضمن الثورة، فالثورات تأكل أبناءها.

ـ إنني أحسده على إيمانه ووحدانية فكره.

ـ لن أتدخل في قرارك لكن فكر جيداً. فأنت من سيتحمل نتائج أية خطوة تخطوها.

ـ سأكون على إتصال بك ولن أترك الدراسة نهائياً لكي لا تشك العائلة. عسى أن أجد بعيني عند الرفاق.

- 6 -

لم يكن الا العابد لعظمة الثورة، يرنو إلى سموها فيشعر بمدى صغره، يتأمل عنفوان السائرين في دروبها فيحس بمدى سلبيته، هذه التي لم يتخلص لقمان من قوة جذبها، كيف به أن يتحمل البعد عنها، إنها النار في برد الشتاء والماء في الصحراء القاحلة.

اتصل بالرفاق وعبر لهم عن رغبته في الإنضمام إلى صفوفهم. فكان جوابهم إيجابيا. رحبوا به وشجعوه على ما نوى، وحذروه من خطورة الولوج إلى حلبة النضال من دون جاهزية كاملة، كما أكدوا عليه ضرورة إقناع العائلة بالتدريج لكي ترضى ولا يتحول إنضمامه إلى مشكلة.

مثلما فعل لقمان في الماضي. بدأ أحمد بإصطحابه في زياراته للعوائل لكي يتعود على الحياة النضالية، وتتطور شخصيته بالتعامل مع مختلف فئات الشعب. لكنه ورغم محاولات الرفاق المتكررة يبقى صامتاً يكتفي بالاستماع، وبعكس أقرانه من المنضمين الجدد؛ تزداد عقدته وخجله بشكل لا يحتمل، مما أدى بأحمد إلى إعطاءه الامر كمسؤول حزبي بإدارة الحوار في زيارة إحدى العائلات الوطنية المعروفة. رفض دلخواز وعبر عن عدم جاهزيته. إلا أن القرار كان صارماً: عليك أن تبادر بالحديث ولو كانت عدة كلمات، ولا يهم فشلك في المحاولات الاولى فكل محاولة تتحول إلى تجربة وتعطيك القوة ونحن إنْ تركنا لك الأمر لن تبادر إلى تطوير ذاتك أبداً. على المناضل أن يكون خطيبا

مفوهاً. لم يجد بدا من القبول إمام إصرار الرفاق مع ان الخوف كان يحيط به من كل الجهات. كتدبير أمام جميع الإحتمالات قام أحمد بمناقشته بشكل منفرد، تحدثا عن آخر الأحداث السياسية والعسكرية فوجده قادراً على تحليل الوضع العام ولا تنقصه المعلومات، لذا إكتفى بتشجيعه وطمنه بانه سيكون بجانبه وسوف يساعده بشرط أن يتجاسر.

بين أفراد العائلة التي إستقبلتهما بفرح ظاهر، وجد نفسه أعزلا من كل سلاح، عارياً من كل لباس مربوط اللسان عاجزاً عن الكلام. بحسب الإتفاق مع أحمد عليه هو أن يبادر إلى إدارة الحوار، لكن كيف وبأي لسان...؟ إنه يتذكر كل مايجب قوله، يكنُ اللعنة على الخجل. فوجود أفراد العائلة جميعاً يكبح طاقاته. فالكل يحيطون بهما؛ الام الشباب الفتيات والاطفال وكذلك رب الاسرة أيضا. حاول ان يظهر بمظهر يليق بالصفة التي يحملها ولم يكن راغباً بان يخيب آمال الرفاق وثقتهم به. لكن كلما جمع قواه وجسارته لكي ينطق اولى الجمل، كانت قواه تنهار وتعود كلماته كالخناجر تنغرس في قلبه وكبرياءه، تجرحه جروحاً قد لا تمحيها السنين. حتى النظرات لم تكن لتساعده فهو يعلم بوجود حشد من مختلف الأعمار لكنه لم يتمعن في محيطه. يشعر وكأنه قائد لجيش تحطمت كامل قواه وما عاد عليه سوى طعن نفسه صوناً لشرف القيادة لكي لا يصبح اضحوكة بيد الأعداء. بيد أن كل ذلك لم يكن كافياً، فما أن سأل رب الاسرة عن آخر التطورات، حتى بادر أحمد بتقديم دلخواز كرفيق جديد، وهو الذي سيقوم بالحديث وبالرد على تساؤلاتهم. كمن يعاني من الصقيع ويرمى إلى ماء يغلي. إهتاج هياجاً لا نظير له، احمرت وجنتاه وبدأ قلبه بالخفقان والعرق يتصبب من جبينه كالمطر. تمنى لو تنشق الأرض لتبلعه. ما أن شاهد أحمد

الوضع السيء الذي وصل اليه، حتى همّ بتغطية الموقف وبدأ بحديث إستمر أكثر من ساعة، بين أخذ ورد. تنفس دلخواز الصعداء في البداية ومن ثم بدأ بمحاربة ذاته وهو يتمنى لو تنتهي هذه الزيارة في لمح البصر. ضاقت به الدنيا وتحولت الثواني إلى سنين، أحس نفسه كشيء حقير، ككائن طفيلي لا حياة له من دون مصدر للغذاء والإعاشة.

صاحب البيت الذي رق قلبه لحال دلخواز نصح الرفيق أحمد بأن يعيدوه إلى بيته، فهو لا يزال صغيراً ويظهر عليه عدم القدرة على ممارسة النضال، هذا الكلام كان آخر مسمار في النعش. فما أن انتهت الزيارة وإبتعدا قليلاً عن المنزل حتى انفجر دلخواز وأصدر قراره الغير قابل للمناقشة: لن أتجول بين الناس بعد اليوم، إما أن ترسلني إلى الجبل، أو لتنقطع صلاتنا إلى الأبد. حاول أحمد تهدأته من دون جدوى، أكد له بأن جيمع الرفاق يلاقون صعوبات مماثلة في بداية نضالهم بين الشعب. إلا أن دلخواز المستسلم لضعفه رفض القبول وأصرّ على طلبه. أخيراً يئس أحمد من إقناعه فوعده بالرد على طلبه في أقرب فرصة ممكنة بعد التشاور مع رفاقه المسؤولين.

عاد إلى البيت في تلك الليلة المشؤومة، كانت والدته تنتظره كعادتها كل يوم. وجدته منهكاً، ملامحه تدل على حزن عميق، لم تحتمل، أمسكت به بكلتا اليدين وحدقت في وجه العابس وبدأت بالحديث بلهجة حنونة خائفة: ما بك ياولدي إنك كالمرضى بلا مرض. ما الذي يشغل فكرك إلى هذه الدرجة...؟ أم أن رحيل لقمان هو السبب...؟ هذا المسكين كم كنت احبه لقد خدعوه وسوف يموت بيد الاتراك وحتى لو لم يقتل سوف يموت من الجوع والبرد، فالحيوانات تعجز عن العيش في تلك الجبال. عليك ان تكون يقظاً، فاولاد الحرام

كثر وأنت في بداية حياتك، دراستك هي أهم شيء بالنسبة لنا، وبالتالي عليك النجاح والحصول على الشهادة الثانوية، بعدها سنؤمن لك الدراسة أينما شئت ومهما كلفنا من النقود.

ـ بغضب غير عادي ـ أنت والعائلة لا تفكرون إلا بأنفسكم، وأنا.. ألست إنساناً ذو إحساس وشعور، ألا أملك رغبات وآمال...؟ لما تفرضون عليّ رغباتكم وتريدون مني تحقيقها...؟ لقد حطمتم حياتي، حولوتموني إلى جسد بلا شخصية ولا إرادة. لستُ الآن إلا إمرأة تخجل وتخاف من ظلها، لا تعرف من امور الحياة سوى جدران البيت الاربع، وما أن تخرج حتى تعود مسرعة إلى سجنها(البيت) فهي في الخارج كالعراة والمتسولين. تربيتكم هي السبب في وصولي إلى هذه الحالة، والآن بعد أن حققتم مرادكم ماذا تريدون مني..؟ ها أنا كالعميان لا أكاد أرى أبعد من انفي.

ـ بصوت باكي: إنك أصغر أبنائي. بذلتُ قصارى جهدي في تربيتك وتأمين مختلف حاجاتك، فلا تكن ناكراً للجميل ولا تضرب بقدمك الأيدي التي سهرت على خدمتك منذ المهد. نحن لا نطلب منك أي شيء لتقدمه لنا، فقط نريد أن تؤمن مستقبلك. أنا ووالدك لن نعيش أبد الدهر واخوتك ليسوا مجبرين على العناية بك (مستمرةً في البكاء).

كان جالساً يضع رأسه بين يديه وما أن توقفت امه عن الحديث بادر بالقول:

ـ يكاد رأسي ينفجر، إنني احس بالضياع. لا يوجد إنسان يمسك بيدي. بعد رحيل لقمان تحولت دنياي إلى ظلام دامس. إنك تدعين حبك إياي وبحثك عن راحتي، لكن راحتي وسعادتي تكمن في وجودي بجانب لقمان فقط. فهل ستباركين لحاقي به، أم ستصرين على أنانيتك...؟ إنك تريدين بقائي

بجانبك، لكن لماذا...؟ فحتى صغار الحيوانات تترك امهاتها بعد الكبر. ها قد كبرت فلماذا تصرين على ربطي بألف رباط..؟

ما ان سمعت الام مقولة ـ اللحاق بلقمان ـ حتى صعقت، وبدأت تولول وتنادي أفراد العائلة. الذين استيقظوا من النوم ليجتمعوا حول الام وإبنها.

الاب؛ ماذا جرى لكي يصل الامر بك إلى الصراخ في منتصف الليل. ألا تسمعون، سوف يشعر بكم الجيران.

ـ تعال واستمع إلى ما يقوله إبنك هذا، الذي أفنينا عمرنا في تربيته. يريد الذهاب إلى الجبل ليموت جوعاً وبرداً وليكون طعاماً للحيوانات والوحوش.

ـ على رسُلك يا إمرأة. لكل مشكلة حل، فلا تحملي الامور أكثر مما تحتمل، حتى ولو رغب في الذهاب فلن يأخذوه، إنهم ليسوا بحمقى فمن أين لدلخواز حمل السلاح، هذا محال. أعتقد بأن رحيل لقمان قد أثر عليه، لذا إذهبوا للنوم وإتركوني معه لوحدي.

ذهب الجميع ما عدى الام التي رفضت الذهاب. لكن إصرار الوالد أجبرها على الرضوخ وذهبت لا للنوم، بل للتنصت من وراء الباب. فهيهات أن تقر لها عين بعد أن سمِعت كلام إبنها.

الأب الذي يقارب الستين من عمره. قصير القامة. ليس بالبدين. لحيته خفيفة بيضاء. يضع الكفية والعقال فوق رأسه ويرتدي الجلباب. تظهر من ملامحه وتجعدات وجهه، المصاعب التي عانى منها. إنه رجل لا يهتم سوى باسرته، يعمل طوال يومه في محله التجاري وفي الليل يرتاح بين

أولاده، حتى اخوته نادراً ما يزورهم. حتى إن علاقاته مع بعضهم متوترة بسبب زوجاتهم وبسبب المال. مكانه الوحيد الذي لم ينقطع عن زيارته طوال عمره هو الجامع. يفتخر بكونه مؤمن مواظب على فروض دينه، حتى الحج لم يفته. زار البيت مرة وينوي تكرارها اذا ما سمحت الظروف.

اقترب من إبنه الذي كان لا يزال يضع رأسه فوق ركبتيه بين يديه، وضع يده بحنان على شعره ثم رفع رأسه ليجده والدموع تنهمر من عينيه كالنساء. حن الأب بعد أن رأى إبنه في تلك الحالة لم يتمالك نفسه حتى قال: يجب ان تعرف بأن أهلك فقط يريدون منفعتك. أي حرب هي هذه التي تتحدث عنها، من سيحارب مَنْ ...؟ مجموعة من الشباب بأسلحة بسيطة سيحررون كردستان، هل صدقت هذا الهراء..؟ كردستان مجرد حلم. فجميع دول العالم تنكر وجودنا. لقد حارب أجدادك منذ عشرات السنين ولم ينالوا إلا المجازر والموت، آخر هذه المحاولات كانت للبرزاني الذي استند على دعم الدول الكبرى إلى أن ظن الجميع بقرب النصر، لكن النتيجة كانت أسوء من سابقاتها، وحربه الطويلة لم تكن الا جزء من لعبة دولية قذرة، وما أن انتهت اللعبة تركوا الكرد يلاقون مصيرهم المحتوم من المجازر والمجاعات. هذا الامر مجرد حلم فلماذا الاصرار..؟ العالم لا يريد لنا الحرية ، وكامل تضحياتنا تذهب هدراً من دون أن تغير الواقع. أنا أيضاً شاركت في الثورة وقدمتُ لهم الدعم المادي. هذا الموضوع أكبر وأعقد من أن تتحمله عقول الشباب. لندع كل هذا جانباً؛ كل ما في الوجود مرهون بإرادة الله، فان أراد شيئا يكفي أن يقول: كن فيكون. وما معاناتنا المستمرة إلى اليوم إلا نتاج لضعف إيماننا، والحل الوحيد هو العودة إلى كتاب الله

وسنة رسوله، وهو الكفيل بتأمين السعادة في الأرض والجنة وفي السماء. فلا تحمل نفسك أكثر مما تحتمل.

ـ مسح دموعه وبصعوبة بدأ قائلا: هل وقع اختيار الله فقط علينا لكي نعاني من بين جميع الخلق. فما بال هؤلاء الكفرة ممن يعيشون ضمن الدعارة التي تتجاوز فضائح "سدوم وعمورة " يحيون ضمن الرفاه، وهم سادة الدنيا يتحكمون بمصائر جميع البشر هذا من ناحية، اما الاخرى فالذين يستعمرون أرضنا بشكل مباشر هم مسلمين يتشدقون في الليل والنهار بأنهم امة محمد فلماذا كل هذا الجور والتفرقة العنصرية والرسول أعلن بأنه لا فرق بين الناس الا بالتقوى..؟ هؤلاء ليسوا الا المتسترين وراء قناع الدين يستخدمونه لخداع البسطاء والغفلة. فأين العدالة والحرية أين الاخاء..؟ الا يدعو الدين إلى محاربة الظلم والاضطهاد وينهى عن الجلوس في ظل العبودية ويعتبره كفراً..؟ فلماذا تدعوني إلى الرضوخ..؟ قد أكون من الضعفاء والسلبيّين، إلا أنني لا أستطيع تحمل هكذا حياة. أكاد أختنق. لا شيء فيها يحلو لي.

ـ ما الذي ينقصك يا بني. هل منعنا عنك أي شيء..؟

ـ ينقصني أهم شيء في الحياة، ولا تنفع النقود لتأمينه. إنه الشخصية ذات الإرادة اللازمة لتحدي صعاب الحياة. هذا ما منعتموه عني. عندما افكر بذلك أحتقر نفسي وأشعر بالرغبة في الموت. أتمنى لو أنني لم اولد في زمن يرفس أمثالي ويقذف بهم إلى الهاوية السحيقة حيث المزبلة.

ـ لقد لعبوا بعقلك وخدعوك. شوهوا فكرك. هؤلاء ممن لا يجدون اللقمة في بيوتهم، يخلقون الأفكار الهدامة، يزرعونها في عقول أمثالك من البسطاء. إنهم محرومون، لكن عما تبحدث عنه أنتْ. ها هي الدراسة أمامك ولا ينقصك الذكاء. ما

أن تحصل على الشهادة سوف نرسلك إلى أفضل الجامعات. لا نريد منك سوى تأمين مستقبلك.

ـ أصحاب الشهادات كثر، أكثر من الهم على القلب أطباء، مهندسين، محامين .....الخ ما الذي سأضيفه إلى ما يفعلون، ألا يركضون وراء منافعهم البسيطة تاركين الشعب والوطن في وضعه المزري..؟

ـ لِمَا تنضم إلى أعمال نتيجتها معروفة سلفاً. جميع الذين خدعهم هذا السراب وقعوا في الفخ وندموا حيث لا ينفع الندم. هذه متاهة ولم يخرج أي إنسان منها سالما. دعك من تحقيق إنجاز لصالح الشعب. لم ينجحوا حتى في إنقاذ انفسهم.إستشهد بعضهم والبعض انحط إلى الخيانة والعديد أمضوا حياتهم في السجون والمهجر.. عانوا الامرين، و ماتوا وهم يحلمون، فقط يحلمون بمن يحقق لهم ما سعوا إلى تحقيقه يوما ما. إن مجموعة من المراهقين الذين تتعامل معهم لن يضيفوا إلا هزيمة جديدة إلى سلسلة الهزائم والنكسات. فما معنى الاصرار على الخطأ ولما لا تستمع إلى من هو أكبر منك وأكثر تجربة.

ـ ليتني كنت قادراً على تنفيذ ما تقول، لكنت الان هانئاً مرتاح الفكر منشغلاً بدروسي فقط. لكنني صحبت لقمان والعديد من أمثاله. كلهم كانوا كتل من العنفوان والحماسة، كانوا ينابيع لا تنضب من حب الحياة يضحون بكل شيء في سبيل القضية التي آمنوا بها. أينما انظر تظهر لي وجوههم الباسمة الواثقة وحتى في المنام لا تمر ليلة بدون ان يزورني فيها. أيقنت بأن أفضل الطرق هي الذهاب إلى الحرب، وما عدا ذلك فإن كل ليس إلا تفاهات لا طعم لها...

الام التي سمعت من وراء الباب ـ قرار ولدها ـ صرخت بكل ما اوتيت من قوة ووقعت مغمية عليها. هرع الجميع لحملها إلى فراشها. أحضر دلخواز زجاجة العطر. ورفع رأس والدته وشممها إلى أن استيقظت. ما أن فتحت عينيها ورات دلخواز جالساً بالقرب منها، أمسكت بيديه بشدة حتى ألمته. كانت تبكي وتتحدث بصعوبة. إلى أين ستذهب وتترك امك. هل سهرت على رعايتك لتصبح هدفا لرصاصة تودي بحياتك. حتى جنازتك لن نحصل عليها. كيف ستواجه الله وهو يستمع في يوم القيامة وانت لا عمل لك سوى تعذيبي. أنا امك التي أفنت حياتها من أجلك.... تحدثت طويلاً وهو يستمع إليها بحزن. يذوب كالشمعة. ها هي امه أحب المخلوقات إلى قلبه تكاد تلاقي حتفها بسببه. واجبه تجاه الام يشوش فكره، لكن هواه وعشقه طار مرة يحلق في السماء ولن يهبط إلا بين الصقور في أعالي الجبال.

- 7 -

تحولت العائلة إلى خلية نحل لا تعرف السكون. جميع أفرادها يحومون حول دلخواز يبذلون قصارى جهودهم في سبيل إقناعه بالعودة عما قرره. دلخواز كان أضعف من تحمل تلك الهجمات، فالجميع يستهزؤن بالصالح العام والتضحية عندهم ليست إلا غباء وحمق. حتى الشهادة في سبيل الوطن كانوا يستصغرونها. يغذون فيه الأنانية وشعارهم في ذلك؛ الحياة ليست إلا غمضة عين وما على الإنسان سوى التمتع بها وطريق السعادة هي وفرة المال إلى جانب الزوجة الصالحة.

الأخ الاكبر تكفّل من جانبه برد أخيه إلى جادة الصواب. حضر إلى البيت فهو متزوج ومنفصل عن العائلة، جلس في الغرفة الكبيرة حيث يجتمع جميع أفراد العائلة، بعث الاخت الصغرى لكي تخبر دلخواز بحضوره ورغبته في التحدث إليه. ما أن علم بحضور أخيه، الذي نادراً ما يزور أهله، حتى تذكر ذلك اليوم ـ قبل سنوات عدة ـ كان نائماً عندما استيقظ على صرخات زوجة أخيه. نهض مهرولا ليجدها تبكي وتئن وتستنجد، لكنه صدم عندما وجد أخاه هو الذي يضربها بالحزام بكل ما اوتي من قوة. الوالدة كانت تكتفي بالوقوف صامتة تنظر إلى ولدها الذي يضعف مع كل ضربة يكاد ينهار. يطلب منها أن تصمت، لكن هيهات لقد تحولت إلى لبوة شرسة لا يهمها الوجع ولا الضرب، ومادام صراخها يؤلمه فستستمر حتى ولو سمعها العالم أجمع، لا يهم، المهم أن تستولي على الزوج وتستفرد به بعد أن تُزيل حاكمية امه عليه. سوف يصبح لها بيت خاص هي المديرة، هدفها كان واضحاً، ولن تقبل أي شيء غير ذلك. خططت لذلك منذ أول يوم للزواج. لم يكن دلخواز مهتما بحالة أخيه وكانت علاقتهما شبه معدومة. فخلال سنوات طويلة بقي بعيداً خارج البيت يخدم في الجيش إلزامياً، وبعد إنهاء الخدمة، بدأ بالعمل مباشرة. لان الذي لا يعمل لن يصبح صاحب زوجة وبيت. بعد أن تم الزواج الذي حضرت له الوالدة، لانها هي من اختارت العروس من دون أن يراها العريس. فالزواج عندنا لا يشترط وجود الحب والتفاهم. بعد مرور عدة أيام بدأت الام تبدي إنزعاجها من العروس، وقد كان الإنزعاج يزداد بمرور الأيام. لم يستوعب دلخواز السبب الكامن وراء الخلاف الحاد بين امه وزوجة أخيه ـ الاخوات لم يكونوا اقل إنزعاجاً من الام ـ عندما تكون العروس في غرفتها تصبح

موضوعاً للتداول بين الام واخواته، الجميع متفق على أنهم أخطاوا في الإختيار، فهم كانوا يريدون زوجة مُطيعة تسهر على رعاية البيت لكنها كالذئبة، أظهرت شراستها وتحولت كامل برائتها إلى مكر وحيل هادفة. فعندما يكون زوجها في العمل تتعمد انزعاج الوالدة ولا تنفذ أوامرها وهذا كان الشرارة لبداية حرب نسائية بين العروس وحماتها. حاول كل طرف كسب الزوج إلى طرفه فهو القوة الحاسمة في انتصار أي طرف. الوالدة من جانبها تطلبه بمجرد عودته من العمل تحدثه عن مساوئ زوجته وتصرفاتها، وما أن تنتهي يدخل غرفته منهكاً من العمل وشكاوي الوالدة، يتمدد على الفراش طلباً للراحة عندها تبدأ الزوجة بالبكاء فتحول حياته إلى مأساة لا تطاق. الوالدة من جهة والزوجة من الجهة الاخرى. في البداية حاول تهدئة الوضع وضغط على زوجته لكي تصبر أطول فترة ممكنة، فهو غير مستعد للإنفصال عن والده، لكن الأوضاع تأزمت ووصلت إلى درجة ضرب الزوجة من قبل أخوات العريس بسبب تحديها وشتمها لوالدتهن. في ذلك اليوم كان دلخواز قد حضر من المدرسة للتو. تناول الطعام وتمدد لينام كعادته بعد ظهر كل يوم، لكنه استيقظ على صراخ زوجة أخيه. ما أن حضر الشقيق الاكبر من العمل حتى إجتمعنّ حوله الاخوات وحدثنه عما بدر من زوجته، من دون أن تعطي إحداهنّ الفرصة للاخرى. داخ رأسه من ثرثرتهن الفارغة، تركهنّ قاصداً امه التي كانت في غرفتها تبكي وكأنها فقدت كامل عشرتها. حاول ان يفهم جلية الامر لكنها لم تنطق بأية كلمة ـ لأول مرة ـ عندها فقط أدرك ما فعلته زوجته، فقام إلى غرفته التي وجدها موصدة من الداخل. طرق الباب بعنف مرافق بالصراخ. ما أن سمعت صوته حتى همت إلى فتح الباب، لكنها وجدته على حال غير حاله،

غاضب خانق، فإرتمت إلى حضنه تبكي تطلب منه الإستماع إليها، لكنه منعها من الحديث وبدأ بتانيبها.

ـ ألم أقل لكِ بأن تتجنبي المشاكل وان لا تتجاوزي حدود الاحترام، خاصة مع الوالدة..؟

ـ أرجوك إسمعني. لقد حاولت التقيد بما أمرتني به، لكنها عيرتني باهلي، فلم أتحكم بلساني، إنهم يحاولون إستخدامي مثل الخدم، وأنا غير قادرة على تحمل ذلك حتى لو قتلتني أو طردتني.

ـ أنتِ زوجتي ومجبرة على إطاعتي وإطاعة امي. عليكِ أن تنسي أهلك، فقد دفعتُ لهم مبلغ لا يحلمون به.

ـ هل تعتبرني بقرة أم زوجة..؟ لقد قبلت بالزواج منك كرجل، ولم أتزوج امك وذويك.

أنا مستعدة لخدمتك على الرحب والسعة، وأرفض خدمة اناس يهينون اهلي.

احمرت عيناه وثارت ثائرته، رفع يديه ليضربه، توقف في آخر لحظة وقال:

ـ سوف تخدميهم سواء شئت أم أبيت.

ـ بكبرياء وثقة ردت عليه: لن أفعل... لقد تحولت حياتي بينهم إلى جهنم.

ما أن صرحت برفضها القاطع، حمل حزامه الجلدي وبدأ بضربها، لا يفرق بين الرأس والظهر وباقي الأعضاء، يمسك شعرها الذهبي بيده اليسرى يطرحها أرضاً ويستمر في الضرب. كان أشبه بثور هائج ينطح كل ما يعترض طريقه، وهي لا تكف عن الصراخ والبكاء. تستنجد بالالهة بعد أن

فقدت جميع آمالها بالبشر. فزوجها الذي انتظرته بفارغ الصبر، يجدها المجرمة الوحيدة ويحكم عليها من دون أن يمنحها حق الدفاع عن النفس.

كان لا يزال يلهث كالبغل المنهك وهو يضربها. عندما دخلت امه الغرفة وطلبت منه الكف عن الجلد، لأنها لا تستحق حتى هذه الضربات وأيضاً للحفاظ على سمعة العائلة. لكن سمير الفاقد لرشده، أمسك بامه وأخرجها من الغرفة ثم أوصد الباب من الداخل وعاد يستمر في الجلد. ضرباته كانت تضعف وقواه تنهار- وهو منهك أصلاً من العمل كان قادماً إلى منزله لتناول الطعام ولكي يرتاح بعض الوقت فوجد هذه المشكلة التي دخل في شباكها - لكن زوجته العنيدة برغم صغر سنها كانت صامدة وتعرف بأن تحملها اليوم سوف يؤمن لها الراحة طوال عمرها.

مع انه كان يرغب بسلخ جلد هذه المعاندة التي تريد تمريغ كبريائه ورجولته في الوحل، إلا أن يده تمتنع عن الطاعة. ويسقط الحزام على الأرض. يرنو إلى جسده المرتعش وأيضا إلى المرأة التي تحولت إلى صخرة بل إلى جبل لا يرضخ أبداً. تركها ممدودة على الأرض تستمر في صراخها وبكائها وتمدد على السرير يرجو نيل بعض الراحة الجسدي، بعد أن فقد أمله بنيل الهدوء النفسي.

هذا المسكين الذي تجاوز الثلاثين من عمره لم يمض على زواجه سوى عدة شهر. كان ينوي البقاء ضمن العائلة حتى يؤمن ثمن شراء بيت من عمله الخاص لكي لا يطلب المساعدة من والده الذي تكفل بمصاريف المهر والعرس هذا من جهة، أما السبب الثاني والأهم، فهو لا يمكن أن يترك زوجته اليافعة لوحدها في بيت هو غائب عنه طول فترة

عمله. في حفيظته لا يزال غير واثق تماماً من أخلاقها - بالرغم من سمعتها وسمعة عائلتها الطيبة - والغيرة لا تفارقه منذ أول مرة وقع نظره عليها عندما زار بيتها مع أهله لطلب يدها في تلك الزيارة تأكد بأن كل ما قيل عن فتنتها لم يكن إلا جزء من الحقيقة، ولم يصدق بأن مملكة الجمال هذه ستصبح ملك يديه، شقراء البشرة، ذهبية الشعر ترسله ليصل إلى الفخذين، ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، تظهر رشاقة نادرة. لم يستطع التمعن فيها بالدرجة الكافية لإكتشاف كامل محاسنها ومع ذلك تعلق بها، وشعر بخوف شديد أن يرفض طلبه، فالفتاة التي طلب يدها سابقاً رفضته لأنه لا يحمل شهادة عالية وهو يريد الإنتقام منها بالزواج ممن هي أجمل منها. في ليلة الدخلة وجدها مطيعة هادئة لكن ضمن الفراش كانت دوامة تبتلع طاقاته من دون أن ترتوي، إلى ان يسقط خائر القوة، منذ الليلة الاولى بدأ يخاف منها بسبب شهوتها الجنونية، ويخاف عليها ويحميها من كل المخلوقات، لأنه يريدها لنفسه فقط. هكذا وأمام هذا الجمال البارع تحول إلى عبد مطيع، يسعى إلى إرضائها.

امه التي أحست بالتغيير الذي حدث لإبنها - فهو يعود من العمل وما أن يأكل الطعام يدخل غرفته ونادراً ما يخرج منها الا لعمل خارج المنزل، وبمرور الأيام كانت صلاته بأفراد العائلة تصاب بالفتور- أصابها القلق، فهي لا تريد فقدان إبنها وتسعى لابقاءه قريباً منها، ليستمر في مساعدة والده واخوته. كان يروح ويجيء ما بين إرتباطه بزوجته اللعوب - التي ملئت حياته - وبين واجبه العائلي. لكن عندما وصل الامر بالزوجة إلى شتم والدته لم يستطع التحمل وداس على قلبه واغمض عينيه ليبدأ بضربها. لكن الضرب بقي بلا نتيجة وانقلب السحر على الساحر. اظهرت الفتاة عناداً لا نظير له،

حتى أنها كانت تصرخ وتطلب منه الإستمرار في تعذيبها ما دام الضرب يريحه ويقلل من غضبه. كما كانت تؤكد بأنها لن تظل في هذا البيت إلا كجثة هامدة.

تمدد على السرير مرهقاً يحس بمدى سيطرة هذه الساحرة عليه. أما هي فلا تنقطع عن البكاء والثرثرة.

ـ برجاء الضعيف توقفي يكاد دماغي ينفجر.هل تريدين موتي..؟

فهمت بأن الرجل أصبح كالعجين وماعليها سوى إتمام التحكم بما تملك من فكر ودلال.

ـ لينقطع لساني الذي يؤلمك. أنا فدائك ياحبيبي.

هذه الكلمات كانت كالمخدر تغلغلت في عروقه وأزالت ما به من غضب وتكبر. والزوجة لم تكتفِ بالقول بل نهضت تمسح دموعها وتعدل من هندامها. جلست على السرير وكأن شيئاً لم يكنْ. قبلته قبلة خاطفة وطلبت منه ان يرتاح.

ـ إنك أعقل مما تصورت... فلماذا لا تبدين الصبر إلى أن نؤمن المال اللازم لشراء البيت..؟

ـ اريدك أن ترتاح الآن ومن ثم سنتناقش برواءة.

ـ لا أستطيع النوم قبل أن تحددي موقفك. فإما أن اقنعك أو تقنعيني.

ـ إذا كنتَ مصراً فليكن. أنا تزوجتك كرجل ومن واجبي السهر على خدمتك. لكني لستُ مستعدة لخدمة عائلة بكاملها. امك ترغب بالتحكم بأبسط تحركاتي، وتتدخل حتى في نومي واستيقاظي، ملبسي ومأكلي. تتعمد إثارة حنقي بإعطائي الأوامر بالرغم من تواجد بناتها بجانبها. احس بإنني غريبة

بين اناس لا يحبونني. لا أستطيع الاندماج معهم، وهم أيضا لا يرتاحون لوجودي، فلما تصر على تأجيل امر واقع عاجلاً ام اجلاً. أليس من الافضل ان ننفصل عنهم قبل إزدياد المشاكل وتفاقمها. كانت تتحدث ويدها الناعمة تمسح شعره وتمس صدره، فالرجل عبد لجنسية المرأة.

ـ علينا بالصبر فلا زلنا عرساناً، إبتعادنا عن العائلة يعني ان نتحمل الصعوبات المالية والأهم من ذلك، أنا لا أستطيع ترككِ لوحدكِ خلال ساعات العمل الطويلة. صدقيني سوف أجن...

ـ بخصوص الصعوبات وحتى لو امتنع والدك عن مساعدتنا سوف اقدم لك ذهبي، وسأتحمل كل شيء في سبيل حياتنا المشتركة، أما بخصوص بقاءي لوحدي فيمكن إيجاد الحل بأن يبقى أحد اخوتك أو إحدى أخواتي معي.

ـ أغلقتِ بوجهي كافة المعابر، إنكِ داهية، لكن كيف ليّ وإقناع العائلة.

ـ لن تعجز عن إيجاد الحجج المقنعة. فسعادتنا مرهونة بحصولنا على بيتنا الخاص. قالت هذا وتمددت بجانبه لتبدأ بإتمام ما بدأته ـ بالبكاء والصراخ واتبعته بالإقناع والمكر والحديث السلس ـ بإشباع غريزته لتتحكم به بشكل تام ولتكون النتائج مضمونة. غرق المغرم في بحر فتاته ولم يجد بدا من مواجهة الأهل الذين عارضوا رغبته بشدة. لكن إصراره كان منقطع النظير. وهو مستعد للتضحية بكل شيء في سبيل بقاءه بجانب هذه التي استولت على عقله وقلبه وحولته إلى خادم لرغباتها.

كان رده على الاخت بأن عبر عن إستعداده لاستقبال الأخ في غرفته بسبب الصداع الذي لا يسمح له بالخروج من

الفراش. دخل إلى الغرفة ليجد دلخواز مغطاً باللحاف. بادر بالسؤال عن صحته بعد أن جلس بجانبه. ثم سأله عن الامتحانات وهل نجاحه مضمون أم لا. هذه الاسئلة لم تكن سوى ممهدات للبدء بما يرغب به.

ـ علمتُ من الوالدة أنك راغب في الذهاب إلى الجبال. وهذا أمر طبيعي، فلقمان كان صديق عمرك ولا يمكن ان لا تتأثر به وبمعتقداته. لكن الموضوع ليس بهذه البساطة التي تتصور، بل يحتوي صعوبات ومشاقات لا أعتقد بأنك فكرتَ فيها أو حتى تخيلتها. بحسب علمي أنت غير قادر على ذبح الدجاجة فمن أين لك القدرة على حمل السلاح وقتل البشر..؟ خلال حياتك بالكامل لم تقم بأي عمل، فكيف ستعمل ليل نهار، كيف ستتحمل برد الشتاء. حمل الأثقال..؟ أنت لا تتحمل البعد عن العائلة يوماً واحداً، وحتى في بيتي تحس بالغربة وتبقى جائعاً فكيف ستحيا بين اناس لم تراهم في حياتك..؟ أنا متأكد بأنك ستموت من الجوع خجلاً. إرحم نفسك يا أخي، فحديثي لا يهدف منعك عما نويت بل لاطلعك على امور قد تكون غافلاً عنها.

ـ أنت مصيب في كل ما قلت، وقد أموت جوعاً أو خجلاً أو...الخ. لكن أنا حر في إختيار حياتي، أنت أيضاً خدمت الدولة سنين عديدة ونجوت باعجوبة من الموت في الحرب التي شاركت فيها بلا رغبة و لا إرادة. حبذوك جبراً وضعوك في طريق سرتَ فيه مغمض العين مربوط اللسان، ومن ثم بدأت بالعمل وتزوجت. فرغم معارضة العائلة الشديدة إنفصلت بزوجتك وبنيت بيتاً خاصاً بكما. أنت من فعل كل هذا فكيف تنصحني بعدم السير بحسب رغبتي.

ـ إن ما تفعله مغاير لما فعلت. لك مطلق الحرية في اختيار شكل الحياة بشرط أن لا تودي بنفسك إلى المخاطر. أنت حرْ لكن ليس في قتل نفسك.

ـ لكني لا أبحث عن خلاصي الشخصي، بل افكر بحياة الشعب بأكمله، وأسعى على تقديم المساهمة ولو بقدر بسيط في تحريره الذي فيه حريتي أيضاً.

ـ بغضب، مالكَ وللناس، انظر حولك انهم يعملون ويعملون لكن لانفسهم فقط. أي شعب وأي وطن..! إنها مجرد خرافات ولا يؤمن بها سوى المراهقين والمخدوعين.

ـ يا أخي.. أرجوك... المعذرة لكن أعتقد بأنك لا ترى الا المحيطين بك، لذا اقترح بأن تغير النظارات التي تضعها على عينيك. لترى الغليان الشعبي في القرى والمدن ولتشعر بالشباب الذين يلتحقون بالجبال مستعدين للتضحية بكل مايملكون.

ـ لا اريد الإستمرار أكثر من ذلك بسبب سوء صحتك، لكن تأكد بأن الذين تريد التضحية من أجلهم لن يقولوا عنك إلا.. الأحمق.

- 8 -

وتصريحه الاعلان العفوي لقراره قلب البيت رأسا على عقب، وحول افراد العائلة إلى مقاتلين متمرسين جاهزين لحماية ابنهم الذي هو أملهم الوحيد. كل فرد من جهته بذل كل ما بجعبته لرده عما قرره، حولوا حياة الجبال إلى حياة لا تليق

إلا بـالوحوش، ونعتـوا الثـوار والـوطنيين بـصفات الاغبيـاء والجهـلاء لأنهـم يـسيرون وراء الـسراب المـسمى بالحريـة. وصـفوا الـسياسيين الكـرد بأسـوأ الـصفات؛ إنهـم معـدومي العاطفـــة ولا يهمهـــم مـــوت وعـــذاب الـــشباب المنـــدفع، ويستخدمونهم للحصول على المال والجاه. وبعكس ذلك حولوا الجو العائلي إلى جنة لا مثيل لها فهو سيكمل دراسته ويحصل على الشهادة وبعدها مباشرة سوف يزوجونه من الجميلات مهما غلا مهرها. وعدوهُ بكل شيء يرغب به بشرط أن يترك الأفكاره الجنونية.

كـالارض إنهالـت عليهـا ثلـوج الـشتاء، فتحـول لونهـا إلـى بياض ناصع. هكذا تعرض لهجمات العائلـة الفكريـة لدرجـة لم يعد بمقدوره الـدفاع عـن موقفـه. فجميـع كلماتـه التـي تعلمهـا إنتهـت، بينمـا يـستمر الجميـع فـي الكـلام يخلقـون الحجـج والأعذار، يغرقونـه بـالعواطف ويحيطونـه بالحنـان ليل نهـار. كل هذا في كفة والوالدة وما تفعله في كفة لوحدها. فمن الحنان الزائد إلـى طـرح المغريـات، مـن اللـوم والـشكوى، إلـى البكـاء وذرف الـدموع وأيـضاً الوقـوع مغميـاً عليهـا عنـدما تجـد الإصرار عند ولدها.

تحول إلى جدار يوشك على الإنهيار لا سند لـه ولا معين. أملٌ وحيد فقط يدفعه إلى الصمود، هو قدوم الرفـاق للـرد علـى طلبه في اللحاق بلقمان.

فـي اليـوم الموعـود قـدم أحـد الرفـاق إلـى المنـزل. أدخلـه دلخـواز إلـى غرفتـه بـسرعة لكـي لا يجـذب إنتبـاه أحـد. إلا أن الوالدة كانت تحسب حركاتـه وتـصرفاته بدقـة متناهيـة. فمـا أن دخلا الغرفة وأوصدوا الباب من الداخل. بـدأت هـي بالتنـصت والخوف يكاد يحولها إلـى وحش رهيـب. كانـت الاسئلة تهجم

علـى مخيلتهـا. فمـن هـذا الـشاب الغريـب ذو الملابـس غيـر العادية..؟ هل هو أحد اؤلئك الذين أخذوا لقمان إلـى الجبل..؟ إذا كـان صـديقاً للدراسـة لمـاذا أقفـلا البـاب..؟ بالتأكيد سيكون أحـد أعـضاء الجماعـة التـي تخـدع الـشباب، وتحـرق قلـوب الامهات. بينما التساؤلات تهجم على فكرها، وصل إلى سمعها حوارهما. هذا الشاب يعلن لولدها عن موافقتهم علـى طلبـه. مـا أن سمعت ذلك حتـى جن جنونهـا وتخيلـت هذا الـشاب كـذئب مفترس يتجهز لإفتراس إبنهـا. فجمعت كامل قواهـا وأسرعت إلـى المطـبخ وعـادت تحمـل الـسكين. كـاللبوة الخائفـة بـدأت بـضرب البـاب بمقـبض الـسكين، بيـدها، برجلهـا، ولـسانها لا يكـف عـن الـصراخ: خـرج أيهـا اللـص. يـا إبـن العـاهرة، هـل وصلت بك الجرأة أن تحضر إلـى بيتـي لتهدمـه مـن الـداخل..؟ سـوف امـزق قلبك وأشـرب مـن دمك قبـل أن تأخـذ إبنـي. هيـا اخرج بسرعة. سوف انادي الشرطة يا خاطف الصغار بينما تستمر الام في دق الباب وتزيد الشتائم، كان دلخواز قد تحـول إلى فـأر هوجم من قبل القط، فوقف جامداً في مكانـه عـاجزاً عـن إبـداء أيـة حركـة. كـان ينتظـر حـدوث معجـزة تنقـذه مـن المأزق السيء. فهو يعرف والدته ومدى جديتها في مثل هذه الامور، لن تتورع عن القيام بأي شيء وحتـى القتل لا يستبعد عنها. فرغم حنانها الزائد، لكن حقدها أيضاً لا يعرف الحدود.

ـ ما بك قد تجمدت أوصالك، هيا إفتح الباب وإفسح المجال لـي للخـروج، فـصراخها سـوف يجمـع النـاس، عنـدها سـنكون كمن يقطع الغصن الذي يجلس عليه.

ـ لكنهـا خلـف البـاب، ولـن تتـردد عـن إيـذائك أنـا واثـق مـن ذلك.

ـ مهما يكن، فالخروج أفضل من الإنتظار. إجمع قواك ولنخرج معاً. حاول أن تمسكها حتى أتمكن من الخروج، وبخصوص ما تحدثنا عنه سوف أتصل بك بطريقة ما.

فتح الباب وخرج ليواجه عاصفة الوالدة المدمرة. اختلط الحابل بالنابل. الوالدة بكامل طاقتها تحاول الوصول إلى هذا المتعدي لتغرس السكين في قلبه بينما دلخواز المسعوق يحاول منعها. لعدة مرات كادت أن تحقق مرادها لكن دلخواز منعها وفتح المجال له ليهرب بعد أن شاهد الموت بعينه. حتى بعد أن خرج إلى الشارع لم تتركه بل تبعته وبدأت تصرخ بأعلى صوتها: أمسكوه... لص...قاتل...يا ناس...الخ. خجل من تصرفها فأمسك بها وسحبها إلى المنزل. كانت ترتجف من أصابع قدميها إلى قمة رأسها وتتنفس بصعوبة. ما أن تأكدت من إبتعاد ذلك الشاب حتى إلتفتت إلى ولده وصفعته على وجهه وهي تقول: لقد حولت نفسي إلى أرض لتمشي عليها. وهبتك كل ما أملك، وها أنت تسعى إلى قتلي، يا لك من عديم الضمير..! ما الجرم الذي ارتكبناه بحقك حتى تعذبنا بهذا الشكل. ألستُ امك التي حملتك في رحمها ورضعتك من نهدها وسهرت عليك شهوراً وسنين إلى أن أصبحت رجلاً، الان تقدم لي اولى مكافئاتك بأن تتركني وتهجر العائلة إلى حيث لا رجعة. اذا كنتَ حاقداً علينا فلماذا تودي بحياتك..؟ كانت تتحدث بغضب وحنق شديدين، ورجفتها تزداد. أما دلخواز فقد كان كمن تم تعريته من لباسه بالكامل وترك فوق الثلج، لم يكن يتصور أن تصل الامور إلى هذا الموصل. ها هي الوالدة تسقط مُغميةً عليها ويصطدم رأسها بالارض. طلبوا الإسعاف. في المشفى وبعد إجراء المعاينة والفحوصات، أكد الاطباء بأنها مريضة بالقلب الذي تم نتيجة صدمة مفاجئة كانت تفوق

طاقتها. وان لم تؤمن لها الراحة الجسدية والنفسية يحتمل أن تصاب بالشلل النصفي.

ما حدث في ذلك اليوم وما وصلت إليه حالة الوالدة رجح كفة العائلة على حساب كفة الثورة. فضميره يؤنبه لأنه السبب في مرض والدته التي أفنت عمرها في تربية أولادها. ولن يسامح نفسه أبداً في حال اصيبت بالشلل. بعد أن أخذ كل ذلك بعين الاعتبار، قرر ان يكبت رغباته كما فعل طوال عمره الماضي. وان يخفي آماله الباهتة. ويؤجلها للمستقبل عسى أن تقدم له الأيام ماعجز هو عن تامينه لنفسه.

قرر أن يترك موضوع الثورة، ولو مؤقتاً، وصرح بذلك للعائلة، التي إبتهجت لذلك أكبر الابتهاج، كما أعلم الرفاق بقراره على أن تبقى علاقاتهم مستمرة وأن يساعدهم بتقديم الدعم المادي.

- 9 -

مرة ثانية كما المرات السابقة اختار كريم ليكون شريكه في الأحزان. في غرفة الرسم بين فوضى اللوحات وباقي لوازم كريم المدرسية، جلس دلخواز ينظر إلى اللوحة المرسومة في صدره يريد أخذ رأي صديقه الخبير بها. كريم ينظر إلى آخر رسوماته التي لم يكملها بعد. سادت فترة من الصمت. إلى أن سأله كريم عن حاله، فرد قائلا:

ـ احس بأن حياتي قد وصلت إلى نهايتها. جميع دوافعي في الإستمرار بالعيش محكوم عليها بالسجن في أوردتي وشراييني، تأبى الخروج. أكاد أختنق واحس بغبار يملئ حلقي، وعيوني أصبحت لا ترى الا الالوان الرمادية.

ـ لا تظلم الواقع إلى هذه الدرجة، فمع ذكر الصعوبات والمشاكل على الإنسان أن يواجه حقيقته الذاتية أيضا. علينا عدم حمل السلم بالعرض. فالذي يبالغ في طرح العقبات يظهر في نفس الوقت ضعفه وعدم رغبته في النضال. رؤية الواقع هو أبسط الامور ولا تدل على ذكاء خارق. الإنسان كائن منتج ومبدع يتعامل مع الحياة ويتجاوز صعوباتها التي تعترض طريقه. هذه الصعوبات تختلف وتتنوع مع تطور حياة البشر. فقبل ربع قرن كان الناس يرضون بمستوى أدنى بكثير مما نحن فيه الان. لكن نفس هذا المستوى في يومنا هذا هو المشكلة، والكل يسعى إلى تجاوزه للوصول إلى درجات أرقى وأكثر حرية.

ـ الواقع كما يظهر لي يختلف عما هو بالنسبة لك وللقمان وللاخرين. إنه سجن كبير رهيب وطوق يعصر رقبتي، يريني النجوم في عز الظهر. ولا يد لي في صنعه ولا في اختياره، ولكي أتلائم معه، عليّ بمعاداة ذاتي وإعلان الثورة عليها. عليّ بمعاداة وتحدي المحيط والعائلة والمدرسة والعدو. فمن أين لي القدرة والإرادة على خوض هذه المواجهات جميعاً.

ـ لا أعتقد بوجود أي شيء جاهز بلا ثمن ولا جهد. اما أنت فقد وجدت جميع إحتياجاتك جاهزة، ولم تجبر يوماً حتى على التفكير بالشكل الذي يؤمن به المأكل والملبس والمسكن..... الخ. من دون أن تدرك نتائج هذه المعيشة، ارتحت لها إلى أن صدمتك الحياة بجوانبها المريرة التي لم تكن تشعر بوجودها في السابق. أنت كالمريض الذي لا يدرك قيمة الصحة إلا بعد أن يصاب بالمرض. ها أنت الان تبحث عن السكون والراحة التي أمّنها لك حضن الام ورعاية العائلة. لكن هيهات فقد كبرت واصبح من المعيب أن ترضى

بهكذا حياة. أنت غير موجود كشخص يملك القدرة على الاختيار، بقيت كالطفل تبحث عمن يمسك بيديك، كل من يمنحك بعض الحنان تقتفي أثره بلا تردد، انا واثق بان عواطفك ورغبتك في الذهاب إلى الجبل لم تكن صادقة، بل كانت ناجمة من إرتباطك بلقمان الذي حولك إلى ظله ومن ثم غاب عنك، عندها بهرت الشمس الساطعة عيناك وخفت من المواجهة وبدأت بالهزيمة والعودة إلى حياة الظل، في الصميم لا فرق لديك بين أن تكون ظلا للقمان أو ظلاً للعائلة. الفارق الوحيد يكمن في أن لقمان كان يريك عوالم جديدة كل يوم. لكن عليك أن تعرف جيداً بأن تلك العوالم لم تغير من حقيقة كونك ظلاً. فجميع المواجهات لم تكن لك، بل لقمان هو الذي تحدى حتى وصل إلى المكان الذي يرغب. وأنت لا مجال أمامك الان وعليك أن تخلق دلخواز. فما الذي يريده ولماذا... ما هي فكرته حول الحياة، وكيف يريد أن العيش فيها..؟ من أي نوع من المخلوقات وأي الشعوب وعلى أي أرض..؟ ما هو الواقع الذي وجدت نفسك فيه. وما هي الإمكانية المتاحة للتغيير نحو الأفضل..؟ أي الادوار سوف تختارها لنفسك..؟ أم سترضى بالحياة كفرد يبحث عن خلاصه الشخصي كمعظم الناس ومنهم والدك واخوتك..؟ هذا الاختيار سوف يجبرك على تحمل الروائح الكريهة. وإذا أردت تجاوزه عليك بركوب المخاطر التي قد تؤدي بحياتك وتصبح فداء لرغبتك في التجديد. المخاطر ليست واحدة والتحدي الذي قام به لقمان ليس إلا احداها. صعود الجبل ليس بالامر الهين الذي يستطيع الجميع تحمله بل هو إحدى القمم وذروة الصراع. فهناك من يختار الفن كوسيلة والبعض يختار السياسة أو الادب أو حتى الجنون أو الانتحار... الخ، فأين أنت من هؤلاء..؟ عليك أن تجد نفسك، فمن أنت وماذا تريد بالضبط...؟ في السنة القادمة

سوف تتقدم لإمتحانات الشهادة الثانوية وتفوقنا سوف يحدد الكلمات التي ستفتح لنا أحضانها. الدراسة ستمنحك القوة والمعرفة والثقة بالذات للاختيار. وهكذا فقط قد تنجو من الندم على أشياء كان عليك أن تحسمها في زمانها ولم تفعل.

حديث كريم كان بمثابة المرهم الشافي لجراحه. يستمع اليه وهو يتمنى أن يكون مثله قادراً على إتخاذ هدف واضح بدون الإلتفات إلى الوراء أو الأطراف.

ـ كم احسدك على صفاء فكرك، أما أنا فلا يوجد شيء الا وافكر فيه. أحلم بكل شيء جميل وحسن. احلم بحياة سعيدة بين اناس سعداء وأرغب في خدمة البشر والعيش معهم بسلام. أجد نفسي كمناضل في سبيل الشعب المضطهد... الخ، لكن كل ذلك في الحلم. بينما في الواقع أبقى عاجزاً عن خطو أية خطوة.

ـ حرام عليك يا رجل لماذا تحمل نفسك حملاً يثقل كأهلك يوقعك في الحضيض. لكل إنسان قدرة معينة. ولازلت شاباً مليئاً بالطاقة. الأيام امامك طويلة، فأنت بعيد عن السيئات ورغباتك خيرة، ولا ينقصك سوى الاستقرار في الفكر. فلا تصدق كل ما يقال أو كل ما تقرأ، عليك بالشك في كل شيء ومقارنته بالواقع كما تراه. فمع لقمان تريد الحرب، ومع الآخر سترغب بشيء آخر، لكن ما الذي يريده دلخواز...؟ عليك تحديد ذلك لكن بصبر وتأني.

دخلت زينب ومعها القهوة وضعتها أمامهما وتراجعت لتخرج. لكن كريم استوقفها وطلب منها الجلوس، ومشاركتهم الحوار، جلست وهي تفكر في السبب. خطر ببالها لقمان فدلخواز يعرف قصة الحب التي كانت تجمعهما... الخ.

ـ لن آخذ من وقتكِ الكثير، فقط اريد طرح بعض الاسئلة عليكِ، فهي مفيدة في إيصال حوارنا إلى النتيجة، واريد أن تجاوبي عليها بصراحة، بحضور دلخواز.

ـ تفضل يا أخي.

ـ أنتِ الآن طالبة، فما هي أهدافك المستقبلية..؟

ـ لا أعرف قصدك بالتحديد، لكن هدفي الحالي هو إنهاء الدراسة بتفوق، إلى جانب إهتمامي بالثقافة العامة وخاصة اللغة الكردية. فأنا اريد أن أقرأ وأكتب بلغتي.

ـ ولما تريدين إتمام الدراسة ما دمت ستتزوجين في النهاية، وستمضين عمرك بالولادة وتربية الأطفال وخدمة الزوج.

ـ بإنزعاج ـ ومن قال لكَ بأنني افكر بالزواج الآن، حتى لو تزوجت، هل تظن بأنني سأصبح بقرة ولادة. الموت أهون ليّ من تلك الحياة. لا اريد أن أستبق الأحداث وهدفي الحالي هو إتمام الدراسة.

ـ هل تفكرين بالعمل الوظيفي..؟

ـ لا احب ذلك، لكن ولكي أكون مستقلة اقتصادياً سامارس وظيفة ما.

ـ لا تحبين الوظيفة، فما الذي تحبينه إذاً..؟

ـ أعشق الأدب، وخاصة الشعر.

ـ هل ترغبين بأن تكوني شاعرة..؟

ـ أرغب بذلك طبعاً، لكني غير واثقة من مؤهلاتي، لذا إن سمحت الظروف سوف أدرس كلية الاداب.

ـ والـوطن وقـضية التحـرر أيـن موقعهـا فـي حاضـرك ومستقبلك..؟

ـ أعتقـد بـأن فكرتـي لا تختلـف كثيـراً عـن فكرتـك بهـذا الخصوص، فأنا لا أتوان عن أداء أية خدمـة تقع علـى عـاتقي، وأقوم بالدعاية بين الطلبة و .... الخ.

ـ لماذا لا تتفرغين لمثل هذا العمل، أي لمـاذا لا تـصبحين إحدى المناضلات المحترفات..؟

ـ سـأكون كاذبـة إذا مـا قلـت بـأنني لا افكـر فـي ذلـك. لكـن هنالك امور عديدة تجعلني أبتعد عن إتخاذ قرار كهذا.

ـ وما هي هذه الامور..؟

ـ قبـل كـل شـيء لازالـتْ رغبـاتي متنوعـة ومتناقـضة، وإختيـار الحيـاة الثوريـة يلغـي جيمـع الرغبـات الاخـرى. وهـذه تضحية لست مستعدة لإبدائها الان على الاقل، فهؤلاء يتركون عوائلهم وحياتهم بالكامل ويرتبطون بـإرادة التنظيم، أي تنتفـي إرادتهم الفرديـة، وأيضا الـزواج ممنـوع عنهم ولهذا لـم أصـل إلـى قـراري النهـائي بخـصوصه. وكـذلك موضـوع الحـرب وحمـل الـسلاح وحيـاة الجبـال هـي أصـعب مـن قـداراتي علـى التحمل، فبين اناس غرباء لا أخ ولا قريب، عنـدما افكـر بـذلك أشعر بالخوف. فأنا فتـاة، ولـهذا السبب بالتحديد علـيّ أن افكـر مئة مرة قبل أن أصل إلى هكذا قرار.

ـ كـل هـذه الامـور.. هـذا يعنـي بأنـك لـن تلتحقـي بهـم أبـداً..؟
ـ لا أعرف لكن الوقت كفيل بتغير أحوال البشر.

ـ إلى دلخواز ـ ماذا تقول بعد سماعك لاجوبـة زينـب. إنهـا أصـغر منـك لكنهـا تعـرف مـاذا تفعـل. ولهـا خطـط مـستقبلية واضحة.

ـ إنها اختك وتلقت التربية التي تلقيتها، ولا عجب في أن تجيب بهذا الوضوح. وأعتقد بأنكما تتناقشان حول هذه المواضيع بإستمرار.

ـ نعم نحن نتحاور، وأنا أحترم آراء اخي واعتبره معلمي، لكني أحرص على أن أكون صاحبة شخصية مستقلة وأن أتخذ قراراتي الخاصة بمفردي. رغم ظروف المحيط لا تعطي هذا الحق للمراة، فهي ناقصة وعاجزة عن إدارة ذاتها بدون رجل.

ـ لقد أخذت الكثير من وقتكما، لذا إسمحوا لي بالذهاب، وسوف احاول قدر الامكان تجاوز حالتي السلبية. وفترة العطلة الصيفية فرصة مناسبة للمطالعة والتجوال.

الفصل الخامس

-1-

قطعة الطين التي رميت لم تلتصق بالجدار لكنها تركت أثراً. والخوف الذي أقلق أمن وسكون العائلة لا يزال مستمراً، وإن كان مستتراً. بالرغم من تأثره الشديد بمرض والدته والوعد الذي قطعه على نفسه، لا أنه لا يهدأ على حاله، ويشعر بان طريق السعادة الذي فتح أمامه. قامت العائلة بإغلاقه وهكذا زادت جريمة جديدة على الجرائم التي إرتكبوها بحقه. وتوترت علاقاته معهم وزادت حالات إنفعاله وغضبه - بسبب وبلا سبب - العائلة من جانبها وخوفاً من ردود فعله التي لا تحمد عقباها، يتقربون منه بحساسية زائدة من دون أن يقللوا المراقبة.

في بداية العطلة أجبر نفسه على البقاء ضمن محل والده التجاري. ساعات طويلة يجلس في المحل ينظر إلى المتسوقين وإلى والده الذي يتعامل معهم. لم يعجبه وضعه ذاك وامتنع عن الذهاب إلى المحل، فهو مشغول بالحرب المستمرة في فكره وقلبه. تجول في سوق المدينة المستعرة وضاق صدره بالإزدحام. إرتاد المركز الثقافي ولم تعجبه

المحاضرات ولا العروض المسرحية...الخ. المكان الوحيد الذي ارتاح فيه كان غرفته حيث يظل لوحده. الوحدة هي موت من نوع آخر. موت بالتقصيط الممل ولولا الكتب وما فيها من أمل وحيوية لكان قد انتهى خلال أيام العطلة. قرأ كتبا شتى من حياة ماركس ولينين حتى سيرة ابن هشام. من كراس المقاومة حياة، إلى الالياذة من مجلة صوت كردستان إلى المجلات الثقافية إلى كتب التحليل النفسي التي أثرت عليه وفهم من شروحات المحليين أسباب وصوله إلى الحالة التي هو فيها. لكن القرآن بجانبه الذي يتحدث عن الدنيا الاخرة كان قد حاز على إعجابه. فبما أنه غير قادر على العيش براحة في هذه الحياة فليجمع بالصلاة وبباقي الفرائض والحسنات التي تمكنه من إجتياز الصراط المستقيم، وهكذا بدأ يتردد على الجامع في أوقات مختلفة بعد أن كان يرتاده في يوم الجمعة فقط.

- 2-

لأول مرة منذ أحد عشرة سنة يسير إلى المدرسة لوحده بدون أن يرافقه لقمان. وهي السنة الاولى التي يتقدم فيها نحو المدرسة بلا رغبة ولا هدف معين. فهو يدرك مدى صعوبة الحصول على العلامات العالية، التي تمكنه من دخول كلية الطب. فحالته النفسية لا تسمح له بالدراسة والتحضير، وامور عديدة تشغل دماغه في مقدمتها الجنة وكيفية الوصول اليها. دماغه تحول إلى عربة بلا سائق، تسير ولا أحد يعرف في أية هاوية ستسقط. يرغب في تحقيق رغبة العائلة، من أجل والدته المريضة، وامور عديدة اخرى متداخلة. يرغب في النضال الوطني ويعجز عنه. يتلهف إلى صديقه تشاطره فكره

وتمنحه القوة لمواجهة الحياة ومشاكلها، لكنه كالأرنب يخاف ظله ويكتفي بالحلم بأن تتقدم إحدى الجميلات وتعرض عليه صداقتها، وهذا ما لن يجده حتى ولو إنتظر العمر بطوله.

في المدرسة وبمرور كل يوم كان يكتشف بأن الغائبين كثر وليس لقمان لوحده.

جمعة طالب مجتهد مليء بالحيوية له علاقات جيدة مع مختلف المجموعات. كان يلعب ضمن فريق المدرسة لكرة القدم. يحبها كمعشوقة له، ويحلم دائماً بأن يمثل شعبه في المباريات الدولية. هذا الحلم كان يتحول إلى سراب بسبب الواقع الرديء وعدم وجود المجال لمثل هذه الرغبة. وكذلك لم يجد المجال مفتوحاً لوصول إلى منتخب الدولة، فهو وأمثاله لا يسمح لهم بتجاوزالحواجز المزروعة في سبيلهم. لأن المنتخب الوطني مخصص لأبناء القومية الحاكمة فقط، فحتى لو وصل أحدهم إلى ذلك المستوى عليه أن ينسى لغته ويندمج مع حياة وثقافة الحكام ـ بإختصار عليه نسيان أصله ـ بعد ان فهم عدم جدوى الاحلام. اكتفى باللعب بين أقرانه للتسلية فقط. كان دائم التفكير بوضع شعبه ورفاقه. يبحث عن مخرج للمشاكل التي تعترض طريقه لذا كان كالمكوك يدور بين الجميع يرغب في فهم الكثير في اقل فترة ممكنة. لكن هاهو غائب عن المدرسة وعن نقاشاتها. أصبح ضحية للعلاقات الاجتماعية السائدة التي لا قدرة له على مواجهتها أو رفضها. فالرفض له نتيجة واحدة وهي تجريده ضمن الجماعة والنظر إليه كشيء ناقص.

الأخ الاكبر لجمعة والذي يكبره بسنتين قتل في حادثة سير ولم يكن قد مضى على زواجه إلا عدة أشهر. مات وترك زوجته ـ إبنة عمه ـ التي تمكن من الزواج بها بعد أخذ ورد

طويل وعنيف. والسبب هو رغبة العديد من شباب العائلة بها، بسبب جمالها النادر، في النهاية نجح بالحصول عليها بجهود والدته وأموال أبيه. لكن لم يكتب له الهناء بما نالت يداه، ولم تقر عينه برؤية ذريته وبقيت زوجته الثكلى والحامل تنتظر من يقرر مصيرها ومستقبلها. لكن حدث ما لم تكن تحسب له أي حساب. العادة تقتضي أن يتزوج أخ المتوفي مع زوجة اخيه لكي يحميها ولا يترك شرف العائلة عرضة لمساوئ القدر. جمعة صاحب الحظ التعيس كان هذا الاخ. حلمه لا يعرف الحدود وأمامه سنة واحدة ليصل إلى الجامعة. إلا أن العادات لا ضمير لها ولا عواطف. اتفق كبار رجال العائلة ـ لتلافي ألسنة السوء ـ على ان يتزوج جمعة بزوجة أخيه الذي بدوره لم يكن يتوقع مثل هذا الامر ولم يكن قد فاق من صدمة موت أخيه. فما ان علم بالقرار ولأول وهلة تمنى لو كان هو الميت بدلاً عن اخيه، لكي لا يصتدم بمثل هذا الموقف. فقد كان يقف على قدميه وها هو يقف على رأسه الآن. تمنى لو تنشق الارض وتبتلعه.... لكن ما فائدة التمني، فهو لا يشبع الجائع ولا يحقق الامال، وكلمة ياليت بعمرها ما عمرت البيت. رفض في البداية، لكن السهام انهالت عليه من مختلف النواحي قالوا له: هذه عادات الأباء والأجداد وإن لم تقبل سنصبح علكة في فم الذي يسوى والذي لا يسوى. خلق أعذاراً شتى؛ تحجج بالدارسة والمستقبل وبشخصه غير الجاهزة للزواج وخاصة إذا كانت الزوجة إبنة عمه الثكلى. كل الحجج ذهبت أدراج الرياح وأغلقت عليه جميع الابواب. وجد نفسه عريساً بلا عرس. ضمن الغرفة المعدة له. جلست العروس على السرير تنظر إلى الارض. كلاهما ضحية للقدر. ضحية العادات البالية. مع أنهما زوجان شرعيان لا يحسان بذلك. واذا ما أظهر أحدهما رغبة تدل على أنه ينظر لنفسه كزوج

للآخر سيظهر كخائن لذكرى الأخ، الذي مات وتركهم يحترقون بميراثه. لحظات رهيبة ترفض المضي. وجمعة واقف على رجل واحدة يستند على أحد الكراسي يتأمل الغرفة ظاهراً. مع أن فكره مشغول بما آل إليه حاله... وأخيراً ومن دون أن يقصد وقعت عيناه على المرأة التي تجلس على السرير. التي رفعت رأسها لتنظر إليه ـ بعد طول انتظار ـ بلا كلام وبالنظرات فقط طلبت منه أن ينهي هذا الموقف فلا يمكن الإنتظار إلى الابد. فهمَ ما كان يهرب منه. إنه زوجها وليس أخاً للزوج، وعليه أن ينهي هذا الموقف، لكن كيف..؟ فكر ملياً ورأسه يكاد ينفجر، فأجل الأمر واكتفى بالقول: نامي الآن والصباح رباح. ما أن تلفظ بهذه الكلمة حتى اندست تحت اللحاف بكامل لباسها، وبدأت بالنواح الكئيب والصامت. كانت تضغط على نفسها بشدة لكي لا تصدر أي صوت لكن عجزت عن ذلك. فكان بكائها يجرح قلبه يزيد حزنه حزناً. لم يتحمل، أشفق عليها وعلى نفسه فقام وتمدد بجانبها ومسح دموعها وتوقفت عن البكاء، مع أن القلبان كانا يبكيان.

زواجه منعه عن الدراسة فهو الآن زوج وصاحب عائلة وعليه اعالتها. لم يمنعه فقط عن الدراسة بل عن معظم أحلامه وآماله. أصبح كهلا وهو في ربيع عمره. أجبرته الظروف على تبديل ذهنه الحالم بذهنية ناضجة لا تعترف إلا بالواقع.

- 3 -

محمود كان من بين الغائبين أيضاً. لذا كان أحد مواد النقاش بين الطلبة الذين يخالهم المرء كخلية للنحل لكثرة ما يصدر عنهم من أصوات وضجة، فقد طالت فترة العطلة واشتاق الأصدقاء إلى بعضهم البعض.

توضحت الصورة للجميع مع أن بعض جوانبها ظلت غامضة. ولم يتمكن أحد من رفع الستار عنها. يقال بانه واثناء العطلة بين ليلة وضحاها، جن محمود وفقد عقله بلا مقدمات أو أعراض تدل على المرض أو حتى على الحزن الشديد. كان في القرية بين أهله يقضي فترة الراحة إستعداداً لحصد ما زرعه طوال أحد عشر عام من المواظبة على الدراسة. في اليوم الأول انقطع عن الحديث والطعام. كانت عيناه مفتوحتان بشكل يخيف المحيطين به. يركز نظراته على نقطة محددة. يبتسم ثم يعبس ومن ثم يعود للإبتسام هكذا داوليك. والدته لم تتحمل وبدأت بالبكاء بعد أن فشلت جميع محاولاتها في إخراج أية كلمة من فمه. جميع الذين حضروا لرؤيته أكدوا على ضرورة أخذه إلى الطبيب في المدينة لان حالته لا تبشر بالحسن. أخذوه إلى الناحية وعرضوه على طبيب مخضر لم يفهم منه أي شيء. لكنه كان ذو وجدان حي فلم يعطيهم أي دواء ولم يطلب منهم العودة للمعاينة. بل طلب منهم أخذه إلى العاصمة لعرضه على طبيب إخصائي في الامراض النفسية. بدأت رحلتهم في عرض الابن على الأطباء التي لم تعد إلا بخيبة الأمل. بعد أن هدروا مبالغ طائلة ونالهم التعب والأسى. عندها عرض عليهم البعض بأن يأخذوه إلى أحد أولياء الله الصالحين. وبسبب إعتقادهم بمثل هذه الخرافات فقد زاروا أحد هؤلاء ممن يدعون العلم لكن لا عمل لهم سوى الخداع والشعوذة. لذا كان حصادهم اسوء من حصاد العيادات مع فارق في التحليل، فالمشعوذ ادعى بأن الجبن قد إحتلوا جسد محمود ويجب اخراجهم بالضرب، ولم يقصر في إستخدام العصا والسكين الحامية. أما الاطباء فقد أكدوا بأن اموراً ومشاكل عويصة قد تراكمت مع الأيام في دماغه من دون أن يشارك فيها أحد وعجز لوحده عن حلها إلى أن أوصلته إلى

هذا الموصل. لكنهم عبروا عن أمالهم في الشفاء بمرور الوقت.

لم يكن مستقراً على وضع معين. غالباً ما يلتزم بالصمت وفي بعض الأحيان يتحدث لوحده من دون ان يفهم منه أي شيء. يتحدث عن أشياء عديدة لا رابط بينها.....الخ.

طرحت آراء عديدة. لكن لم يتمكن أحد من تحديد السبب الحقيقي في وصوله إلى هذه الحالة. البعض قالوا السبب يكمن في حيرته بين الكفر والإيمان وحجتهم في ذلك تركه للصلاة بعد أن ذهب للدراسة في المدينة وهذا خلق في نفسه صراع مرير لم يحسمه أي طرف فوصل إلى الجنون. والمتسببين هم الكفرة والملحدين والمتفلسفين. كان أصحاب هذا الرأي من رجال الدين في القرية ومحيطها، وقد عبروا عن ضرورة محاربة الفلسفة والإلحاد فهي السبب في جنون الشباب.

معظم الشباب من الغارقين في الجري وراء النساء حتى رقابهم إدعوا بأن السبب المحتمل الوحيد يكمن في حبه لإحدى الجميلات التي رفضته مما أدى إلى إصابته بالجنون. ولا يمكن أن يجن الإنسان إن لم يكن العشق وراءه. أما المنشغلين بالسياسة والامور الوطنية فقد أحدثوا ضجة كبيرة ووضحوا جميع الآراء السابقة. أثبتوا ببراهينهم المطلقة بان السبب وراء ما حدث للطالب الوطني محمود هو الممارسات العنصرية المطبقة بحق الشعب من مكتومي القيد ومعدومي الهوية بشكل خاص. فمحمود يعرف تماماً بأن نجاحه في الدراسة لا يفيده في مستقبله لأنه غير مواطن (مكتوم القيد) ولا يحق له التوظيف ولا التملك لذا، يجب محاربة السياسة العنصرية التي تحول حياة جزء مهم من الشعب إلى عذاب أليم.

- 4-

كان شاهين الاصغر بين الاخوة الاربعة. نشأ ضمن محيط العائلة المتأثرة بالمعتقدات الدينية وبجانبها المتزمت بشكل خاص الذي يتحكم بعقل وقلب الإنسان. لذا بقي منغلقاً ومنكمشاً على ذاته يلاقي الصعوبة في التعامل مع المحيط. لكن من الناحية المادية لم يلاقي أية صعوبات مقارنة ببعض أقرانه، فوالده يعمل بشكل مستمر ولم يفقد نشاطه حتى بعد ان كبر أولاد، بل يزداد عملاً لانه يعرف معنى الجوع والحرمان ولا يريد لأبناءه أن يلاقوا أية صعوبة في مستقبلهم. وقد أمّن بجهده وذكائه مستوى يحسده عليه الكسالى وقليلي الخبرة من الراغبين في الكسب السريع.

كانت العائلة غنية مادياً، لكنها فقيرة في إعداده للولوج إلى اروقة المجتمع وطرقه الوعرة والمتعرجة، لذا بقي أعزلاً بلا سلاح ومقاومة تجاه ما قد يعترض طريقه من مشاكل وهجمات ضمن المدرسة. كان معروفاً كشاب مهذب وخلوق. مهتم بدروسه، مع أنه متوسط في إجتهاده، كان مكروهاً من قبل خالد الملحد. حدثت بينهما حوارات ساخنة تبادلا فيها الإتهامات والكلمات البذيئة. فاسلوب خالد الجامد الدوغمائي والمحرض غير المحترم لمعتقدات الناس كان أحد الاسباب في إبتعاد الشباب عنه وحتى التشهير به، سراً كان أوعلناً، كان قريباً من دلخواز المنحدر من محيط مشابه لمحيطه وقد بات علاقتهما بعد أن التقيا في الجامع أثناء صلاة الجمعة. عندها استغرب شاهين لوجود دلخواز، فقد كان يظنه ملحداً مثل الجماعة التي يتواجد معها بشكل دائم. لكن بعد أول حوار دار بينهما ظهر له العكس. فدلخواز مواظب على واجباته الدينية، مثل جميع أفراد عائلته ويملك ثقافة دينية غنية. إلا أنه يحتفظ بها لنفسه ولا يشرك فيها أحد.

في حوارتهما كان دلخواز ممثلاً للاجتهاد، يحلل ما يعرفه وما يقال له. لا يقبله مع انه لا يستطيع اثبات العكس. أما شاهين فقد كان الطرف المحافظ يردد ما يحفظه من دون إستخدام عقله أو النظر إلى الواقع ومدى ملائمة تلك القوانين للعصر الذي يعيش فيه. كانا يتحدثان عن نفس المواضيع وكل منهم ينظر اليها بعدساته. دلخواز المتأثر بالأصدقاء (كريم - لقمان....الخ) يصر على وجوب إحداث إصلاحات جدية في الدين على أن يبقى الإيمان أمراً متعلقاً بالفرد وأن لا يصبح أداة بيد الحكام والمتسلطين على رقاب الشعب. يؤكد بأن زمن الصحابة قد ولى بلا رجعة، ومن الغباء البحث عن المهدي والمنقذ لأنه على الجميع أن يتحولوا إلى مخلصين لانفسهم، وهو يستشهد بما حققته الدول المتقدمة بعد أن تخلصت من رجعية الدين. شاهين كان يثور ما أن يسمع هذه الكلمات ويوصمها بالكفر والزندقة ويتهرب من الحوار. لانه ومع تطور الحوار كانت الاصنام المتواجدة في ذهنه تتحطم لكنه يستمر في عناده ويرفض الإعتراف بأن الإصرار على إرتداء الجبة و العمامة موضوع يستحق السخرية، ولم يستطع تقبل الحقيقة الوطنية الا بصعوبة جمة، لانه يعتقد بوجود امة واحدة يجمعها الإيمان الديني، ولكن الواقع كان يصدمه بشكل يومي ويؤكد له هويته. وكان الضغط الرهيب الذي يحارب على ذاته بإسم الاخلاق، يكدر حياته، فهو في كل مرة يدخل فيها الحمام ويتعرى تماماً يخجل من نفسه يحس بأنه مجرم ومذنب بحق الله والدين. الجسد له متطلباته يفرضها بلا وازع أو خجل. مع كل مرة يمارس فيها عادته السرية يحس بأن نار جهنم تعد له خصيصاً. يؤنب نفسه، يلعنها ويحتقرها، ويعاهد مع نفسه بأن لا يعيد الكرة. يحلف بأغلظ اشكال الإيمان، لكنه يعود وينقاد وراء الشهوة التي لا تقاوم. هكذا يتحول إلى عدو

لنفسه ليتحول إلى شخصان بجسد واحد. فالعقل المكتسب يقف كشرطي وبيده الهراوة يمنع عليه محاكاة طبيعته يتحكم به كدكتاتور ظالم، ومع انصياعه لهذا العقل إلا أن الرغبات تعبر عن ذاتها بألف شكل وشكل وعندما يزيد من تحكمه تتوارى الرغبات لتظهر في الحلم، لكنه يجدها جرما، وتتعقد حياته فهو يظن بأنه مُرَاقب من المحيطين به وبأن الجميع مطلع على ما يمارسه سراً أو في الحلم. لذا تراه مطأطأ الرأس يخجل من مواجهة الناس والحوار معهم.

الخوف، فقط الخوف هو إلهه وقانونه وموجهه. يوم الحساب، الذي يتفنن خطيب الجامع في وصفه، والنار التي لن يخرج منها أبد الدهر والصراط المستقيم الذي لن يختاره إلى جانب الزبانية التي ستشرف على تعذيبه. كل هذه المعتقدات حولت حياته إلى جهنم قبل حلول الساعة.

عندما تعرف على دلخواز كانت معاناته في أوجها ـ وقد إرتاح لهذه العلاقة ـ فدلخواز يتحدث عن معتقدات اخرى مع أنه يعاني من نفس الموضوع في داخله، ويهجم على الجانب المستبد من الدين ويعرض جميع المسلمات (البديهيات) على طاولة البحث. حتى موضوع الجنس والعلاقات مع المرأة. يطرحه متبنياً افكاراً خطيرة ويدافع عن حق الشباب في عقد العلاقات ضمن حدود الاخلاق. لأن عكس ذلك يؤدي إلى خلق شاب مريض وبالتالي مجتمع عفن مكبوت، وعن طريقه أيضاً حصل على أنواع مختلفة من الكتب، التي أثرت عليه خاصة التحليل النفسي. فتحول إلى إنسان آخر بعد ان كان إنساناً مطيعاً اصبح عاصياً يرفض كل القوانين والمقدسات يستخدم ألفاظاً مشينة ويتهم أهله بالرجعية والسلفية. لم يقف عند هذا الحد بل أنكر التربية والاخلاق وأصبحت في قاموسه مجرد قيود، وعلى الإنسان أن يعيش بحسب رغبات جسده. لم

تنفع محاولات العائلة ولا محاولات دلخواز في الحد من شدة الزلزال الذي حطم شخصيته ـ أحس دلخواز بخطاه لكن سبق السيف العذل ـ فشاهين كان بركاناً يبحث عن فوهة ليخرج منها حممه وبدون قصد تحول دلخواز إلى هذه الفوهة.

بعد ذهاب لقمان وإنشغال دلخواز بنفسه فقط، إنقطعت علاقته مع شاهين ومع أول يوم للدارسة افتقده وسأل عنه بعض الأصدقاء وتعرف على نهاية الفاجعة. فهو بعد أن قطع جميع حباله وروابطه بالدين والعرف، تحول إلى طائش (سرسري). وقع بحب فتاة تكبره بعدة سنين. فخلال شهور العطلة الصيفية كانت الغريزة هي التي تقوده بعد أن كره الفكر والوجدان. كان يقف لساعات أمام المحل الذي تعمل فيه فاتنته. يتمعن فيها من خلال الزجاج بعد نهاية عملها يلاحقها حتى البيت. في البداية كان يكتفي ببعض الالفاظ لكي يجذب إهتمامها. لكن الفتاة استمرت في تجاهله على أساس أنه أحد المراهقين لا يلبث أن يتركها لشأنها. لكن عندما وجدت إصراره الوقح أرادات وضع حد له بأن توقفت في الشارع وبدأت بمسائلته بغضب: لما تلاحقني أيه الصغير، ألا يوجد لك أهل يربونك حتى تجري وراء نساء الناس.

ـ إنني هائم بكِ وبجمالكِ فلا تحرميني من متعة القرب منكِ، ولا تغضبي، فنيتي شريفة.

ـ لازلت صغيراً على الزواج، فاهتم بمستقبلك وعملك وهنالك فتيات كثر من عمرك و هن أنسب لك.

ـ أرجوكِ لا تقولي هذا. حبي لك هو حياتي بالكامل وإبتعادي عنكِ يعني الموت بالنسبة لي. احتارت الفتاة ورغبت بالتخلص من إزعاجاته قالت: إذا ما كنت جاداً فابعث أهلك، فللبيوت أبواب ومن المعيب أن تلاحقني في الشوارع ـ قالت

هذا مع أنها مخطوبة لإبن عمها، لكن ولأنها ظنت بأن أهله لن ينقادوا له ويزوجوه في عمره الصغير ومن فتاة تكبره سناً.

طار فرحاً وسيطرت عليه نشوة النصر بعد أن رضيت به فتاته. عاد إلى البيت وبشكل لا يقبل الأخذ والرد، طلب من الوالدة إقناع والده بالذهاب لطلب يد تلك الفتاة. لم تأخذ كلامه مأخذ الجد وقالت: بالطبع سوف تنهي دراستك وتنهي الخدمة العسكرية وعندها سنقيم لك عرساً لم تشهده المدينة من قبل.

ـ هل تظنيني أحمقاً، أقول لكِ بأنني فاتحت فتاتي وقَبِلتْ بأن تذهبوا لطلب يدها بعد أن عانيت الامرين لإقناعها. وعليكم الإسراع ، قبل أن يسبقنا أحد.

صعقت الام من حديثه وعجزت عن الإستمرار في محاورته. فهو خلال الفترة الأخيرة تحول من حال إلى حال. إنه كالصخرة التي تدحرجت من مكان مرتفع لا أحد يقدر أين ومتى ستستقر. وها هو الآن يفاجئها بأمر لا على البال ولا على الخاطر، إنه يطلب الزواج قبل اخوته الثلاثة الأكبر منه، فماذا سيقول الناس وكيف سيتصرف الوالد والاخوة، فكرت ملياً وهي تنظر إلى إبنها. عرفت بأنه جاد ويقصد ما يقول، فقالت، إبني العزيز هيا حدثني عن الفتاة التي سحرتكَ. من هي ومن هم أهلها..؟ وهل سيرضى ذووها بتزويج إبنتهم لشاب لا يزال طالباً ولا عمل له ولا رأسمال..؟

ـ سوف أترك الدراسة ولن الاقي الصعوبة في تأمين العمل. وماعليكم إلا طلب يدها، وإن لم تفعلوا سوف أفعل ذلك بنفسي.

اختلطت عليها الامور، وقالت: ليكن ما تريد فقط أعطني عنوانها واترك الباقي علي. لم تقل ذلك إلا لتهدأ من روعه فلا يمكن أن تقبل طلبه، حتى لو رضيت هي لا يمكن أن يرضى

باقي أفراد العائلة، لم يقبل الوالد ولا الاخوة ووبخوه بشدة. فكان رد فعله عنيفاً، كالثور ينطح الجدران بيده ورأسه يصرخ ويردد كل الكلمات الوسخة لنفسه ولحظه ويخرج إلى حيث لا تدري العائلة.

ظن الأهل بأن حالته مؤقتة ولن تلبث أن تزول. انه مراهق ولن يستمر به المقام عند فتاة واحدة، بل سيستمر في البحث ليعود إلى رشده في آخر المطاف. إلا أن ظنهم خاب وحالته كانت تسوء يوماً بعد الآخر. وإصراره تجاوز عناد الحمير لا ينفع معه نصح ولا إرشاد. كل الكلمات وجميع المتكلمين مجرد تفاهات بالنسبة له.

عندما تأكدت العائلة بأن شاهين قد وصل إلى حد سينهي فيه حياته. بدؤوا بالتفكير الجدي لمساعدته، لكن من دون أن يقبلوا بموضوع الزواج. اتفقوا فيما بينهم على زيارة عائلة تلك الفتاة والإتفاق معهم بأن يتقدموا لطلب يد ابنتهم وعائلة الفتاة بدورها ترفض بحجج مقنعة تساهم في إصلاح وضع شاهين. إلا أن رفض والد الفتاة لطلبهم ـ بحضور شاهين ـ لم يساهم في حل المسألة، بل زادها تعقيداً، وبدأ شاهين يقطع الطريق على الفتاة. يزعجها بشكل يومي. يصر عليها بأن تهرب معه، واستمرت حالته هذه إلى أن طفح الكيل وأخبرته راجية أن يتركها لأنها مخطوبة، وأيضا حدثته بأن موضوع طلب يدها لم يكن إلا سيناريو من تدبير أهله لكي يقتنع ويتركها ويترك الزواج ويعود إلى دراسته ومستقبله. محاولة شاهين في إقناعها فشلت وكذلك تهديده إياها بقتلها أو قتل نفسه لم يجلب أية نتيجة.

إعتراف الفتاة بمخطط العائلة كان آخر نقطة في حكاية شاهين، ومنذ ذلك اليوم اختفى عن الأنظار لا أحد يعلم عنه

أي شيء. بحثوا عنه في المستشفيات وأقسام البوليس ونشروا صورته في الجريدة....الخ. أين ذهب..؟ لا أحد يعلم. قيل بأنه ربط حجراً برجله ورمى نفسه في النهر (الخابور) ليكون طعاماً للاسماك، البعض يقول بأنه فر هارباً إلى بلاد بعيدة...الخ كل ذلك مجرد أقوال لا تزيد إلا دموع والدته وحزن ذويه.

- 5-

جاء من القرية للدارسة. سكن عند أخيه المتزوج والذي يملك بيتاً في المدينة. الابنة الكبرى لأخيه كانت في الثالثة عشر من عمرها، تدرس في الصف الأول الاعدادي، وطالما ساعدها في دروسها وأيضا في إيصالها إلى مدرستها. كان ينظر إليها كإبنة أخ وهي تعامله كعم لها. هكذا استمرت صلاتهما خلال السنتين الماضيتين التي قضاهما ريزان في منزل أخيه خلال موسم الدراسة. لكن في بداية السنة الاخيرة للدارسة الثانوية وبعد غياب أربعة أشهر في القرية عاد إلى المدينة ليجد شيرين الطفلة سابقاً قد أصبحت فتاة كاملة. بهية كالقمر، زاد طولها بشكل ملحوظ، ثدياها نضجا لدرجة يكادان يمزقان قميصها ليخرجا منه. ازداد خجلها ورغبتها في البقاء لوحدها. ما أن وقع نظره عليها اندهش وأحس بإنجذاب رهيب نحوها. عشقها بلا إرادة أو رغبة. حرمانه الجنسي الرهيب كان يدفعه ويوجهه، خلال أيام عديدة أنب نفسه ولعنها، فكيف يسمح لذاته حتى بمجرد التفكير بالارتباط بإبنة أخيه.

استمرت حربه الداخلية. كان يحترق، يوشك على الاختناق، ولكي يهدأ من روعه وتفكيره بها، كان يقضي معظم وقته خارج البيت، فقط في الليل يعود ويدخل غرفته

مباشرة يغلقها على نفسه. لكن ومع كل الضغوطات التي يمارسها على نفسه، يظل عقله الملعون كالناقوس يدق ويذكره بجمال شيرين وشفتاها،....الخ. كلما نجح في طرد هذه الافكار من الباب تهجم عليه من الشباك. استمرت حالته هذه من دون أن ينجح في التخلص من تلك الرغبة. إلى أن حل ذلك اليوم المنحوس. حيث طلب منه أخوه البقاء في البيت مع شيرين لأنه سيأخذ زوجته ولن يعودا إلا في المساء. عاد من المدرسة وجد أن الاخ قد ذهب إلى المشوار الذي تحدث عنه البارحة. وجد شيرين لوحدها، لأول مرة منذ ثلاثة أشهر يفقد سيطرته على نفسه وتتحكم به الغريزة بشكل تام، تقدم منها تقوده الشهوة، الفتاة لم تدرك جلية الامر إلا بعد فوات الأوان، فهو عمها ويكبرها بعدة سنوات طالما مازحها. لكن هذه المرة هو مختلف تماماً. إحتضنها وبدأ يُقبلها من شفتيها و.....الخ. كانت الفتاة أعجز من أن تبدي أي مقاومة لم يدع لها حتى الفرصة لفهم ما يجري. وما أن أدركت في النهاية كان من المستحيل العودة إلى الوراء. كانت الشهوة قد تحكمت بها أيضا وبين الرغبة والرفض احترقت بنار عمها الذي يصدق عليه المثل (حاميها حراميها). بعد الحادثة ترك ريزان الدراسة خجلاً وخوفاً، وتطوع في الجيش ولم يعد إلى المدينة. انقذ نفسه وترك إبنة أخيه في بحر الدموع تنتظر مصيرها الغامض.

-6-

من يطارد عنزتين يفشل في القبض على كليهما، ودلخواز يطارد امور شتى ولا يصل إلى أي منها. انه ككلب الصيد يأخذه صاحبه إلى البرية جبراً فلا يصتاد شيئاً. عائلته تطالبه

بالحصول على الشهادة وهو كاره لا رغبة له فيها تفشل محاولاته للاستقرار. ينضم إلى امور عديدة. يدرس ولكنه يفشل في الحصول على الشهادة. يتعامل مع الجماعات السياسية ويبقى في الظل. يمارس الفرائض الدينية وقلبه مليء بالشكوك. حالة القشعريرة التي كانت تسيطر عليه وهو في الجامع يستمع لخطبة الجمعة، انتهت بلا عودة لتتحول أحاديثهم إلى طنين مزعج. يريد الخلاص منه لكن إلى أين، فلا شيء يهمه، يحس بالحرمان. الفراغ يجعل حياته بلا معنى. رغبته في النوم تزداد، فقط في الحلم يحصل على العديد من رغباته المكبوتة. هذه الرغبات تتراكم لتتحول إلى ما يشبه المرض. لا يخرج من المنزل وضمن المنزل يعتكف في غرفته المليئة بالكتب المختلفة ينكب عليها من دون ان يحس بالارهاق. يبحث عن نفسه وما تريده منه نفسه، لكن ومع تحوله إلى بنك للمعلومات لم يجد ما يروي عطشه. طالما شاهدته الوالدة ـ عند دخولها للغرفة ـ نائماً وقد سقط الكتاب فوق وجهه أو على صدره. عندها لا تتحكم بدموعها التي تسال ألماً وحزناً على أحب أبناءها إلى قلبها الذي خيب آمالها ليس هذا فحسب، فها هي توشك على فقدانه تماماً. وان لم ينتهِ بالمرض والاحزان، سوف يعمي عيناه بالقراءة التي لا يتوقف عنها. كانت تنتهز بعض حالات الهدوء القليلة لتقول له: أيام وشهور وأنت لا عمل لك سوى هذه الكتب ألم تجد فيها مرادك..؟

ـ ما أبحث عنه غير موجود في الكتب.

ـ إذا لماذا لا تتركها إلى عمل آخر يُفيدك، انك كمن يدفن نفسه بالحياة. يا ولدي الدنيا لا تفتح أحضانها إلا لمن يتقدم اليها بفرح وتفاؤل، أما أنت فتركتها وراءك بلا مبالاة، إضحك للحياة يا ولدي لتضحك لك.

ـ لكل شيء أوانه. لا تتالمي بسببي. إنني ممنون من حالتي، وعندما أشعر بقدرتي على البدء بالحياة مثل باقي الناس ـ وحتى افضل منهم ـ عندها لن أتردد. لكن بوضعي الحالي، أنا سفينة بلا شراع ولا مجاديف ولا تجوز المجازفة.

بين الفترة والاخرى يتقدم أحد أفراد العائلة ـ ممن يظن نفسه قادراً على تقديم النصح ـ ويغامر بالحوار مع دلخواز لانقاذه مما يسميه البعض بالمرض والبعض بالجنون الصامت....الخ. لكن جميع تلك المحاولات ترتد إلى أصحابها بلا نتيجة. فقط الرفاق هم الوحيدين الذين يرتاح لهم ويفرح بزياراتهم ـ بعكس العائلة التي تنزعج لقدومهم، خوفاً من ذهابه إلى الجبل، يستمع اليهم بقلبه، فهم رفاق للقمان، من دون أن يهتم كثيراً بدرجة صحة النظريات التي يطرحونها سواء الفكرية أو العسكرية أو السياسية. أحياناً عندما يسمح لهم وقتهم بالبقاء مدة اطول يتحول النقاش إلى مجالات اخرى (ثقافية، حياتية) أو حول دلخواز الذي أصبح بنك للمعلومات لم يعلن إفتتاحه للتعامل بعد، ولا يزال في فترة التحضيرات التي طالت كثيراً.

ـ أحد الرفاق: إن عزلتك قد طالت ولا بد من تجاوزها. أمنّ بان ظروفك غير ملائمة لقطع صلاتك بالواقع واللحاق بالثورة. لكن هذا لا يعني أن تسجن نفسك وتغلق على نفسك ألف باب ومن ثم ترمي مفاتيحها في المحيط.

ـ إن الإيمان هو ما أبحث عنه وهو ما اعاني من نقصه. وعندما اؤمن بسبيل معين يلائم شخصي لن أتردد في الولوج اليه ولن التفت إلى الظروف والموانع. فجميع رغباتي ومحاولاتي السابقة في خوض أشكال معينة من الحياة ـ بما فيها رغبة اللحاق بالحرب ـ لم تتجاوز الفضول والسير وراء

من أحب. وكان غرقي واحتراقي في إحدى تلك المحاولات ممكناً لولا الظروف ولم يكن لذكائي وشطارتي أي دور في ذلك. وبسبب نفس الظروف العائلية والشخصية وجدت نفسي مجبراً على تكوين ذاتي. فأنا كائن ناقص ومجرد ظل للمحيط.

ـ رغبتكَ جيدة جداً، وهي مماثلة لما نقوم به ضمن الثورة، فلكل منا نواقص وجوانب ضعيفة نقوم بالتعرف عليها ومن ثم نخوض صراعاً مريراً ضدها، وذلك ضمن الممارسة والحياة النضالية. اما أنتْ فتقطع صِلاتك بالمحيط وهذا سيحولك إلى إنسان نظري بعيد عن التجربة الحياتية.

ـ كلامك صحيح بالنسبة لأمثالك ممن يؤمنون بقضية معينة ولهم برنامج محدد، أما أنا فأبحث عن قضية اؤمن بها. فالإيمان سابق للعمل مع أنه نتيجة للممارسة والتجارب. قد يكون عمري قصيراً لكن ما حل بي في السنوات الماضية يكفي لإستخلاص أكبر الدروس والعبر، ولم أكتفي بنتائج تجاربي ووجدتها ناقصة بسبب ما اعانيه من نقص في مواضيع من قبل (الاستقلالية الفردية، التبعية للاخر الاقوى، وأيضا الثقة بما يقال وإبتعادي عن الشك).

أجبرت نفسي على إعادة النظر في أرائي وقناعاتي وعواطفي وفي كل شيء. درست مختلف الكتب (الدينية والفلسفات الكبرى وتاريخ العلم) وعن كل علم أصبح لدي تراكم معلوماتي جيد، وقرأت تاريخ الثورات المعاصرة وتاريخ شعبنا المعاني. ومن أكثر المجالات التي تعمقت فيها كان التحليل النفسي الذي عن طريقه فهمت معاناة الإنسان المولود ضمن محيط جاهل، من أبوين ينجبان الاطفال لا لتأهيلهم من أجل حياة كريمة، بل لانها عادة من العادات ولتأمين حياتهم القادمة عندما يصلون إلى مرحلة الشيخوخة ـ

أما القرآن الذي طالما ترددت عليه أشهر كامل لم أفعل أي شيء ولم أقرأ أي كتاب، فقط كنت أتعمق فيه وجدته، علماً ومعرفة كبيرة لكن لمرحلة سابقة.

- وإلى متى ستستمر بالدراسة والتفكير..؟

ـ بعد أن تأوه بصوت نابع من القلب، تحديد الزمان مرهون بوصولي إلى القناعة والإيمان بقدرتي على المنح والتجديد، عند ذلك لن أتوانى لحظة عن البدء. من الصفر وإلى الامام. وليس كمسيرتي السابقة التي لم تكن إلا مراوحة في المكان.

- مودعاً ...أرجو أن لا يطول بك الوقت على هذه الحالة غير المحببة من المحيطين بك والمحبين لك. فعجلة الزمن تدور بلا توقف، وكل لحظة تمر قد تندم عليها. عندها ستبدأ بالتمني الذي لا يزيد ولا ينقص.

- 7 -

بينما يتخبط دلخواز خبط عشوائي بين ما هو عليه وما يراد له وما يريده لنفسه. يبحث في متاهات الوجود عن سراج يضيء له دربه يرشده إلى تحقيق نواياه الحسنة. كان كريم ينطلق لأهدافه بمعرفة وتأني، من دون أن يسمح للظروف بالتأثير عليه، فحتى المنحة التي كان والداه يسعى للحصول عليها رفضها وأصرّ في الإعتماد على جهوده وإمكاناته. فهو واثق من النجاح وبتفوق لدخول كلية الفنون الجميلة وإنهاء آخر جولاته التحضيرية. وبعدها سيحول الوجود بأكمله إلى ألوان ويعطي لكل ذي حق حقه بلا مواربة ولا تردد. جميع الأقنعة والستائر سيمزقها. فلا مساومة في الفن. كل لوحة ستكون موقفاً، وطرح قضية ستكون نقطة البداية لخلق مشكلة وبدء للصراع... كانت أحلامه أكبر من أن تتسع لها الدنيا ـ

الدنيا عنده خلق لوحة ومزج الالوان، من دافنشي إلى بيكاسو ومن ماني إلى ناجي العلي (حنظلة). الجميع يصبحون ضيوفه في الخيال، يحاورهم ويستمد منهم إلهامه، ويدرك بحسه وفكره المنفتح صعوبة العمل الذي رهن له نفسه، إلا أن روحه ومعنوياته في إرتفاع دائم.

بعد نجاح كريم في الحصول على الشهادة الثانوية، كانت علاماته تسمح له باختيار الكلية التي يرغب بها، لذا كان الصيف السابق لدوامه في الجامعة من أجمل فصول الصيف التي قضاها في عمره، لكن وحتى في ذروة سعادته لم ينسَ صديقه دلخواز، الذي رسب ولم يحصل على الشهادة، وزاره في البيت، يجده معتكفاً في غرفته وملامحه تظهر النحول وكثرة التفكير والتأمل والحزن. مع رؤيته لكريم ظهرت عليه بوادر الفرح والسرور واستقبله بحفاوة بالغة، قام إلى امه يطلب منها تحضير القهوة وكذلك طعاماً خاصاً للغذاء.

تفقد الغرفة، وجدها قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في السابق، من الإنارة وحتى المفروشات، لم يبق علامة أي شيء، سوى حصيرة نايلون وعليها سجادة تكفي لجلوس شخص وأحد. لذا وما ان حضر كريم قامت الام بفرش الغرفة بكاملها.

ـ حزنت كثيراً عندما لم أجد اسمك ضمن لائحة الناجحين. أعدت قراءتها ثلاث مرات لكن وللاسف لم أجده، لكن ذلك كان متوقعاً وهو نتيجة طبيعة لِمَا انت فيه. أنتِ لاترحم نفسك ولا محبيك.

ـ لا أرغب بالحديث عن الدراسة. إنهم يريدونني ناجحاً لكي احقق أحلامهم. لكن من سيحقق رغباتي..؟ فهل عليّ الانتظار إلى أن أنجب ولداً لأفرض عليه ما يفرضه عليّ

أهلي الآن. تعرف تفوقي على أقراني وكذلك حبي للدراسة كان فريداً من نوعه. لكن أنانيتهم وفرضهم المتزمت لرغباتهم، جعلني أسئم من الدراسة وكُره في نظري، وها أنا قد تركت كل شيء حتى صحتي لا ابالي بها أبداً.

ـ تقربات أهلك لا تختلف في جوهرها عن تقربات معظم الأباء والامهات، وخاصة غير المتعلمين، وهذا لا يعني بأن ترد على الخطأ بخطأ أفظع منه. فَهمْ يخطؤون بجهلهم، إلا أن خطئك ناجم عن ضعفك وعدم اتخاذك المواقف السليمة، فمن أنت وما هو شكل الحياة التي تريد أن تحياها..؟ لم أكن مقتنعا عندما اخترت الحياة الثورية، فأنت اتخذت من موقف العائلة ومرض الام ذريعة للارتداء عن موقف وقرار لم تكن مستعداً له أصلاً. قرارك آنذاك كان مجرد رد فعل عاطفي على غياب صديق طفولتك أي بصراحة تامة ـ عندما قررت اللحاق بلقمان كنت تبحث عن السند والعون الذي فقدته، وهذا معاكس تماماً لموقف لقمان ـ وهذا لا يعني بأن لقمان لم يكن عاطفياً عندما قرر الانقطاع والابتعاد عن عائلته ودراسته والانضمام الى صفوف الكريلا لخوض حرب. لكن وبما أنه تأكد من أن تحقيق اهدافه ممكن فقط بالحرب، تراه قد اتخذ القرار الصائب والموافق مع طبيعة أهدافه وأحلامه. فهو يرفض الواقع والحالة المزرية للشعب ويملك روحاً إنتقامياً في مواجهة محتلي الوطن، وكان ينفر من الحياة العادية مثل جميع الناس. أما أنت فبعيد عن هذه الخواص جميعها، فلا تحمل أهلك الجرم بالكامل ولك أيضا نصيب في ما تشكو منه، فاترك الحجج وإبدأ من جديد.

ـ ظننتك قادماً لمواساتي ولتقديم العون لي. لكن أراك تصب الملح على جراحي تزيد من آلامي.

ـ لا أكون صديقك إنْ لم اصارحك بالحقيقة التي أراها كقرص الشمس في النهار. كيف تفهم المواساة..؟ هل أنت طفل لامسح شعرك بيدي، أم تريدني أن أمسك بيدك لتصبح ظلاً لي، كما فعل لقمان بلا قصد. لقمان وعلى الدوام كان يسعى إلى تقوية شخصيتك، لكنك وبإصرارا إرتحت لحالة الظل، وجدتها هينة ولا تتطلب المشاق ومواجهة الذات، إلى ان اصطدمت بحقيقتك. بصراحة القول؛ إن لم تفهم هذه الصدمة بكافة جوانبها، قد تؤدي بك نهائياً. إن الازمات والصعاب هي محك الرجال وماعليك سوى أن تنتصر على ذاتك. لن اقول لك إدرس أو إذهب إلى الجبال أو.... فقط أقول لك؛ تعامل مع نفسك بصراحة، وإن وجدتها راغبة في البقاء معتكفة فليكن، أما إذا كانت تحب الحياة وترغب في التعامل مع الناس والمحيط، عندها عليك بالجرأة والبدء وعدم الاستسلام والرضوخ للعادات التي تحكمتْ بكَ منذ الصغر

ـ العائلة تصر على إتمام الدراسة وتجد في رسوبي إهانة بل وصمة عار أصابتهم، ولا يمكن أن تزال إلا بحصولي على الشهادة وبدرجات متفوقة.

ـ للعائلة ظروفها ورغباتها، لكنك الآن رجل قادر على الإعتماد على نفسك، وهذه هي حياتك وأنت فقط صاحب القرار الأخير لتحديد شكلها. فلا تجبن واستمع إلى نداء قلبك وعقلك، وإن كنت قادراً على النجاح وراغبا بذلك فلا تتوانى، فهي طريق جيد، وستسمح لك بحياة أفضل، اما اذا كان العكس هو الصحيح فلا تسمح لهم، لانك ستفشل وسيصعب عليك النهوض حينها.

ـ أنت صديقي الذي أثق به. تثقل كاهلي تحملني أحمالاً فوق حملي الذي يكاد يقصم ظهري. فماذا بيدي أنا الذي نشأت بالاعتماد على الغير إلى يومي هذا.

ـ نحن كأفراد أضعف من أن نتحمل أعباء الحياة، لذا تجدنا نبحث عن هوية نستند إليها ونحتمي بها. فها هو لقمان قد أسند ظهره إلى الجبل ومن دون الجبال هو أعجز من أن يسحب سيفه من غمده في وجه البرابرة. أما أنا فاختفي وراء لوحاتي، احول ألواني إلى رصاصات وسهام تعلن الحرب من جهة وإلى رايات بيضاء تطالب بالسلام المشرف وإلى كتب لتوعية الجماهير من الجهة الاخرى. لكنك بلا هوية. متى ستُعلن عن ذاتك..؟ إنك كالشبح يسير بين الضباب..!!

ـ سوف احاول، لكنني أحتاج إلى مزيد من الوقت، وإلى القراءة والمطالعة ولن أخيب ظنك والعبرة بالنتيجة.

ـ لا تنظر إلى مظهري الذي يريك ثقة كبيرة وقوة على السير بحرية. فأنا رضعتُ الحزن والالم مثل حليب امي، وأعيش مع الحزن إلى لحظتي هذه. جعلتُ نفسي أسيراً لقضية شعبي وجميع الفقراء وهذا هو الجانب المأساوي في حياتي وبنفس الوقت هو الذي يكسب حياتي قيمة عظيمة، ولولاها لكنت مثل معظم الناس الذين ليسوا إلا ظلال وأشباح، يرضون بأبسط أشكال الحياة وأكثرها إثارة للتقزز.

أنا الآن أستعدُ للذهاب إلى العاصمة لاستئجار غرفة للسكن وهو أمر يتطلب وقتاً. وما أن انتهي سوف أعود ولن أذهب إلى القرية إلا بعد زيارتك.

- 8 -

زيارة كريم ونقاشه الصريح أجبره على رؤية القمم الذي حبس فيه نفسه. وأدراك رؤيته المتشائمة جداً للوجود. وبذا تشجع على إعادة النظر في حساباته. تجاسر على تجاوز الحدود التي فرضها على نفسه وقلل من ساعات بقاءه في الغرفة، وبدأ بجولات ترفيهية إلى السوق المكتظ بالناس، دون أن يبدي الإهتمام بالبشر أو البضائع، ومن هناك تسوقه قدماه إلى ضفة النهر - الذي يحبه - يجلس مطولاً. يتمعن المياه الجارية التي تستمر في الجريان تأخذ معها كل شيء يقع بين براثنها، ألا يُشبه النهر في جريانه، الزمان الذي يأخذ بيد الإنسان ويجره إلى أن ينهيه جثة هامدة تحت التراب، وما دامت النهاية واضحة فما معنى وجع الرأس و إطالة العمر وزركشته بالوان شتى، أليس من الافضل راحة للجسد المنهك والفكر المشتت، ان تقتصر هذه المسافة..؟

تمدد على العشب الغزير بجانب الخابور وأغمض عينيه على أنغام خرير المياه وصرصرة الحشرات ونعيق الضفادع أحس براحة يندر مثيلها ضمن علبة الإسمنت التي طالما أجبر نفسه على المكوث فيها. فكر بعقل البشر الذي يخترع أمور تزيد مساوؤها على فوائدها في بعض الأحيان، فها هي الطبيعة تحتضن الإنسان كما كانت منذ الأزل. تجدد ذاتها تقدم الخيرات بلا مقابل ولا منة، اما الإنسان فيتنكر لفضائلها ولا يكتفي بالانكار بل يمد يده ويقترف الجرائم الواحدة تلو الاخرى بلا وازع أو ضمير.

يستمر إحساسه بالراحة والاطمئنان ولا يصدق بأن الدنيا تبتسم له وتحتضنه. بينما الخيال يأخذه من مكان إلى اخر، شعر بشيء مزعج يلتصق بظهره، بعد أن تمكن من الولوج من ياقته، تكدر من هذا الدخيل وقام جالساً، ليجد مياه النهر تجري بالعكس، لكن الحيوان اللعين لم يسمح له حتى

بالاندهاش لذلك التغير، حاول الإمساك به بيده، ليعاقبه برميه في النهر جزاء على تطفله، لكن محاولاته فشلتْ، فوصل إنزعاجه إلى الذروة، ومن شدة القرف لم يفكر بما قد يكون هذا الحيوان، إنه متمسك بثوبه لا يسبب له أي وجع لكن وجوده هناك بحد ذاته ألم ما بعده ألم. يقلب مزاجه، لينددب حظه النحس الذي لا يسمح له بالراحة ولو لعدة لحظات. فمن أين جاء هذا اللعين..؟ أو لم يجد في ارض الله الواسعة مكاناً يأويه حتى يلتصق بظهري، انا الهارب من الضجة الباحث عن السكون. لم يكن راغب في استمرار هذه المهزلة، فقام يريد خلع قمصيه لكنه عجز عن ذلك لأول مرة في حياته، وهذا ما بعث الخوف في قلبه، فهذا ليس مجرد حيوان تائه أخطأ حجره ولا بخائف طالب للآمان، بل لعنة سلت عليه لتحول حياته إلى مأساة لن تتوقف إلا بالموت هكذا كان يعتقد، بينما روحه تبحث عن منقذ ينهي هذه المهزلة. بلا مقدمات وجد نفسه ضمن غرفة طلابية بسيطة الأثاث وبجانب الطاولة المعدة للدراسة يجلس شاب على كرسي وظهره إلى دلخواز، كان منكب على أحد الكتب، وفجأة نظر الشاب إلى الوراء ليجد دلخواز في حالة هلع وحيرة. لم يكن إلا كريم الذي نهض مُرحباً بصديقه العاجز عن الكلام، والذي يكتفي بالاشارة المُنبهة على إخراج ما التصق بظهره وحوله إلى مخلوق يكاد يجنْ. فَهَمَ كريم وببساطة أمسك الفأر من ذيله وعرضه أمام عينيه فخجل من نفسه، فهو قطع مئات الكيلومترات لكي يستنجد بكريم من أجل فأر حقير، لذا نكس رأسه ولم ينطق بأية كلمة وظل هكذا لفترة طويلة. واستغرب لموقف كريم الذي إبقاه على حاله. فما أن رفع رأسه وفتح عينيه، وجد نفسه في الموضع الذي كان قد تمدد فيه على ضفة النهر.

إذاً فقد كان حلماً، والحلم صورة مشوهة عن الواقع، تعبر عنه بطرق غير مباشرة. احتقر نفسه" ألهذه الدرجة أنا عاجز للدفاع عن النفس وعن السير كباقي الناس" في أعماقه قرر بأن يضع حداً لهذه الشخصية الموبؤة مهما كان الثمن. بمجرد وصوله إلى البيت أعلن لامه بنيته في إعادة السنة الدراسية والنجاح دون أن يعيقه أي شيء مهما عظم. لم تصدق الام اذنيها، فهي قد فقدت أملها تجد ولدها وبشكل مفاجئ يعيد إليها البهجة. أطلقت زغرودة كانت كفيلة بإعلان النبأ على العائلة والجيران.

هل سيستمر في قراره ام سيعود إلى عدم الاستقرار الذي يُعكر حياته..؟

عاد كريم لزيارته بعد عودته من العاصمة، وفرح كثيراً بما وصل إليه من قرار، وبهدف تشجيعه على ما وصل إليه، بدأ بمحاورة كانت بمثابة المرهم الشافي.

ـ ما هو الضمان والمانع لعدم وقوعك ضحية لبعض الأحداث وأنت لا تزال تعاني من اللاستقرار. الحياة صراع وتناقضات لا تنتهي ووضعك الهزاز يجعلك عرضة لجميع الإحتمالات.

ـ اشعر بميحطي من البشر وكأنهم مكلفين بمراقبتي، أخجل من جميع تصرفاتي، حتى أفضلها وأكثرها إحتراماً، لباسي وشكلي، بالرغم من المواصفات التي يحسدني عليها الجميع. الناس تخجل من نواقصها من لباس ممزق أو وجه قبيح أو ساق عرجاء.. الخ. إلا أنني أخجل من جوانبي الإيجابية، أما إذا وجِدتْ النواقص، عندها أموت خجلاً. أجد الناس ـ حتى أحبهم إلى قلبي ـ وكأنهم كما كانوا دائماً ينتظرون الفرصة لكي يعيرونني بنقص اعاني منه، وحتى

أفكاري يسيطر عليه الإعتقاد بأنهم يملكون القدرة على قراءتها، ولذا تراني لاأحب التعامل مع الناس وأبتعد عن الجماعات، وحتى في عز نشاطي بوجود لقمان نادراً ما كنت أنضم بشكل إيجابي إلى الحوارات، فقط في الحوارات الثنائية وبين من أثق بهم، أجد نفسي مرتاحاً ومعدوماً من القيود، لذا قد تؤثر عليّ حوادث أو امور طارئة.

ــ مادامت الحالة هذه، فكيف ستستمر بلا مُعين، انا معارض لفكرة إعتمادك على عكاز في مسيرك، لكن وعلى أساس بداية جديدة ولكي لا تسقط سقطة قاتلة يمكن أن تعتمد على أحد الأصدقاء ممن تثق بهم.

ـ من أين لي هكذا صديق بعد رحيل لقمان وذهابك إلى الجامعة..؟

شرد كريم بفكره لبعض الوقت إلى أن جمع كافة الممكنات في إحتمالين لا ثالث لهما. فإما أن يُسافر دلخواز معه إلى العاصمة ليدرس هناك، أو تقبل اخته زينب بمعاونته بشكل غير مباشر، فهي أيضا ستدرس للحصول على الشهادة الثانوية. بين هذين الإحتمالين طال تفكير كريم، مما أثر سلباً على دلخواز وظن بأنه أثقل على صديقه بأحماله البالية. لعن تفسه للمرة...لكن كريم كان يجري حسابات دقيقة لكي تكون النتائج مضمونة. فأخذ دلخواز إلى العاصمة موضوع صعب، والعائلة بدورها لن ترضى، فحتى ولو رضت هي، فإنه يلاقي صعوبات جمة في التأقلم على جو العاصمة. لكن مساعدة زينب له منطقية وخاصة أن سيبان ـ أخ كريم الذي نجح في الإعدادية ودخل الثانوية ـ أيضا سيكون موجوداً في المنزل بجانب اختيه.... الخ.

ضاقت الدنيا بدلخواز وبدأ بالحديث: اعذرني يا أخي جئت لتودعني قبل سفرك وأنا الأناني الذي لا يفكر إلا بمشاكله، اشغلك بهمومي التي لمْ ولنْ تنتهي. لذا إترك موضوع نجاحي ودراستي وحدثني عن ما تنوي عمله في العاصمة وعن آخر رسومك.

ـ لا تخشى علي، فانا لا انزعج من مساعدة اصدقائي وخاصة صديق وفيٌ مثلك . لقد فكرت والحل الذي وجدته سوف يودي بك إلى النجاح بدون ان يكون لك علم بذلك.

-9-

كان يدرك بان المرأة الواعية قادرة على حل أكثر عقد الرجل إستعصاء، لذا فكر في إناطة هذا الدور باختيه ليلى وزينب، اللتان ستحضران إلى المدينة مع الأخ سيبان. في المنزل كانت الاختان مشغولتان بتنظيف المنزل، الذي بقي مهملاً خلال العطلة ، ولأنه سيرحل إلى العاصمة في غضون عدة أيام، فقد بادر إلى فتح الحوار مع زينب وهو واثق من رجاحة عقلها وقدرتها على مساعدة دلخواز دون أن يلحقها أي أذى.

كانت مليئة بالحيوية والنشاط فهذه هي السنة الاخيرة من الدراسة والنجاح يعني الوصول إلى كلية الآداب ـ حلم حياتها ـ بينما كانت مشغولة بترتيب المنزل على أنغام الأغاني الكردية الحماسية التي تصدرها آلة التسجيل بصوت مرتفع.

ـ زينب. إطفئي السمجلة وتعالي إلى غرفتي، فهناك موضوع علينا إنهاءه قبل ذهابي.

ـ سوف انهي ما بيدي وأحضر حالاً.

دخل الغرفة. جلس على الكرسي وأسند يديه على الطاولة. لم يرتح في جلسته تلك. فقام إلى الطنبور، حمله وبدأ بالعزف... دخلت زينب الغرفة وهي تقول: ها قد حضرت. أرجو أن لا يطول حوارنا، فالعمل أكثر من أن تتحمله ليلى لوحدها.

ـ هذا الموضوع مهم بالنسبة لي، وسبب طلبي العون منكِ بالذات، هو ثقتي بقدراتك الشخصية والفكرية، فأنت شقيقتي التي أعرفها ولن تخيبي أملي.

ـ ضاحكة... لم أكن أعرف بإجادتك لسرد المقدمات والمديح قبل التصريح برغباتك. لماذا لا تريني هذه الجوهرة المخفاة تحت لسانك..؟ فاختك لن تصبر كثيراً.

ـ الموضوع مرتبط بكِ وأنا سأكتفي بطرحه ولك كامل الحرية في القبول والرفض من دون الإهتمام برأيي. تعرفين دلخواز؛ إنه إنسان يستحق العون والمساعدة، ويحيا مأساة حقيقية منذ فراقه للقمان، وقد رسب في صفه، بعد نقاشات عدة عقد النية على إعادة السنة، لكن وبالرغم من ذكائه قد يفشل بسبب الأزمات النفسية. إنه كطفل لم يتعلم المشي بعد، وبدون رعاية رفاقية بناءة وموجهة قد يصل الى حد الانتحار أو...الخ. فلولا ممانعة ذويه لأخذته معي إلى العاصمة، لكنهم يخشون أن يعود إلى هاجسه القديم بالذهاب إلى الجبل.

ـ ما الذي تريد مني أن أفعل، فلا حليب لديّ لكي اطعم هذا الذي تقول عنه طفلاً.

ـ لا شيء سوى أن يتردد على سيبان كل عدة أيام. وخلال الزيارة عليك بالسؤال عن الدروس ومدى تحضيراته للامتحان. من دون أن توذي نفسه الأبية الحساسة. فهو إذا ما شعر ولو للحظة واحدة بأنكم تجدون زيارته عبئاً عليكم، لن

يكررها أبداً. أيضا حديثه عن الحياة، وخاصة حياتنا كشعب مضطهد، وواجب الفرد تجاه نفسه ومحيطه وكيفية تطوير المرء لمواهبه وقدراته...الخ.

ـ إنه كتوم خجول والإنسان يحتار معه. فكيف يمكن مساعدته..؟

ـ يملك بحر من المعلومات حول مختلف الامور، ونادرة هي المجالات التي لم يقرأ عدة كتب عنها. مشكلته نفسية سببها التربية الخاطئة وبعُده عن الحياة الاجتماعية. إنه عديم الثقة بنفسه لدرجة رهيبة. ينظر إلى نفسه كمجرم بحق كل شيء. مشاعره عديدة ومتناقضة وسوف تكتشفينها بمرور الوقت. وهو موضوع لشخصية ستفيدك في كتاباتك المستقبلية. وهو نقيض لقمان.

اسم لقمان كان له صدى خاص في اذني زينب. فهيهات أن تنسى حبها الأول الذي اصطدم بالواقع قبل أن تهنأ به. ودلخواز على علم بهذه العلاقة منذ يومها الأول إلى يوم الوداع. ووفاء لذكرى لقمان الذي اختار أصعب الطرق لخدمة وطنه وشعبه. ستقدم مابوسعها لمساعدة صديقه الوفي.

ـ لستُ خبيرةٌ بعلاج المرضى النفسانيين. لكن سوف أبذل مابإستطاعتي بشكل لا يؤثر سلباً على دراستي.

ـ أنا واثق بقدراتكِ ونجاحكِ سيمهد لك الطريق في كامل حياتك.

-10-

طوال عمره، لم يتعامل مع فتيات غريبات. حتى بنات عمه وخاله وباقي فتيات الأقارب. لم يكن له نصيب في الأخذ والعطاء معهنّ. اقتصرت علاقاته النسائية باللواتي يزورون

بيتهم. خلال المرحلة الإبتدائية لم يجد أي فارق جدي بين الاطفال لكن ومع إقتراب سنين المراهقة، وجد تغيرات جذرية في تقربات الفتيات. واللاتي كنّ يلعبنّ معه ابتعدنّ عنه، مما خلق لديه كآبة لم تفارقه. بدأ يشك بنفسه ويعذبها ويجدها السبب في نفور الطالبات منه ليس هذا وحسب، بل يحس برغبات جديدة تهجم على مخيلته. هذه الرغبات، ولكون العائلة محافظة، لم يكن قد نقاشه مع أحد. فيسيطر عليه الخجل من نفسه التي ترغب في المحرمات ويخاف من إنكشاف.

العادة السرية التي يمارسها، خوفه الأكبر الذي سيطر عليه زمناً طويلاً كان من عقاب الله بعد الموت. فالخطيب في الجامع يتحدث عن عذاب يوم الحشر. والزاني مكانه في أسفل السافلين ولا تشمله رحمة الرحمن، بل سيظل يصلي بالنار إلى أبد الأبدين. هذه المقولات ومثيلاتها أثرت على تطور شخصيته، والصراع الدائم مع الرغبات مع الرحام من دون تحقيق أي النجاح، كان الصراع الكبير الذي خاضه مع ذاته وترك فيه أثراً بليغاً. صور الفتيات باوضاع خليعة ـ بقيت في خياله من الأفلام، تهجم على فكره ليلاً ونهاراً، وهو يرتاح خلال اللحظات التي يمارس فيها اللذة، لكنه يبدأ بتعذيب نفسه بنفسه على ممارسته لما منعه الله وتستنكره العائلة. فها هم الكبار وما أن تظهر بعض المناظر في التلفاز حتى يسرعوا إلى إطفاءه ووجوههم منكسة، بينما الام تردد الأية " أعوذ برب الفلق من شر ما خلق". عذابه هذا لا يعرف السكون لدرجة أصبح فيها يكره تواجده بين الناس، حتى ضمن البيت كان يريد البقاء لوحده. فهو أهون من النظرات الي تركز عليه من قبل المحيطين به وكأنها تقول: لن يفيدك هذا القناع الذي تختفي وارءه، فنحن نعلم بما تقترفه بشكل مستمر دون وازع أو خوف.

تعرفه على خفايا الحياة الجنسية أمّن له بعض الراحة وتخلص نسبياً من شعور المجرم الهارب من العدالة. لكن ذلك أوقعه في أزمة جديدة، فالأب والام أي عالم الكبار بشكل عام الذي كان يجده (هكذا علموه) مثالياً من ناحية الأخلاق، اكتشف بأن الجميع يمارسون شهواتهم ويستمعون بها، لكن بشكل سري في الظلام، أي عندما تنام الدنيا، ماعدى الحيوانات الجائعة.

حياته الجنسية تحولت إلى عقدة كأداء يصعب حلها. وكلما ارتبط بالاحلام والخيالات كان يبتعد عن الواقع ويرهب التعامل مع المرأة بل يتحاشاها بالرغم من إنجذابه إليها كالحديد إلى المغناطيس. وهكذا تولد في قلبه تناقض رهيب بين ما يريد ويرغب فيه. وعدم قدرته على نيل هذه الرغبة. وبالرغم من محاولات لقمان العفوية لتخليصه من هذه الحالة إلا أنه لم يحقق نجاحاً ملحوظاً.

أعوام الدراسة الثانوية ومستوى التعامل الاجتماعي الأوسع، امن له درجة عالية من التجارب النظرية والتي اغناها بقراءة الكتب، سواء الروايات والقصص أو كتب التحليل النفسي... الخ. اتسع افقه ومع ذلك بقيت عقدته مستعصية. فكلما وجد نفسه في مواجهة فتاة ما، يتحول إلى كومة قش يحترق بنظراتها ولا يبقى منه سوى الدخان الذي يرتفع ويضيع ضمن الكون اللامتناهي.

بسبب إدراك كريم لعقدة صديقه، فقد كان يطلب من اختيه أن تجلسا معهم أثناء زياراته لهم، لكن دلخواز لم يتجرأ. إذ لم يسمح لنفسه على النظر مباشرة إلى زينب وحتى عندما يحادثها كان ينظر إلى كريم.

قبل ذهابه إلى جامعة وبعد أن حصل على موافقه اخواته، تحدث إلى دلخواز، وحصل منه على وعد بزيارة منزله، كل عدة أيام للاطمئنان على اختيه وعلى سيبان الحديث العهد بالمدينة، وأيضا ليساعد زينب في دروسها ويستفاد.

الأيام الاولى من الدوام كانت مملة تمر ببطئ شديد. الدروس مكررة ـ سمعها في العام الماضي ـ ومعظم معارفه غير موجودين، فأغلبهم نجحوا وانتقلوا إلى الكلية أو رسبوا وتركوا الدراسة، فقط القليل ممن أعادوا السنة لرسوبهم أو لقلة درجاتهم يرتاح لوجودهم. أما البقية فيصغرونه سناً ويلزمه وقت طويل للتعرف عليهم واختيار الجيدين منهم كأصدقاء. لكن وجود سيبان كان يعطي للمدرسة نكهة خاصة. ففي معظم الاستراحات يهرع إليه ويبدأ بسرد عفوي من الشرق والغرب عن الدروس ومعلم الديانة الذي طالما غضب بسبب سخريات الطلبة. وعن معلمة الانكليزية الأنيقة التي يمضي الطلبة فترة درسها بالكامل في التمتع بمفاتن جسدها، التي لا تسترها بل تبالغ في اظهارها، وعن معلم الفلسفة الذي خاف وجزع عندما تجرأ أحد الطلاب وسأله عن وجود أو عدم وجود الله.

لم يجب ـ مع أنه معروف بإلحاده ـ وأيضا حدثه عن مجموعة كبيرة من الأصدقاء تعرف عليهم، من مختلف الصفوف. والعامل المشترك بينهم هو الصراع الذي لا يعرف الهدنة مع شباب القومية الحاكمة.

اندهش دلخواز من الدينامكية الفريدة التي يتمتع به سيبان، إنه كلتة من الطاقة لا تنضب وهو يحرض دلخواز على إبداء الرأي في امور عديدة. هكذا كان في الاسابيع الاولى، فكيف به اذا ما امضى عدة اشهر..!! ليس سيبان فقط بل معظم

الطلبة لا يعرفون الهدوء. إنهم يبحثون عن أشياء فقدوها أو سمعوا بوجودها في هذه المدينة.

كان واقفاً يسند ظهره إلى الجدار، ينظر إلى حركة الطلاب غير المنتظمة ضمن الباحة. تقدم إليه شاب يراه لأول مرة، سلم عليه بلغته، فرّد عليه بإرتياح.

ـ أرغب بالتعرف عليك. فأنا كردي مثلك، والسبب هو أخلاقك الحسنة وسمعتك الطيبة.

ـ من حدثك عني. أو من أين جمعت المعلومات حتى تطلب صداقتي بلا مقدمات ولا تعارف سابق.

ـ ألا يكفي بأننا من قومية واحدة وهي قومية مضطهدة..؟ ألا تحب أن تزال هذا الظلم..؟

ـ قبل هذا وذاك من أنت، وكيف تتجرأ على الخوض في امور قد تؤدي بك إلى السجن وضياع المستقبل..؟

ـ من أكون.. هذا سؤال بسيط. مصطفى من الصف الثاني الثانوي وأسكن في حي(.....) مع عدة طلبة وتستطيع زيارتنا متى شئت. أما كيف أجرؤ.. فهذا أبسط من السؤال الأول. بعد تعرفي على الثورة لم يعد يهمني أي شيء سوى الوطن وتحريره. ولا أخاف من السجن.

احتار دلخواز لأمره. فهل الحماسة هي دافعه. أم أنه مجرد فوضوي لا علاقة له بالتنظيم ويتحدث بإسمه بشكل عشوائي مع كل من هبّ ودب.

ـ إسمع يا مصطفى..! سواء كان ما تقوله صحيحاً ام لا، فهذا لا يهمني، وأنا أدرى منك بكيفية التصرف تجاه واجبي الشخصي والوطني، ولستُ بحاجة إلى إرشاداتك، لذا اهتم

بامورك، ونصيحتي لك ان تهتم بدروسك ولا تتهور، لان في العجلة ندامة.

ـ مثلك قديم جداً والاصح أن تقول" في الجبن الندامة".

ترك دلخواز ليزداد حيرةً، والذي زاد الطين بلة هو مشاهدته لسيبان واقفاً مع مصطفى بعد الإنصراف أمام باب المدرسة. انتظره حتى أنهى حديثه ولحق به.

ـ من ذلك الشاب الذي كنت واقفاً معه، هل هو من معارفك، أم تعرفت عليه في المدرسة..؟

ـ إنه من مدينتنا وهو أخ للشهيد (...) الذي ضحى بدمه في الحرب ضد العدو.

ـ لكنه متهور جداً ويضع رأسه في الموضع الذي يجب ان يضع فيه قدمه، وبالعكس. فعليك بالحذر في تعاملك معه، لأن امور السياسة ليست بالبساطة التي يتصورها، وحرام أن يسقط نتيجة للتهور والاندفاع.

ـ كلامك صحيح إلى حد ما. لكنه فعلياً تارك للدراسة ويداوم من أجل النضال ضمن الطلبة، وقد طلب مني حضور الاجتماع مساء اليوم، حيث سيتم عرض شريط فيديو يظهر حياة الأنصار. ما ان مرت كلمة الأنصار بسمعه حتى تذكر لقمان وسيامند. مرت ذكريات الاعوام الماضية في خاطره كلمح البصر.

ـ هل يحق لي الحضور ام هو مخصص لطلبة محددين..؟

ـ بالعكس هو لكل الراغبين وسيفرح الرفاق بحضورك.

وكأن لقمان عاد من الجبل وأخذ بيده. وبدأا يتجولان كما الأيام الخوالي. فها هو سيبان ومصطفى والكثيرين غيره من

الطلبة وباقي فئات الشعب، الكل تنبض قلوبهم مع طلقات النار التي يسمع صداها ودويها من بعيد. تنبض فرحاً واملاً بميلاد جديد. إنها الثورة والنار الكامنة في قلوب طالما أحست بالظلم وصبرت. لا خوفاً ولاحباً بنير العبودية بل ترقباً للوقت المناسب.

- 11-

الرفاق لم يقطعوا صلة الوصل بدلخواز، حتى في أحلك الظروف. تحملوا الكلمات السيئة والشتائم التي أمطرتها عليهم ام دلخواز، حتى المرات التي طردتهمم فيها لم تؤثر في إصرارهم على مساعدة دلخواز الذي يعاني ويحتاج إلى الصداقة الحقيقية. لم يكن هدف الرفاق مقتصراً بدلخواز فقط بل كانوا يهدفون إلى كسب العائلة بأكملها. وهو الامر الذي يعتبره دلخواز من سابع المستحيلات. فأهله لا يفكرون خارج جدران بيتهم وحتى الأقارب لا يمدون لهم يد المساعدة إلا كمراعاة للتقاليد والأعراف السائدة، فكيف سيتغيرون بين ليلة وضحاها ويبدؤوا بالاهتمام بالوطن ومعاناة الشعب. لمرات عديدة حاول الرفاق مع الوالدة وحاوروها في مسائل مختلفة وبشتى الأساليب، لكن التغيير الذي طرأ لم يتجاوز الشكليات. تركت الكلمات المهينة وامتنعت عن طردهم بعد أن تأكدت من ترك ابنها لفكرة الرحيل إلى الجبل، فقد كانت تتنصت عليهم وعلى حواراتهم، بمرور الوقت وتناسباً مع إرتباط إبنها بهؤلاء الشباب بدأت، بلا دراية أو قصد، تجد فيهم جوانب وتقربات تستحق المحبة، فهم خلوقين يحترمون البيت وأصحابه ولا يجد المرء في تصرفاتهم أي زيف أو خداع وتغلب الصراحة على أحاديثهم، والأنكى من كل ذلك

يحاولون وبشكل جدي إقناع دلخواز بالإستمرار في الدراسة والعودة إلى الحياة الطبيعية بتجاوز العزلة التي يفرضها على نفسه. وكانوا ينادونها " يا اماه " هذه الكلمة التي كانت كقطرات الماء التي تحفر مكانها في الأرض بالتدريج. وفي بعض الأحيان عندما يطول مكوثهم في البيت يقومون بمساعدتها في امور المنزل، وهذا كان كفيلاً بتغير رأيها بخصوصهم. هكذا كان حبها لهم يزداد مع الأيام، ومع ذلك تضغط على مشاعرها وتمنعها من الظهور، وتتعامل بجدية وصرامة متصنعة،لانها كانت وتخشى من احتمال لا يزال يقلق مضجعها وهو عودة إبنها إلى موالـه القديم، اذا ما راى أي تغيير في موقفها.

مع مرور الأيام وباصرار الرفاق كانت تجلس معهم وتستمع إلى حديثهم السلس الذي يتحول إلى شجار في بعض الأحيان. خلال هذه الجلسات، تعلمت العديد من الامور؛ فاسم كردستان الذي كان يمر مرور الكرام في اذنيها سابقاً، يحمل الآن نفحة جميلة محببة، وكأنها تتعرف على اسم وطنها للتو. الامر الذي رجح كفة الوطنية وحسم صراع الوالدة الداخلي هو قدوم الرفيقات إلى منزلهم وزيارتهن لدلخواز. هذه الزيارة التي كان لها أبلغ الأثر على رفع معنوياته. خلال الزيارة الاولى ولكونهنّ فيتات، تقربت منهنّ بشكل طبيعي وبعفوية تامة. تحدثت اليهنّ وحاولت فهم السبب في تركهنّ لبيوتهنّ. لكن اجوبة الرفيقات لم تكن مقنعة لها. فما هو هذا الوطن الذي لن يتحرر بدون نشاط المرأة..؟ ومتى كانت المرأة قادرة على تسيير الأنشطة السياسية وتسلق الجبال وحمل السلاح..؟ المرأة كانت وستظل ظلاً للرجل ولا مأوى لها سوى بيتها وأولادها. لكن مع مرور بعض الوقت تعرفت الام على إحدى الرفيقات وهي إبنة أحد أقربائهم. إنضمام هذه الفتاة اجبرها

على تغيير نظرتها السابقة. كانت تظن بأن المنضمات من عوائل فقيرة أو من الهاربات من المشاكل ومن ما لا معيل لهم واليتامى لكن هاهي الفتاة المثقفة " جيهان" التي حصلت على الشهادة الثانوية وكان ابواب الجامعة مفتوحة لها على مصراعيها وليس هذا فحسب، بل وبسبب حسنها النادر فقد كان الخطاب أكثر من الهم على البال. وهي لم ترضَ بكل ذلك وتركت عائلتها الغنية والتحقت بالثوار. حاولت بحسب تجاربها الماضية ان تصل إلى تفسير معقول للشيء الذي يجذب الشباب والشابات إلى التضحية بالذات إلى هذه الدرجة، لكنها لم تتجاوز الفكرة القائلة " الثوار يملكون الحجاب الذي يخدع العقول ويعمي القلوب، عندها يفعلون كل ما يقال لهم". مع أنها توقفت عند هذا التفسير، لكنها أحبت الرفاق وحنت عليهم بقلب الام و بدأت تنصحهم وتقول " حرام عليكم أن تهدروا شبابكم، فما لكم ولحرب لا قدرة لكم على خوضها". هذه المقولة بحد ذاتها كانت تطوراً كبيراً في عواطف الام التي كانت تتمنى من صميم قلبها لو يرحل هؤلاء إلى جهنم ويكفوا بلائهم عن إبنها. أما الآن وحباً بهم كاشخاص خلوقين تريدهم ان يبقوا بالقرب عنها ومن إبنها. وحتى بدأت تفكر بإقناع إحدى الفتيات الجميلات من بينهن لتكون الزوجة المستقبلية لابنها.

الرفاق الذين كانوا ألد أعداء الوالدة تحولوا إلى اناس تترقب قدومهم، وما أن يتأخروا حتى تبدأ بالشكوى والعتاب، ومهما قدم الرفاق الحجج والإعتذارات، إلا أنها تعبر عن إنزعاجها وعدم رضاها عن تأخرهم. هؤلاء الذين كانت تطردهم تنفر منهم وتكلل لهم بأسوء الشتائم، ما ان يهموا بالاستئذان حتى تصر عليهم لكي ينامو عندهم. هذه التي أصرت على زوجها لكي يقدم الشكوى بحقهم إلى قسم

الشرطة، أما الآن وما أن تجلس مع زوجها حتى تبدأ بالحديث عنهم ومحاسنهم. فيبدي الزوج إستغرابه من هذا التحول الكبير في موقفها. إلا أنها تؤكد له بعدم وجود أي إنسان قادر على معاداتهم بعد أن يتعرف عليهم.

ـ وماذا ستفعلين لو عاد دلخواز وأصر على الذهاب معهم.

ـ لا أظن بأنه سيعود إلى هذه الفكرة..!

ـ اتركي الظنون ولنفرض انه فعل..!

ـ لا استطيع القبول إبتعاد ولدي عني، سوف أخدمهم بكامل طاقتي، بشرط أن يبقى ولدي بجانبي.

-12-

عادا من الاجتماع وأصر سيبان أن يتناولوا طعام العشاء في منزلهم. ولم يبدِ دلخواز أي إعتراض، فهو مشتاق إلى البيت الذي طالما جمعه مع لقمان وكريم وأيضاً إلى اختي كريم اللتان ينظر إليهما كاختين. هذه الزيارة ورغم الترحيب الحار الذي استقبله به الاختان، لم يكن خالياً من اللوم.

ـ كنت أعتقد بأنك تعتبر نفسك صديقاً للعائلة، لكني أراك قد إنقطعت عن زيارتنا بسبب غياب كريم، فوجئ بموقف زينب. لم يكن يتوقعه، وبدأ يبحث في فكره عن جواب مقنع لإنقطاعه عن الزيارات لكنه لم يجده. إلى ان أنقذه سيبان بأن قال: مهما كان السبب فها هو بيننا وسوف يعاود الكرة بلا إنقطاع. أليس صحيحاً ما أقوله يا دلخواز.

ـ بالتأكيد فلا مانع عندي، وأنا سعيد بوجودي بينكم.

ـ ليس هذا فحسب. كان كريم قد أكد لي بأنك وعدته بأن تساعدني في الدروس لكنك نسيتنا ونسيتَ وعدكَ.

ـ أرجو المعذرة. صحيح بأنني وعدتُ كريم بذلك، لكن لم أكن واثقاً من رغبتكِ في الدراسة معي وهذا هو السبب الوحيد لترددي ولا شيء سواه.

ليلى ـ ما دام الامر هكذا فسوف نراك كل عدة أيام.

ـ بالطبع.

ـ سيبان نحن جائعون وقد طال الاجتماع، وبعد مشاهدة الشريط، بدأ أحد الرفاق بالحديث عن حياة الانصار وتطورات الحرب الاخيرة.

قامت ليلى لتعد الطعام واستمر البقية في حوارهم.

ـ ألا تستطيع جلب الشريط لكي نشاهده في البيت..؟

ـ لماذا لا تذهبين إلى إجتماع الطالبات لتشاهديه هناك..؟

ـ هل ترى يا دلخواز... إنه يدعي النضال من أجل توعية الشعب. وأنا.. ألست أحد أفراد الشعب..؟

ـ إحضار الشريط أمر هين. لكن إصرارك على البقاء في وضع المتفرج هو الذي لا استطيع فهمه.

ـ كل إنسان يلزمه فترة معينة ليتمكن من هضم وإستيعاب الامور الطارئة والجديدة، فما بالك بموضوع الثورة المعقد. ونحن لا نستطيع ترقب نفس رد الفعل من مختلف فئات الشعب. كل فئة تنظر من نافذتها والذين يجدون فيها تلبية لآمالهم يلتحقون بها بسرعة البرق، أما البعض ممن يخافون على منافعهم ينتظرون رجحان كفة الميزان لكي يختاروا

جانب الأقوى، كما يوجد قسم معادي يمتهن الخيانة، باع نفسه للمحتل ولا أمل في دعمه للثورة.

ـ لكن أنا وزينب اخوة وموقفنا متناقض رغم كوننا من نفس الفئة.

ــ ما قلته ليس إلا الخطوط العريضة ويشمل كامل المجتمع. أما بخصوص الأفراد، فهم أيضاً تختلف مواقعهم بحسب المحيط الذي يتأثرون به، أما موقفك فهو مطابق لموقف اختك ومبادئكم متقاربة والفرق يكمن في الاسلوب. رضيت بالعمل الدعائي وكريم اختار الفن واختك تدرس لكن القضية واحدة.

ـ سيبان معاكس لكريم وهو يهتم بشكل الامور ولا يحاول الخوض إلى الأعماق، وأعتقد بأن هذا نابع من قلة المطالعة، وهو يريد الاشياء جاهزة يثق بما يقال من قبل المحيط الذي أمّن به ـ الحزب ـ أما كريم فكان يكره الجاهز من الامور وحتى الأفكار، لم يكن يؤمن بأية فكرة معينة، بل يشك. وهذا الشك كان يمنع عنه النوم وحتى الطعام الذي طالما أضرب عنه بسبب التأمل ومحاولة كشف بعض الحقائق، واظن بان الجانب الأقوى من شخصيته هو" تمريره لكل الموجودات في مصفاة الشك" نادراً ما كان يتحدث وهو انزوائي ومحب للوحدة، إلا أن هذا الإنطواء لم يكن من النوع المرضي، بل هذا المتأمل نفسه يتحول إلى كائن إجتماعي يمنح الإبتسامات ويجيد الفكاهة ويضحك من أعماق قلبه، من دون أن يفقد جديته. أظن بأن الإيمان السريع يليه الإنكار الأسرع. لذا على المرء أن لا يستعجل في إبداء قناعاته ومبادئه التي يؤمن بها.

ــ ما هو مقياس السرعة عندك، يا من تختفين وراء المنطق لتستري ترددك وعدم صفاء فكرك. لنقل فرضاً وبينما

نحن جالسون وسمعنا فجأةً اختنا تستنجد بنا فهل هذا الأمر يستوجب الأخذ والرد.

ـ لكنك تبسط الامر كثيراً. هنالك قرارات ومواقف تطبع حياة الإنسان بكاملها. وأعتقد بأن زينب تتحدث عنها. فمثلا أنت الآن تتحرك بشكل فعال مع الرفاق ويظهر من موقفك بأنك ستحترف العمل السياسي، لكن إذا ما تغير فكرك وتركتهم. عندها سوف تعرف كإنسان مرتد عما أمّن به وقام بالدعاية له. وهذا سيؤثر على مستقبلك وعلى وضعك ضمن المجتمع.

ــ ألا يؤدي طول التفكير إلى التردد والخوف من الإحتمالات. أود واؤكد بأن بعض المواضيع لا تحتاج إلى التفكير الأكاديمي. فهنالك حرب دائرة بين طرفين. فأين أنت منهم، عليك أن تكون طرفاً. أما المشاهدة وموقف المتفرج فهو بنظري أسوء من الهزيمة، فهو يحتوي على الانتهازية والأنانية لا سواه.

ــ أن يكون الإنسان طرفاً، لا يعني حمل السلاح فقط. فالمواطن العادي الذي يؤيد الثورة بلسانه فقط يعتبر طرفاً إيجابياً وكذلك الطالب الذي يدرس ليخدم وطنه.

ـ هذا صحيح لكن الذي يستطيع حمل السلاح ويحتمي بهذه المقولات ويختار لنفسه دور المواطن البسيط، ألا يعتبر إنتهازياً...؟

ــ موقفك يا سيبان فيه صلابة شديدة، فنحن لا نستطيع وضع جميع الأفراد في كفة واحدة، وعليك أن تقترب منهم وتحادثهم، وقبل ذلك لا يحق لك الحكم عليهم. فلكل فرد مشاكله المختلفة وكثيراً ما بدرت أفعال من اناس لم يكن أحد يتصور قيامهم بها. فمثلا والدتي التي لم أكن أتصور قبولها

للرفاق في يوم من الأيام. الآن لا تتحمل بُعدهم وأصبحوا جزء أساسياً من حياتها اليومية.

دخلت ليلى بالطعام. وقالت: لقد أوجعتم رؤوسكم بالحوار مع سيبان الذي لا يستمع إلى ما يقوله بنفسه. هيا لنأكل وبعدها عليكم بالدراسة، فهي أهم المواضيع.

ساد الصمت أثناء الطعام بينما تدور آلة التسجيل، ونسمع منها صوت البلبل الحزين الذي لم يكن كريم يرضى عنه بديلاً. لم ينهِ سيبان طعامه ونهض فجأةً كمن نسي أمراً خطيراً، أخرج من جيب معطفه شريطاً وقال: هذا كاسيت جديد وقد أهداه لي الرفيق(..) وسوف اسمعكم إياه.

زينب ـ هل يوجد شريط يحل محل غناء محمد شيخو.

سيبان ـ وهل سنمضي العمر كله في سماعه. مهما كانت قيمة المغني واللحن، إذا ما تجاوزنا الحد في الاستماع إليه سيفقد قيمته مع مرور الأيام.

الشريط الذي وضعه على آلة التسجيل ومنذ البداية أحدث تأثيراً ملحوظاً. خاصةً على دلخواز وسيبان فقد كان موضوع الأغاني حول شهادة مجموعة من الرفاق الذين حوصروا من قبل العدو واستشهدوا بعد مقاومة بطولية.

بعد الإنتهاء من الطعام والإستماع إلى الشريط. بدأ كل من دلخواز وزينب بالدراسة معاً. بينما سيبان يتململ في جلسته والكتاب بيده. ينظر إليه من دون أن يقرأه.

-13 -

كان حياة جديدة تفتح أبوابها لإستقباله فلا يصدق نفسه. لقد تحول بيته إلى أحد البيوت الأساسية التي يرتادها الرفاق. وزادت حواراته مع الرفيقات مما خلق لديه إرتياحاً لم يكن قد شعر به من قبل. نعم خجله وحياءه يستمر ويقلل من جرأته في التعامل، خاصة مع الجديدات منهنّ. لكن و برغم ذلك يشعر وكأنه إنسان جديد وأمامه امور كثيرة عليه تحقيقها. أمامه عقبات عليه تجاوزها.

تعامل الرفيقات معه كان يقتصر على الامور العامة المتعلقة بقضية الوطن وتنظيم الشعب وحشد طاقاته في خدمة الحرب، والنقاش حول الواجبات وشكل تنفيذها. هذه النقاشات كانت تلعب دوراً إيجابياً ومساعداً له. اما التي أعاد توثيق روابطه بالحياة وغيرت إتجاه مسيرته ـ التي كانت تنحدر نحو الهاوية ـ وجعلتها تتجه نحو السمو، كانت زينب اخت صديقه وإبنة العائلة المعروفة بإتجاهها اليساري والتي تركت الأحزاب واتجهت إلى الإهتمام بالثقافة والفنون. مع أنها تصغره بسنة لكنهما تكبره بنضجها المبكر وبتجاربها المكتسبة من المحيط وبوضوح هدفها الذي تسير إليه قدُماً، لا تعترف بالعقبات، ونظراً لمعرفتها لدلخواز منذ أول يوم حل ضيفاً على أخيها، تدرك بأنه يحتاج إليها، كما الطفل لامه، وهي مستعدة للمساعدة. لكن بشرط أن تتطور العلاقة تحت المراقبة الصارمة لكي لا تؤدي إلى نتائج وخيمة يكون ضحيتها دلخواز.

منذ أن ودعهم كريم ذاهباً إلى العاصمة للتنقيب عن منابع الفن ضمن الكتب وفي أدمغة الدكاترة صارحت زينب اختها برغبة كريم، وعبرت لها عن رأيها وقدرتها على القيام بالمهمة، لكنها بنفس الوقت أبدت مخاوفها من شخصية دلخواز غير الناضجة والمحرومة.

ـ ما الذي يجبرنا على تحمل عقده ومشاكله، الأفضل أن تهتمي بدروسك، فأمثاله يتحولون إلى مصائب يصعب الخلاص منها.

ـ أتفق مع تحفظك، لكن نحن مجبرين على مساعدته، فقبل كل شيء هي رغبة كريم وثانياً هو شاب يستحق العون لأنه ضحية للتربية الخاطئة للمجتمع. إنه بريء ويريد أن تكون الحياة بريئة مثله، ولذا يتعقد عندما يرى وجوه الحياة المختلفة.

ـ يوجد الآلاف على شاكلته، فلماذا لا تفتحين مصحة للامراض النفسية...؟

ـ لا تستهزئي بي، فأنا لازلت قليلة التجربة للتصدي المشاكل الاجتماعية العامة. أما هذا فهو صديق العائلة ولم نرَ منه إلا الخير، وعلينا تلبية واجب الصداقة على الأقل.

ـ ليكن ما تريدين، لكن ماذا ستفعلين لو وقع بحبك..؟ أنتِ تقولين بأنه محروم من العلاقات ويعاني من العقد. أي هو في وضع الغريق وما أن يجد قشة حتى يتمسك بها. فهل أنتِ مستعدة للعب دور العشيقة، بعد إنهاء دور المعلمة..؟ لا تستهيني بالامر. ألم تسمعي حادثة صديق كريم الذي اغتصب إبنة أخيه ذات الثلاثة عشر ربيعاً. أمثال هؤلاء يظهرون كالملائكة إلا أن حيوان الغريزة يحولهم إلى كواسر عمياء جائعة، لا تعرف سوى إشباع غرائزها. وقولي هذا لا ينبع من رغبة في التشكيك بأخلاقه إنه إنسان آدمي. لكن الخطيئة مجرد لحظة من فقدان العقل لسيطرته على الشهوة، فاذا ما أظهرت له الحنان سوف يفهم منها بحسب رغباته حباً أو رغبة في الوصال، وحتى لو كان لجامه بيدك، فلكل حصان كبوة قد تودي به إلى الهلاك.

ـ سوف أتخذ من كل مقولاتك أساساً في تعاملي معه. وعوني له لن يكون على حساب دراستي وسمعتي، وأيضا رؤيتي له ستكون بين الفترة والاخرى وبحضورك وسيبان، لا أعتقد بأنه سيفكر بي كعشيقة بسبب رباط الاخوة الذي كان يربطه بلقمان، وهو عالم بما بيننا.

زيارات دلخواز لبيت كريم إتخذت شكلا دورياً. في الاسبوع مرة واحدة. تستمر لساعات عدة يقضون نصفها في الحديث العام عن السياسة والمجتمع، والنصف الآخر للدراسة حيث يذاكر مع زينب تحضيراً للإمتحانات. أثناء الزيارة الثانية كان سيبان مهتاجاً يريد إفراغ جام غضبه وإنزعاجه؛ إنهم أوغاد يحرصون على حماية اللص أكثر من اللصوص ويدعون بأنهم أصحاب البيت. الكل بلا إستثناء يكرر دعايات العدو و يتهموننا بالإرهاب والتخريب. فمن طينة أي جبل هؤلاء..؟ هل هو الحسد بسبب التطورات التي أحدثها الحرب خلال مدة وجيزة، عجزوا هم عن تحقيقها خلال أعمارهم الطويلة..؟ أم هي المصالح وظهور وجوههم الباهتة والكسولة وغير القادرة على قطف النجاحات باسم الشعب..؟ وإن لم يكن هذا وذاك، فهم مرتبطون بالعدو ويعملون على خدمته. فما تفسير ترديدهم لنفس الإتهامات التي يرددها العدو.

ـ اقسم بأنك فاقد لعقلك..! لما تردد هذه الكلمات السيئة وتضع نفسك في الموضع الذي تنتقده..؟ ولماذا تنظر إلى الامور بمنظار احادي الجانب..؟

ـ هل تريدين أن أستعير دماغك لافسر الامور. أقول لكم بأنهم تركوا مشاريعهم ونشاطاتهم ويعملون ليل نهار ضدنا،

وكأننا نحن العدو. لم أكن اصدق ما يقال عنهم لكني في الأيام الاخيرة وبعد الحوار معهم وصلت إلى هذه النتائج.

ـ إنهم يعارضون اسلوبكم ويظهرون جوانبه السلبية. فلماذا لا تستفيدون من إنتقاداتهم..؟

ـ أية إنتقادات يا اختاه..؟! إنها مجرد هجمات إتهامية بعيدة عن الحقيقة وتهدف تشويه فكرنا وحربنا، إنهم لا يتوانون عن ترديد أسوء الإدعاءات بحق مقدساتنا.

ـ وأنتم هل قصرتم في إتهامكم لهم وتشويه أفكارهم وممارساتهم. قل لي لماذا تمنع عن غيرك ما تبيحه لنفسك.

دلخواز: لكن يا زينب الامور لا تقاس بالمقياس الذي تطرحينه. فهؤلاء كانوا ومنذ زمن طويل قادة لنضال الشعب، لكنهم لم يحصدوا سوى الفشل. وقد ذاق الشعب الامرين من جراء سياساتهم. وما ظهور الثورة إلا كبديل عنهم وقد أثبتت التطورات صحة الاسلوب الذي تم تحديده، دون غض النظر على الجوانب الكامنة على الأخطاء والنواقص. لكن هذا لا يعطيهم الحق والمبرر للهجوم على الثورة التي لقيت القبول عند أغلب فئات الجماهير.

ـ لكن يجب أن لا ننظر بعين واحدة ما دامت لنا عينان، ألا يدعي الجميع بأنه يعمل من أجل الوطن..؟ فما المانع أمام إتحادهم في جبهة واحدة، ألن يسهل ذلك الطريق ويقلل الضحايا..؟

ـ الموضوع غير مرتبط بالنيات والشعارات. فأنا مثلاً أرغب بوجود وطن محرر أحيا فيه بسعادة لكن لا أفعل أي شيء في ذلك السبيل. والذين يدعون بأنهم طليعة للنضال أين

هي إنجازاتهم وما هي الخدمات التي قدموها للشعب. برأيي يجب أن يكون الشعب هو المقياس للحكم على حزب ما.

ـ بحسب هذا المقياس تكون الثورة المسلحة في شمال الوطن هي الطريق الأمثل لتحقيق آمال الشعب. فها هي الجماهير تلتف حولها وحول قيادتها وتنتفض في القرى والمدن.

ـ أقبل المقياس الذي حدده دلخواز، إلا أنه نسبيٌ وليس حقيقة مطلقة. فمثلاً أنتم الذين تؤمنون بالثورة تنظرون إلى عمليات إحراق الذات كذروة للمقاومة وكطريق لتوعية الشعب وتحريضه على الإنتفاضة لكنني لا أستطيع إستساغة هذا الاسلوب، مع أنني أقدر اؤلئك الثوار الذين يُضحون بأرواحهم دون أن يرف لهم جفن.

ـ لكن هؤلاء الذين لم يتحدوا ضد العدو يتحدون ضد الثورة ويهجمون على الشعب ويتهمونه بالجهل والعمى وعدم رؤية الحقائق ولا يكتفون بذلك وحسب، بل يهجمون على الشهداء الذين تقدرينهم بدوركِ. إنني لا أتمالك نفسي فكيف تتحمل قلوبهم ـ ان كانت لهم قلوب وضمائر ـ فالعديد من الذين يحاربون في الجبال نعرفهم جميعاً ولم يكن ينقصهم أي شيء سوى الحرية. إنهم يضحون بحياتهم رخيصة لخدمة الشعب. هؤلاء ليسوا بحمقى ولا بقليلي المعرفة حتى لا يدركوا أهمية الحرب الدائرة ضد العدو الأكبر. لكنها المنافع هي التي تعمي بصائرهم. فينكرون جميع إيجابيات الثورة لأنها ليست من صنعهم.

ـ رغم صحة معظم كلامك، يجب عدم قطع الصلة بهم. وبقدر الإمكان يجب تفادي الصراعات الداخلية للحيلولة دون هدر إمكانات الشعب البسيطة أصلاً. وعلى كل من يجد نفسه

كـصاحب وحـامي للـشعب اليبحـث عـن النقـاط المـشتركة والجامعة بشكل دائم.

ليلـى: لا أعتقد بـأن هذا النقـاش لـه نهايـة. فهل هـو قـدر مكتـوب علـى جبيننـا أن نتطـاحن وننهـي قوانـا فـي الـصراع الداخلي..؟ أرجوا أن تتوقفوا وأظن بأن وقت الدراسة قد حان.

رضـي دلخـواز وزينـب. لكـن علامـات الإنزعـاج ظهرت على وجه سيبان، الذي لم يعترض بل قام إلـى حقيبتـه وأخـرج منها أحد الكتب، لكن لـم يقرأ، واكتفى بالتشرد الـى البعيد. لا أحد يعلم هل كـان يسير بين الأنصار أم يخاطب وسط حشد الجماهير، أم يفكر برفيقة الدرب التـي سيمسك بيدها ليصعدا جبال الوطن يقطعانه من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلـى الغرب أم... الخ.

- 14 -

موعدان إثنان كانـا كفيلان بمنح الثقة لدلخواز ومساعدته على تجاوز أزمته بالتدريج. أولهما الزيارة الدوريـة التـي يقوم بها الرفاق فيستمد منهم القوة والمعرفة والجسارة والحماسة وهو ما يساعده على تجاوز الصعاب. أما الموعد الثاني فهو زيـارة بيت كـريم ومناقشة المغـامر سيبان والناضـجة زينـب والاخـت ليلـى التـي تحـاول لعـب دور الام الناصـحة. موعـد الزيـارة الاسبوعي كـان يـوم الفرح والبهجـة وينتظـره بفـارغ الـصبر. هنـاك فقـط لا يعـرف كيـف يمـر الوقـت. ينظـر إلـى ساعته ويلعن الزمن الذي يسرع فـي أوقات السعادة بينمـا فـي أوقات الحزن يرفض السير. وكان الزمن عدو لدلخواز.

بـالرغم مـن الفـرح العـارم الـذي يجتاحـه عنـدما يتواجـد بجانـب الأشقاء ـ خاصـة زينـب ـ إلا أنـه لا يعدم من وسواس الخجل والعودة إلى ما تقوله له نفسه. وكثيراً مـا تـؤدي حركـة مفاجئـة أو إبتـسامة مـن أحـد أفـراد البيـت إلـى ولادة مـشاعر الكابـة والإحساس بأنـه غيـر مرغوب بـه، ظنـاً مـن أنـه يـشكل عبئاً على المحيطين به، ولا أحد يحبه ـ هكذا تتراكم المشاعر الناجمـة عـن العقـده النفـسية لدرجـة يكـره فيهـا نفـسه ويحـس بوجـوب نهوضـه الفـوري. لكنـه لا يقـوم بهـذا الواجـب ويظـل شارد البال يبحر في عالم النفس السحيقة، إلـى أن تنـادي عليـه زينـب ليعـود مـن عـالم الأوهـام والانكـسار إلـى الواقـع ويجـد زينب تجلس بقربه تؤنبه على حالات الشرود التي تحدث معه مـراراً بينمـا هـي تقرأ أو تـشرح بعـض الفقـرات مـن الـدرس. حتى هذا التأنيب يجده لذيذاً ويفرح به.

لم يراقب دلخواز مشاعره وعواطفه الجياشة طالمـا قادتـه في الخيال والحلم إلى عـالم المرأة والرغبـات، وبـلا إرادة منـه يجـد زينـب موضـوعاً لهـذه الرغبـة، فيلـوم نفـسه ويحتقرهـا، فكيف يرضى لنفسه أن يحتل مكان صديقه، وأن يخون صداقة كريم الذي فتح له بيته. ومع محاسبة الذات يشعر بنفسه أقوى يوماً بعد يوم، ويتحكم برغباتـه التـي كانـت تسيطر عليـه وهـو الآن يقـوم بتربيتهـا وترويـضها، وبـذلك يبتعـد عـن العـالم الحيـواني المـدار بـالغرائز ويقتـرب مـن الإنـسان الـذي يـربط الشهوات بمقاييس الاخلاق والتربية.

بالرغم من مرور فترة طويلة على زيارات دلخواز إلا أنـه لم يسعَ إلى النظر والتمعن في عيـون زينـب ولا اختهـا، وحتـى لو حدثت مصادفة والتقت عيناهما كلمح البصر يخفض عينـاه إلى الأرض خجلاً وخوفاً من أن يُفهم بشكل خـاطئ، لـذا فهـو يجهل لون عينيها أو لون عيني أي فتـاة اخـرى، هذه الخاصـية

بالذات هي التي شجعت زينب على البدء وبشكل فعلي بدورها في مساعدته. لقد ارتبط بها ولن يرفض لها أي طلب وما عليها سوى الاشارة. لكن لا فائدة من الارشاد بل يجب ان يتحدث هو ويفتح قلبه معترفاً بالامور التي يخافها وتشكل عقدة. أرادت البدء باسئلة عامة تمهيداً للمواضيع المهمة التي تريده أن يتحدث عنها.

ـ دلخواز هل أنت واثق من النجاح هذه السنة..؟

ـ لا تقلقي بشأن نجاحي، فهو أكيد وبعلامات عالية أيضا.

ـ لكني أراك قليل الاهتمام عندما نذاكر معاً..؟

ـ عندما أكون مستقراً هادئ البال يصبح نجاحي سهلاً جداً.

ـ اريد ان أسألك عن أحلامك المستقبلية..؟

ـ الدراسة ليست هدفي النهائي، ولست متأكداً حتى الان من رغباتي، ولازال حيرتي بين الواجب الشخصي و العائلي والوطني مستمرة، وما إنكبابي على الدراسة الا لكسب الوقت والوصول إلى أفضل اشكال الحياة المناسبة لشخص مثلي، ولولا إصرار كريم وتشجيعه لما تركت صومعتي، ولأمضيت فيها وقتي بالكامل إلى أن اصل للقرار النهائي، لكن لا فرق. وبالعكس خروجي مهد لي السبيل للتعرف عليكم عن قرب وهو أمر يؤثر عليّ إيجابياً ويسهل مهمتي في الإختيار، لكني لستُ مستعجلاً واريد التأكد من صدق عواطفي ورغباتي ولا اريدها أن تخدعني وتخونني في الأوقات العصيبة.

ـ لا تجد مستقبلك في الدراسة ولا يزال بحثك مستمراً عن شكل حياة لا تعرف ماهيتها. لكن ألا تجد بأن بحثك سلبي جداً. أنت تكتفي بالحوار الذاتي ولا تشارك أحد في همومك. وها

أنت تزورنا منذ مدة طويلة وأصبحت كأخ لنا، لكن إذا لم يفتح أحدنا موضوعاً للحوار أو لم نوجه اليك الاسئلة تبقى صامتاً بلا حراك. أظن بأنك تدرك وضعك هذا، وتحقد عليه لأنه يسبب لك المعاناة. فهل قمت بتحليل أسباب حالتك وإلى أية درجة بذلت الجهود لتجاوزها..؟

ـ ثقتي بكِ تمهد لي الطريق لأكون صريحاً، بدون ان أتجاوز الاصول؛ تربية العائلة هي السبب الرئيسي وخاصة موقف الوالدة الذي أغلق بوجهي أبواب الدنيا وإبقائي محصوراً بين جدران البيت خلال فترة الطفولة وبداية مرحلة الشباب، والامر الذي زاد الطين بلة كان التربية الدينية الصارمة وإلتزامي الدائم بالواجبات الدينية والتردد على الجامع لسماع خطب الامام المليئة بالتهديد والوعيد من نار جهنم التي سيصلي فيها الكفار وغير المؤمنين. هكذا ومن دون أن يكون لي أي دور تم تكوين شخصيتي من قبل المحيط ومن ثم وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام مهام يفرضها علي نفس المحيط. فكيف احقق أشياء لستُ مستعداً لتحقيقها مثلاً: جميع الأهل والأقارب يلومونني على خجلي الزائد مع أنهم السبب في ذلك. في البداية كنت ألوم نفسي، لكن بعد ان تفتحت عينايّ على الدينا بقراءة الكتب، فهمت بأنني تمثال لما صنعت أيديهم وبشكل عفوي تطور لدي رد فعل عنيف وصل إلى ذروته بعد رحيل لقمان. غامرت بإتخاذ قرار بالذهاب للجبل وانضممت للعمل السياسي الذي فشلت فيه فشلاً ذريعاً واعتزلت كل شيء. وهذا كما أفهمه بعقلي الحالي ليست إلا ردود فعل ضد المجتمع. وكأن روح حالي تقول: ما دمت عاجزاً عن تجهيزي وتربيتي فلماذا رميتني إلى معمعة الحرب الضروس بلا سلاح ولا ذخيرة أيتها الآلهة المعدومة الشعور والضمير..؟! لقد فكرتُ بالانتحار مراتٌ ومرات، لكن جسارتي خذلتني ولم

أتجرأ على التنفيذ مع أن هذه الفكرة سيطرت على كامل وجودي خلال فترات معينة، خاصة بعد ظهور نتائج الامتحانات الماضية وما تلاهما من مواقف لا مسؤولة وبعيدة عن فهم ما أحياه من قبل الأهل والأقارب.

عدم قدرتي على تنفيذ أفكاري ورغباتي كانت تحولني إلى كائن مشلول وحياتي إلى جحيم لا يطاق. في السابق وعندما كنت إلى جانب لقمان، كنت أجد لوجودي معناً وقيمة أرضى بها غروري. ومع غيابه كنت كمن يسند ظهره إلى القطار ويسقط على ظهره بمجرد تحرك القطار، وعندما ينهض لا يجد ما يستند عليه يجلس عاجزاً، لانه متعود على السير وراء الآخرين. قد تسألي لماذا لا تطلب المساعدة..؟ حينها سأقول بأني لستُ متسولاً ولا مجرد ذيل. نعم شخصيتي ضعيفة إجتماعياً لكنني أملك غرورا مرضياً ومن المستحيل عليّ طلب العون حتى من والدي. لقمان كان أكثر من أخ ولم تكن بيننا أية فوارق ولا حساسيات، لكن الآخرين وحتى كريم الذي شكوت له معاناتي. لم أطلب منه العون. إلى أن مد يده إليّ، وبقدر رؤيتي لضعفي أتكبر وأتعالى عليه. فلدي جوانب قوية ولا تظهر لمن ينظرون اليّ من بعيد، لكن الذي يتعامل معي يدرك بأنني قد أجهدت نفسي وحصلت على تراكم ثقافي لا يستهان به، كما أملك عناداً يشبه عناد الحمير فما أن اؤمن بشيء لا أتراجع عنه حتى لو إجتمعت الدنيا عليّ ـ وهذا ما لم أصل إليه ـ إرتباطي بالدين كان تحت تأثير العائلة و نتيجة لجهلي بالعلوم، لكن ما أن فُتحتْ لي نافذة صغيرة من قبل لقمان حتى إبتعدتُ عن هذا الإعتقاد الذي يملأني رعباً. هذا الهرب لم يكن إيماناً جديداً، بل مجرد سير مع صديق محبوب. وبعد ذهابه، اكتشفت الفراغ الذي أنا فيه وفقدت حياتي معناها. وبدلاً من البحث عن طريق للحياة اخترت

الهروب منها وحملتُ معولي وبدأت بالغوص إلى الاعماق، إلى ان وصلت إلى حدود الفراق. في تلك الاثناء جاء كريم ومد يده فأمسكت بها، وها انا هنا. أجد وأعمل للنجاح، لأنه يعيد لي هيبتي ويمنع عني هجمات المحيط.

ـ ضمن هذه المعاناة. كيف تنظر إلى المرأة وما الدور الذي لعبته في حياتك، سلباً كان أو إيجاباً..؟ نظر إليها بلا تركيز على عضو معين من أعضاءها، وبسرعة خارقة مرت في ذهنه فكرة لم يقبلها وهي: "هل من الممكن أن ترغب بّي زينب كحبيب لها ". مسحها بكامل قواه وخجل من نفسه. فكيف تجرأ على التفكير بهكذا موضوع. تكسرت نظراته التي كانت موجهة إلى زينب وتراجعت كجيش منهزم مات قائده فتحول إلى فلول مبعثرة. شعر بالرغبة في الفرار عندما خطر بفكره إمكانية قراءة أفكاره من قبل زينب، وعندما لم يجد أي مفر لاذ بالصمت وهو يتجمد من الخجل.

اندهشت بدورها فلم تكن تتوقع أن يؤثر عليه هذا السؤال إلى هذه الدرجة. وقدرت بأن الجزء الاكبر من عقدته متعلق بالمرأة. انتظرت بعض الوقت وهي تنظر إليه ثم كررت السؤال بشكل آخر لتحرضه على الحديث:

ـ عندما سألتُ عن المرأة كان قصدي هو نظرتك العامة عنها ولم أقصد علاقاتك الشخصية..؟

دلخواز كان يعرف من مطالعاته أن الإعتراف ومناقشة المواضيع التي تسبب الخجل يلعب دوراً مهماً في التخلص منه، لذا تشجع وبدأ بلا مراقبة أو تحكم بسرد الأفكار. لم يكن يتحدث بل كان يتداعى ويبتهل. وكأنه أمام آلهة ستقدم له المعجزات ليبدأ بحياة جديدة.

ـ المرأة هي معظم حياتي ومجمع أفكاري. كانت الحضن الدافئ الذي وجدت نفسي ضمنه ولازلت أبحث عنه. إلا أنه نفضني عنه بعد أن تحول إلى غابة من الأشواك. إلى حقل من الألغام بل وكومة من الحجر. اذا مابقيتُ بعيداً عنها أكاد أتجمد من البرد والحرمان. أما إذا مددتُ يدي إليها تحرقني وتحول آمالي إلى عذاب لا يطاق كيف اعبر لك عما عشته ولازلت. لقد سقطت امي من عيني يوم عرفت بأنها تضاجع أبي، وهذه المرأة التي كانت الكون بالنسبة لي تحولتْ إلى مجرد إمرأة تسهر على خدمتي، هنا بالذات يكمن مأساتي. لقد ضعت بين الحب واللاحب، أما اختي الكبرى التي طالما حملتني وغمرتني بحبها. بين ليلة وضحاها قدمت جماعة من الغرباء. أحدثوا ضجة وضوضاء مزعجة لم أفهمها بعقلي الصغير ـ ذي السبع سنوات ـ لكن بعد رحيلهم زال عني انقباض الصدر. فقدتُ اختي، وعندما سألت عنها قالوا بأنها تزوجت. لم أفهم معنى هذه الكلمة، لكنني كرهتها وشعرتُ بخوف قد غُرس في قلبي. فالزواج له معنى واحد وهو فقدان احب الناس إليّ. وأيضا النساء اللاتي كن تزرنّ امي زال حبي لهنّ بعد ان كبرتْ وكبر عقلي بالدراسة، فحديثهنّ بلا محتوى ومجرد تكرار للماضي وموضوعه عن الناس وفضائحهم ـ النميمة ـ الكل سقط من عيني وكرهت المرأة التي أنا بأشد الحاجة إليها، أما شريكاتي في اللعب فقد أجبرنني على الحقد عليهنّ. ففي نفس الفترة التي اكتشفت فيها حقيقة الامهات، إبتعدتْ جميع الفتيات عنا نحن الشباب وليس هذا وحسب بل ان بعضهنّ أخفين شعورهنّ بالمناديل. لم افهم سبب كل ذلك ولم يشرحه لي أحد، وبذا تأكد لي جحودهن و عدم صلاحهن للصداقة. غضبتُ مثل باقي الشباب مع اننا كنا نحترق شوقاً إلى اللعب المشترك. فمشاركتهنّ كانت تضفي لوناً ونكهةً

افتقدناها- ولا زلت افتقدها إلى اليوم - وأنا معكي الآن لكني لا أحس بتلك السعادة بالرغم من الصداقة والثقة التي جمعتنا. لكني احس بأن جبالاً من الثلج وصحراء من الجفاف قد تموقعت في قلبي ويستمر الصراع الذي لم يعرف السكون منذ سنين.

" كان يتحدث والعرق يتصبب من جبينه مع أننا في عز الشتاء. وزينب تتألم لأجله ولأجل نفسها. فمع أن تربيتها تختلف عن تربية دلخواز إلا أن الفتاة ولكونها إبنة الخطيئة، فهي تعاني من التقاليد أكثر من الشباب".

في أحد تلك الأيام الثقيلة والحزينة التي أتذكرها بصعوبة بالغة، عندما كانت لوائح الممنوعات تزداد شدة وقساوة، لا أعرف كيف تطور الحدث - كان تقربي طبيعياً جدا. إحدى الفتيات ممن يشتركنّ معنا في اللعب حضرت برفقة والدتها إلى بيتنا، وبينما كانت المرأتان منشغلتان بالحديث والقيل والقال، أخذت بيد الفتاة وبدأنا باللعب كالأطفال، شاهدتُ الخوف يملأ عينيها فسألتها:

- لستِ كالسابق فهل أجرمت بحقكِ..؟

- لا لكن نحن الان فتيات ولا يجوز لنا التعامل مع الشباب.

- لماذا..؟

- هكذا تقول الوالدة وحذرتني بأن هذا الأمر سوف يؤثر على شرف العائلة في حال لم ألتزم به.

- وما علاقة شرف العائلة بصداقتنا..؟ لم تجب، واستمرينا باللعب، كنت ممسكاً بيدها وقريباً منها، في تلك الاثناء خرجت والدتها برفقة امي، وما أن شاهدتني معها في تلك الوضعية حتى تحولت إلى لبوة هائجة هجمت عليّ وحاولت ضربي

فتحاشيتها. عندئذ أمسكت بيد إبنتها تجرجرها وهي ترد شتائم قبيحة بحقي وحق إبنتها. كانت صماء تماماً ولم تنفع جميع كلمات ومحاولات والدتي في التهدئة من روعها، واستمر هياجها إلى أن خرجت من البيت وهي تعلن بأنها لن تدخل هذه الدار مرة ثانية. حصل كل هذا وأنا متجمد في مكاني كحجر ذاهل خائف. عادت والدتي وهي تجر خيبتها في إرضاء زائرتها، أمسكت بيدي وقالت: لا عليك إنها مجنونة خاصة عند الغضب. عندما حاولت أن أسالها " ما ذنبي أنا حتى قامت بالهجوم عليّ" لم يتحرك لساني لان الدموع لم تدع له أية فرصة. لقد بكيتُ كثيراً، وكلما سعت الوالدة للترويح عني وتهدئتي كان قلبي يمتلئ بالحزن ولم أفهم سبب تصرف تلك المرأة الوحشية..! بعد أن جفت منابع الدمع في عيني وتحول رأسي إلى طبل من الوجع، رغبتُ بالتمدد على فراشي للنوم. عندها قالت الوالدة: عليك منذ الآن أن تكون دقيقاً في تعاملك مع الفتيات، فسبب حادث اليوم وجنون تلك المرأة هو إمساكك بيد إبنتها. لقد أصبحت شاباً ولا يحبذ أن تستمر في تصرفات الطفولة، ومن المؤكد أنها ستعاقب إبنتها، فهي فتاة وعليها أن تصون نفسها، التي هي شرف العائلة.

أيام عديدة تلت الحادثة ، لكن صورة المرأة لم تبتعد وتغادر مخيلتي. أينما أنظر آراها أمامي تهجم عليّ وتهددني بالموت في حال تقربي من إبنتها، هكذا في النهار أما في الليل فهي بطلة الكوابيس التي تحرم عليّ النوم. منذ ذلك اليوم شيد جدار بيني وبين الجنس الآخر. كان يرتفع يوماً بعد يوم إلى أن تحول لقلعة شامخة منيعة. في عقلي الباطني تركز هذا الضمير الذي يؤكد لي؛ أي تقرب سوف يؤدي إلى نتائج سيئة لك وللتي تحب". إبتعدت عنهنّ كارها وأنا أدوس بحذائي على عواطفي ورغباتي في العيش المشترك، وكلما زاد إبتعادي

كنت أتحول فيها إلى كومة من العقد النتنة التي تزداد قذارة إلى أن تشكلت هذه الشخصية التي تجدينها أمامكِ.

حديثه وإعترافاته كان ينغرس في صدر زينب كالسهام، تجرح فؤادها وتوضح لها الحقيقة بشكل فاضح. فجميع أطفال قومها والأقوام المتخلفة يعيشون معاناة يكفي ثقلها لهز عرش الآلهة لكنها تتحول إلى وقود تحرق أصحابها بدلاً من أن تتحول إلى طاقة وقوة تهجم على منابع الجهل وأوكار الإستغلال الذي يُكرسه نظام الظلم.

أما المرحلة التالية، فلست غريبة عنها، كنت دائما اترك بيني وبينهنّ مسافة تؤمن لي صفة المشاهد. أحببت الكثير من الفتيات، لكن عن بُعد وحتى في الحلم كنت أظل الطرف السلبي وأنتظر منهن البدء بالحوار والممارسة، أي لم أكن مستعداً لتحمل نتائج مثل هذه العلاقة حتى في الحلم. كان أصدقائي ولقمان في مقدمتهم يجملون لي الحب والعلاقات لكنهم لم يؤثروا على تصرفاتي في الواقع. والعلاقة التي تطورت بينك وبين لقمان خلقت لدي الأمل بالحصول على رفيقة مثلكِ. لكني اكتفيت بالترقب وإنتظار تقدم إحداهن لطلب ودي. لكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. فمن المستحيل ضمن واقعنا أن تتجرأ فتاة على البدء وطلب هكذا علاقة، أنا بعيد عن المرأة وأملك ثروة من المعلومات حصلتُ عليها من مشاهداتي ضمن العائلة والمحيط ومن قراءاتي للروايات وكتب التحليل النفساني. تعرفت على الطفلة والمراهقة والناضجة وأيضاً المرأة الام وأملك القدرة لفهم المعاني المستترة ضمن الجمل المنحقة وكذلك الملامح ولغة العيون، حتى ولو كانت نظرة خاطفة لأنني عاجز عن التمعن في عينيّ أية فتاة كانتْ، ومن كل ذلك أصل إلى بعض من النتائج؛ أولها أن المرأة تعيش إزدواجية رهيبة بين رغبات

الفتاة في العيش بحريتها مع من تحب، وبين ما يقدمه لها المحيط ويفرضه عليها من دور لا مفر منه، فتبدأ بلعبه سواء رغبت أو لا. ثانياً ما أن تصبح المرأة، فإما تبدأ بفرض ما كانت تنفر منه على بناتها لتتكرر المآساة التي لا تزال مستمرة.

ـ الآن فهمتُ سبب الصمت والتأمل الرهيب الذي تحياه، وأيضاً السبب في عدم تحولك إلى شاب تافه مثل الكثيرين الذين يطوفون الشوارع، يهدرون وقتهم هدراً وتشويهاً بحثاً عن أمر لا يفقهون منه شيئاً. لكن ونفس السبب هو الذي يمنعك عن أن تكون أحد المميزين والمبدعين في حياتهم وقراراتهم. هذا التراكم والمستوى الفكري إن لم يتحول إلى عمل منتج سوف يقضي عليك. فأنا اصدق تقديمك على الانتحار أو الجنون. لكني أرغب بمعرفة رأيك حول خصائص المرأة التي تجدها الأفضل برأيك..

على المرأة ان لا تتنازل عن حريتها، هذا قبل كل شيء. في هذا الموضوع لا أدعي بوجود أفكار ثابتة لديّ، لكن بداية عليها أن تتخلص من الجهل لأنه أول القيود، وثانياً أن تعرف نفسها كإمرأة لا كما يقال لها أو يفرض عليها جبراً أو تعليماً. عليها أن تحافظ على الحنان ويقظة الضمير بدلاً من التحول إلى قلعة لحماية الموجود والمحافظ.

ـ هذه عموميات لا يختلف عليها الراغبين في التجديد. لكن هل تملك فكرة عن الحب وعلاقات الجنسين قبل الزواج وبعده..؟

ـإنها آمال ورغبات وليست أفكاراً. أتخيل شريكتي جميلة المنظر غير متكبرة وعالية التعليم، تدرك الحياة وتعرف كيف تتعامل بصراحة. وقبل كل شيء عليها أن تكون صاحبة

شخصية قوية محترمة، تحترم ذاتها وتحترمني، وأن لا تلجأ إلى إستخدام جنسها بدلاً عن عقلها، كما تفعل نساء العالم، وأن لا تعرض نفسها في المزاد العلني، بل يكون الحب هو مقياسها الرئيسي للعلاقات. لكن وإلى الآن أجد بأن ما يحيط بكلا الجنسين هو مستنقع يتمرغان فيها. فحتى العلاقات التي تبدأ على اسس سليمة لا تلبث وتحت ضغط الظروف الاجتماعية والاقتصادية أن تقع في المستنقع وتعيش فيه وهي تظن بأنها لا زالت خارجه.

- وأنت أين موقعك من المستنقع..؟

- أنا مجرد حالم ومتأكد بأن اولى خطواتي سوف تأخذني إلى الهاوية السحيقة، حيث يستحيل عليّ حتى التفكير بما جرى. أحلم بفتاة صادقة مع نفسها ومع عواطفها لا تعرف المواربة ولا الإزواجية، ولا تقدم جسدها ولا حتى مجرد نظرة لمن لا يستحقها. لكن الموجود يبعث على التقيء. إنني أحتقر تلك المرأة التي تلد بلا حساب تترك على الأرض قنابل موقوته لا أحد يعلم متى وأين سنتفجر. أنا وإلى أن أجد القوة في ذاتي سوف أكتفي بالأحلام.

- وإلى متى..؟

-15-

انتهى نصف السنة الدراسية وكانت نتائج الإمتحانات مشجعة جداً لكل من دلخواز وزينب. أما سيبان فقد كان مستواه متوسطاً، لكنه لا يأبه لذلك فهو يريد النجاح فقط.

عاد الاشقاء إلى مدينتهم لقضاء العطلة، وظل دلخواز لوحده يعد الأيام إلى أن تعود زينب التي كانت بإستماعها إلى

تداعياته قد تحولت إلى طبيبة تشفي أمراضه وتشجعه على الحياة.

خلال العطلة التي تستمر خمسة عشر يوماً، كان قد وضع لنفسه برنامجاً لم يحُد عنه، فمعظم وقته يقضيه بالمطالعة وقراءة الكتب والمجلات التي يُحضرها له الرفاق، كما كان يزور غرفة مصطفى التي كانت بمثابة مركز للرفاق. وبشكل يومي يسير مشياً على الاقدام إلى أن يصل ضفة النهر ويبقى هناك أطول مدة ممكنة يتأمل الطبيعة ويحاول إكتشاف ما خفي منها عنه. يحاكي ذاته في حوار صادق يروح عن نفسه ويقويها.

بلا موعد مُسبق هبط عليه كريم كالمطر بعد الجفاف ففرح كثيراً. وبدأ يروي له ما أنجزوه من تقدم وكيف خطا خطوات جيدة في تجاوز حالته كما حدثه بمستواه الدراسي وعن سيبان وزينب و.....الخ. كان كريم يستمع بكل دقة، لكن ملامحه الصارمة لم تتغير بعكس دلخواز المبتهج. كان يخفي هموماً ثقيلة أحس بها دلخواز بعد فترة. فتوقف عن سرده العشوائي لأحداث الشهور الماضية. صمت ينظر إلى رفيقه ولم يحاول مسائلته فهو يعرف بأن كريم سيبدأ عندما يجد الوقت مناسباً.

ـ ألن تقدم لي فنجاناً من القهوة..؟

ــ امي ستحضرها وإن كنتَ مستعجلاً سوف أذهب لإحضارها...

دخل والقهوة بيده وضعها على الطاولة ووقف خلفه حيث كان ينظر إلى الصورة الجدارية، أحس بالضيق. فالصورة واضحة فما معنى كل هذا التأمل. قال لنفسه، صدق من قال "جميع الفنانين بهم حس من الجنون " ثم سعل بصوت هادئ.

نظر كريم إلى الوراء ليجده يقول: إلى أين وصلت قافلتك لقد بردت القهوة وأنت لا تزيل نظرك عن الصورة فماذا وجدت فيها.

جلس على الكرسي ورشف رشفة من القهوة بلذة وقال: أين هو الآن ياترى..؟ ألا يزل يصرخ ويطلق الشعارات الرنانة..؟ هل وجد ما كان يرجوه في الجبال..؟ حاولت بعين الفنان الفاحصة أن أكتشف حلته الروحية والنفسية..؟

ـ وماذا رأيت..؟

ـ إذا لم تخفِ عيني. فقد تغير ملامحه تظهر النضوج والتعقل، وهذا جيد وأعتقد بأن الظروف القاسية هناك تساعد على التغيير السريع، سلباً وإيجاباً.

ـ دائما كنتُ أنظر إلى الصورة لكن ومن خلالها كنت أتعمق في خوالجي، لذا لم أكتشف ما تقوله الان..

ـ ثقتي بلقمان كبيرة. نقصه الوحيد كان تسرعه وروحه الفوضوية والمغامرة، وأظن أنه قد تجاوز ذلك. لقد خطا خطوات كبيرة في الطريق الذي اختاره، أما نحن فلا زلنا نراوح في مكاننا إن لم نكن تائهين أصلاً.

استغرب للكلمات التي نطق بها صديقه لأول مرة ومع ذلك شعر بأن تلك الكلمات نابعة من صميم فؤاده.

ـ اذا كنت تقصدني بكلامك فلا خلاف، أما إذا كنت تقصد نفسك فلن أتفق معك. فأنت فنان محترف وتدرس في الكلية ولك مستقبل باهر.

ـ هكذا كنت افكر قبل ذهابي للكلية، لكن الآن ظهر لي مدى الخطأ الذي كنت فيه.

ـ وكيف ذلك..؟

ـ انهم هناك يريدونني مجرد ألة تصوير بيدهم. اصور ما يريدون وبالشكل الذي يحلو لهم. عليّ أن أكون مجرد ببغاء بلا عقل، اكرر الكلمات التي يرددونها. في الأيام الأولى سارت الامور على ما يرام. لكن ومع ظهور نوعية رسوماتي وتفوقها بدؤوا يتقربون مني بشكل خاص. حاوروني وأكدوا ليّ بان مستقبلي سيكون باهراً. بالطبع لم أكن مهتماً بما يقال ومعظم إهتمامي كان منصباً على الوصول إلى أكبر قدر من المعلومات والمهارات الفنية. لكنهم لم يكتفوا بالحوار، بل طلبوا مني رسومات معينة تمجد إنتصاراتهم في معارك لم يشهدوا فيها سوى الهزائم. يطلبون مني الكذب والنفاق وخيانة نفسي وفني. لم اقبل وتحججت بالدراسة وبامور اخرى، إلا أنهم لن ييئسوا واستمرت محاولاتهم الترغيبية التي أقلقت راحتي وشتتت خيالي. عندها أبديت لهم رفضي لمطالبهم. فبدؤوا بإستخدام وسائل التهديد والوعيد. اتهموني بالعداء للدولة والحكومة ونشروا الشائعات حول عضويتي في تنظيمات مناهضة لهم. بإختصار لم يتركوا أية وسيلة ولم يطرقوا بابها. كلفوا بعض المشاغبين من الطلبة بالتحرش بي وأوصلوا حربهم النفسية إلى ذروتها. وأنا الآن بين خيارين لا ثالث لهما. القبول بما يرمون إليه أو الخروج من هذه الدولة.

ـ هل هذا التصرف خاص بك وحدك أم شامل لجميع الطلبة..؟

ـ بحسب علمي هذه تقربات خاصة بالمتميزين، وبالذين يملكون الفن المؤثر على الجماهير.

ـ تتحدث عن الخروج لكن إلى أين وكيف..؟

ـ قبل مناقشة موضوع الخروج أي الاحتمال الثاني، هل أستطيع قبول شروطهم في الإستمرار بالفن..؟ الجواب الوحيد هو كلا. فأنا أرفض ان أكون حذاء يرتدونه إلى أن يهترء بعد أن يمرغوه بمختلف القاذورات والأوساخ، ثم يرمونه حيث العار. ولن أتحمل لعب دور ربطة العنق التي تزين صدورهم المليء بالمساوئ والعهر " لا أريد الا أن اكون نفسي حراً مع لوحتي وألواني" لستُ خائفاً من عقوبات قد يطبقوها بحقي ولا حتى من السجن، فلستُ من الجبناء، لكنني أهرب من هؤلاء الذين فقدوا خصوصياتهم البشرية..!! أهرب من رسم رسوم يفرضونها عليّ، ولو رسمتها سأكره نفسي ولن أتمكن من النظر في المرآة، حتى ولو فعلت يوماً فسوف أبصق عليها ثم احطم المرآة التي تستقبل شخصاً مثلي، بيدي. بلا مبالاة بالجرح الذي سيصيب هذه اليد التي ترسم لأنها مجرمة وتستحق القطع.

إنني أدرك الآن وبشكل لا غبار عليه الموقف الحاسم الذي اتخذه لقمان ورفاقه. فما معنى الإنسان بلا وطن، بلا قطعة أرض يحيا عليها بهويته وحريته. لذا سوف أقبل كل شيء وجميع أنواع الصعوبات والمشاق ولن أستسلم، وحتى الرسم سأتركه. لكن لن أقبل عروضهم المُهينة..!

هذا بخصوص الخيار الأول الذي حسمته بشكل نهائي، أما الخيار الثاني فلا زلت افكر فيه، فإلى أين أدير وجهي، إلى الجبل ام إلى المهجر، وأي المكانين ملائم للفنان لكي يقوم بالمهام التي تقع على عاتقه. هل أترك الفرشاة والألوان جانباً وأحمل السلاح والذخيرة. وهل الحاجة إلى المقاتلين ملحة أكثر من الحاجة إلى الفنانين..؟ هذه الاسئلة سأجيب عليها. لكن ليس الآن. فلا اريد الإستعجال، ولدي الوقت الكافي

للتفكير. فلا تشغل فكرك عليّ بل إهتم بالدراسة واحصل على الشهادة لأنها سلاح بحد ذاتها.

ـ انني توصلت إلى هذه النتيجة: على الإنسان أن يكون قوياً بنفسه، عقله وجسده، بقومه وبقضيته في الوجود ومن دون ذلك لا نفع للحق المجرد.
ـ سوف اودعك الان. على أمل اللقاء بالذي لا أعرف متى سيتم..!

ـ ها أنا على وشك فقدك كما فقدت لقمان من قبل، والذنب ليس ذنبي ولا ذنبكما..! على المذنب أن يدفع الثمن غاليا.

تودعا. لم يتمالك دلخواز نفسه، وذرف الدموع بينما كريم يبتعد رويداً رويداً يسعى للوصول إلى مدينته وأهله.

- 16 -

مرت شهور الفصل الثاني بنفس الوتيرة مع أن غيمة سوداء (وضع كريم) كانت تخيم على سمائهم تكدر النفوس المنتشية بالنجاح والتقدم الذي يحققونه في الدراسة. وفي العلاقات، بالنسبة لدلخواز، أما سيبان فقد تحول إلى مكوك يدور ويدور بلا توقف ضمن المدرسة وبعد الدوام حتى وصل الأمر باختيه إلى الشكوى من غيابه المستمر عن البيت وخاصة عندما ينام خارج المنزل، ولم تكونا راغبتان في إيصال الامر إلى والديهما ـ لكي لا تتطور المسألة وتتحول إلى مشكلة. لذا حاولتا النقاش معه بحضور دلخواز. لأن سيبان يحترمه ولا يفقد أعصابه بوجوده. كان يحترم اختيه لكن عندما يشعر بزيادة تدخلهما في شؤونه، الخاصة كان

يضع الحد لذلك التطاول بأن يصرخ ويخرج من المنزل ولا يعود إليه إلا متأخراً.

لم يكن راغباً بأن يظهر بمظهر الموجه أو المعلم ـ وهو يكره هذه الأدوار ـ بل يكتفي بإبداء الرأي بشكل مُبسط ومنطقي ويترك للمستمع الحرية في القبول أو الرفض.

حاول البدء بالحوار من نقطة لا يسمح بها لسيبان بالادراك بأن الاختين قد قامتا بشكايته، لذا ما أن جلسوا لتناول الشاي حتى بادر إلى سؤاله: إني أراك نادر البقاء في المنزل، ولم تكن موجوداً خلال زيارتي السابقة لكم.

ـ لا شيء جديد. انها همومنا السابقة، اقضي وقتي في زيارة الأصدقاء من المؤيدين وفي الليل أبقى عند الرفاق للمناقشة ولولا اختاي لبقيت عندهم بشكل دائم.

ليلى: لكنك بُتَ خارج البيت مرات عديدة، ولم تعلمنا بذلك، وفي تلك الليالي لم ننم من القلق والخوف عليك، لكنك تجد ذلك بسيطاً وكأن شيئاً لم يكنْ.

ـ في بعض الليالي وبسبب تطور النقاش لا أستطيع منع نفسي من الإستمرار فيه، وعندما يجبرنا التعب والإنهاك على التوقف أجد الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. عندها يمنعني الرفاق من العودة بسبب تأخر الوقت.

ـ لكن هذه الحجة لا تمنحك الحق بتركْ اختيك على بساط من نار. وعليك أن تبرمج وقتك ما بين الدراسة ونشاطك الوطني وواجبات المنزل. من دون أن تقتصر في أي منها.

ـ عن أية واجبات تتحدث.. ان دماغه مشغول بالفعاليات مئة بالمئة، وقد حذف الدراسة من قاموسه والبيت بالنسبة له

مجرد فندق ينام فيه، وهو لا يعتبرنا من مؤيديه، فلو كنا كذلك لزارنا وتحدث إلينا كما يفعل مع الآخرين.

ـ لا خوف على دراستي ونجاحي مضمون، أما الامور الاخرى فهي شخصية وتتعلق بي فقط. فمتى سألتكما عما تفعلان..؟ إني أترك لكما حرية التصرف وعليكما ان تتعاملا معي بنفس الطريقة. وصغر سني لا يمنحكم الحق لمحاسبتي على أفعالي.

ـ لماذا تنظر إلى الامر من الزاوية الضيقة..؟ النقاش حول موضوع معين يساهم في إغناء الفكر ولا يعني التدخل في امور بعضنا البعض هذا من جهة، ومن الجهة الثانية نحن أقرب الناس إليك وهذا يمنحنا الحق بإبداء الرأي حول تصرفاتك. ولو رفضت ذلك هذا يعني رفضك للعلاقات الإنسانية. فكل منا حر بتصرفه من دون ان يلغي حرية الاخرين، وأيضا نحن مسؤولين عن إصلاح أوضاع من نحب. ألست الذي يتجول بين الطلبة ويقوم بالدعاية للوحدة والتضامن والعمل المشترك.

ـ لكل مرحلة ولكل فرد امور أساسية وثانوية. والامر الاساسي بالنسبة لي هو العمل الوطني والمبدئي، لا حياة بلا حرية الوطن. ويمكن أن تعارضوا رأيي وأن تجدوا فيه نقصاً لكنه مبدئي. ها كم مثال أخي كريم، فالرسم هو معظم دنياه ولأجله يفكر بالهجرة إلى الغربة.

ـ ألست قليل التجربة حتى تتخذ مثل هذه القرارات الحاسمة، كريم يكبرك سناً وهو في الجامعة الان. لكنه ياخذ رأينا جيمعا.

ـ لا أكره الحوار وكثرة الآراء، بل أرفض ان أوجه مثل الاطفال من قبل أي إنسان كان.

ـ لكنك تنفذ أوامرهم بالحرف الواحد.

ـ بإنزعاج شديد: أرفض ان تتحدثي عنهم، وإستمرارك سوف يجبرني على الخروج من المنزل و....

دلخواز: على رُسلك. يجب أن نصل إلى حل منطقي يرضي الطرفين، لذا على الطرفين إبداء المرونة اللازمة وبدون ذلك ستنتفي شروط العيش المشترك. بحسب رأيي يجب ان تكون سنوات الدراسة الثانوية هي المحك لوصولك إلى القرار باختيار طريق المستقبل. لن أقول بأن تترك الفعاليات، فذلك غير ممكن، لكن عليك أن لا تقطع حبالك مع الدراسة والعائلة، لكي لا تفتح على نفسك أبواب الندم والحسرة. وعليك التمتع بنفس طويل. فهنالك العديد من الشباب الذين تسرعوا في خوض غمار النضال. ومن ثم عندما لم يجدوا في انفسهم القدرة على الإستمرار، ارتدوا بوجوه مُعفرة بالتراب. فلا تكن عبداً لعواطف الشباب الجياشة ولا تقبل بالخضوع للتقاليد البالية وإستخدم العقل الراجح لتحليل الواقع والإحتمالات. استمع إلى جميع الاصوات، ولا تقع تحت تأثيرها، إلى ان تتمكن من الاختيار الافضل.

ليلى: كيف تمنحه الحق في إتخاذ القرار بإنهاء حياته..؟ وهل هذه هي الحرية الحمقاء..؟ أنت بكلامك تفتح له طريق الجبال وتجده شيئاً مشروعاً، لن أقبل ذلك مطلقاً، لم أرغب في التدخل في علاقاته، فوالدنا ربّانا على احترام رغبات بعضنا البعض. لكن ليس إلى درجة القاء نفسه إلى النار.

ـ من قال لكِ ذلك. إنني لا افكر بذلك الذي تتحدثين عنه. فلا تضخموا المسألة، توجه بكلامه إلى دلخواز، الدراسة التي قدمت إلى هذه المدينة لاجلها سوف انهيها بنجاح وتفوق. أما موضوع البقاء في البيت، فساحاول عدم البقاء خارجه ليلاً.

كان دلخواز يدرك تماماً، بأن سيبان يتهرب من المناقشة ولن يستمع إلا إلى صوت قلبه. إنه الان ضمن حلقة الرقص ينتشي بعنفوان خلقته الثورة، لن يوقفه أي عائق. فلا العائلة ولا مغريات الحياة... إنه يرنو إلى الامام إلى الهدف الذي يعيش معه وبه.

الفصل الأخير

لأول مرة يحاول شق طريقه بمفرده. من دون آن يكون مقاداً من قبل الآخرين. نعم حياته وماضيه، هويته، يوجهه ويديره بشكل موضوعي. لا تمر تجربة في الحياة بدون ان تترك أثراً يصر ويظهر العناد لإبعاد الصور والخيالات والأفكار التي يمكن أن تؤثر على إختياره. يسعى ان يكون قراره نابعاً من ذهنه وقلبه. لأنه يدرك بأن الجبر والسير بحسب التيار نتيجة لعدمية الإرادة، لذا ينفر من شخصيته القديمة. وحتى هذه الفكرة لا يستسلم لها. فهو يبحث عن الامر الأكثر قرباً للحقيقة. فلو كان مسايرة التيار أمراً حسنا لن يرفضه، بل سيحمل حقيبته ويركب السفينة. أما إذا كان العكس هو الصحيح، عندها يجب مواجهه التيار والسير بعكس الاتجاه بما يعنيه من مخاطر وويلات وسقوط سريع اذا ما كان جاهلا بامور العوم. إنه الآن موجود على ضفة نهر، ينظر بشوق إلى الضفة الاخرى وإلى الوراء منه مدينة احتضنت طفولته وشبابه ولن ترفضه في الكهولة والعجز. لكن المدينة قديمة وتستند على اسس يصعب على أمثال

دلخواز هزها. إنها لا تقبل إلا من ينضم إليها ويقبلها كما هي. فهي كالمعدة تهرص كل ما يدخل اليها من طعام، وتتقيئ الاشكال غير المرغوبة من الاطعمة.

العيش في المدينة والقبول بها كما هي، بإيجابياتها وسيئاتها، عادة متوارثة من الاسلاف، فما بال دلخواز لا يهدأ على حال ولا يرضى بما قدر له من مصير...

الضفة المقابلة، برغم ما تظهره من أشكال الصعوبات المختلفة، أكثر جاذبية وتعد بحياة جديدة بعيداً عن الخمول والجمود. لكن هل ستكون النهاية ..؟ هل ستؤمن الاستقرار..؟ أم هنالك ضفاف وضفاف..؟

ينتهي العمر ولا ينتهي العوم.

ممدد تحت ظل شجرة باسقة، مغمض العينين، لا للنوم بل للتأمل في أعماق نفسه يسألها عما تريد وإلى متى ستظل عاملاً في ترددد. قالوا عنها " الإمارة بالسوء" لكن نفسه لا تكتفي بالسوء فقط، إنها نهمة لا ترضى ولا تشبع. بل ذئب جائع ضمن الضباب، فويل لمن يقع بين براثنه. نفس دلخواز قوة تخريبية مدمرة موجهة إلى الداخل إلى روحه تجعله في صراع دائم، يفتح عينيه ليجد النهر الذي لا يملك نفسا لتكون عائقاً أمام سيره الأزلي. إلى السمك الذي يظهر فجاة ليختفي إلى الاعماق، وإلى الاشجار التي لم تكفِ عن تقديم الخدمات رغم سوء المعاملة التي تتعرض لها من أشباه البشر أعداء الطبيعة. يحس بالهواء العليل الذي يشرح صدره ويتصور اليوم الذي ستلوث الاجواء بالكامل من جراء جنون العظمة عند الهة البشر، فيسيطر عليه الرعب ويحقد على المنافع التي لا تعترف بالحدود والاخلاق.

بينما كان يتجول بين الواقع والخيال، سمع وقع أقدام خفيفة تقترب منه ببطئ، فرفع رأسه ونظر إلى جهة الصوت لكنه لم يظفر بمراده بسبب كثافة الاشجار والخيزران. الصوت كان يتقدم نحوه وهو يقلب الإحتمالات الممكنة في رأسه، فلا يستقر على أحدها، إلى أن ظهر ما لم يكن يتوقعه، فإرتبك باندهاش. لم يكن القادم إلا فتاة في مقتبل العمر. اتجهت إلى مجلسه مباشرة. سلمت عليه وطلبت الاذن بالجلوس، حتى قبل أن يأذن لها كانت قد جلست، لم يستطع تفسير ما حدث. فمن أين جاءت، وكيف تتجرأ على التجوال لوحدها في هذا المكان البعيد عن المدينة..؟ وأكثر من هذا وذاك ها هي تجلس بجانبه تنظر إليه مباشرة تتفحصه من أخمص القدم حتى قمة الرأس. من عساها تكون هذه المتحرشة..؟ كان يسأل نفسه بلا فائدة. انتظر أن تبادر إلى الحديث أو تطلب خدمة ما، لكنها لم تفعل..! ولكي يتخلص من الوضع الحرج الذي هو فيه، تحامل على ذاته وتوجه بنظره إليها ليجد ما يبهر عينيه. فهذه الجالسة بجانبه ليست فتاة عادية. بل حورية من حوريات الجنة. كاملة الحسن فاتنة المنظر. كل جزء وعضو من جسدها يتمم الآخر " كل ما كان يرغبه من صفات جمالية متواجدة في هذه الزائرة. من شدة التأثر، نسي أن يسألها عن بغيتها كما كان قد نوى عندما هم ينظر إليها. ما بين الحياء والرغبة كانت نظراته غير مركزة. فما أن يبتعد بنظره عنها حتى تجبره الرغبة على العودة لسرقة نظرات اخرى.

مرت لحظات لا يشعر دلخواز بما حوله. فقد أخذ لبه وسيطر الجمال الآخاذ على فؤاده.

أما الفتاة التي تمهلت حتى تتعرف على نوعية هذا الشاب. اكتشفت فيه صراعاً دموياً بين الواجب الاخلاقي والرغبات،

بين النور والظلام. فما أن تتحرك الرغبة بجنونها يقف الواجب ككابح يعرقل تقدمها، وما أن يتحكم الواجب عن طريق العقل حتى تفسد الرغبة فكره. بين هذا وذاك يبقى بلا هوية ولا عنوان. إلى أن بدأت بإكمال ما كانت تقوم به من اغراء عام بالحديث والكلام المعسول. الامر الذي رجح كفة الرغبة وأضعف جبهة الضمير. حدثته عن بحثها عنه وعن مراقبتها له منذ مدة طويلة. خلال تجواله على ضفة النهر وبأنها قد وقعت بحبه من أول نظرة...الخ. كان راغبا في تصديقها بدافع الغرور الكامن في أعماقه لكن لم يستطع. فمن هذه التي لا يعرف حتى إسمها. ولم تقع في حبه من بين كل الناس من بين جميع الشباب المرح الذي يملأ الدنيا صخباً وضجيجاً. لم يصدق بعقله، لكن الرغبة التي تأكل جسده وجسد الشباب من أمثاله، كانت أقوى وجميع الظروف مهيأة وها هي الفتاة تنتظر على أحر من الجمر. وهو أعجز من أن يكون البادئ.

فهمت من نظراته المليئة بالحرمان والشوق. بأنه قد تجاوز ضميره وتناساه أو وضعه على الرف، كما يفعل أباءه وفعل أسلافه. اقتربت منه بالتدريج ـ لم يمانع ـ استولت عليه، فاستسلم لها، منحت نفسها فرضي بها. ولم يفكر بعواقب مثل هذا الفعل. الشهوة بلا مراقبة حيوان مسعور. بل سيل عارم لا عمل له سوى التدمير. وبينما غارق هو في سحر رضي بحلاوته. سمع ضجة وأصوات اقدام عديدة. خلال لحظات معدودات ظهر رجال ضخام يحملون عصي وهراوات حاصروه ـ وهو في وضع لا أسوء منه ـ إجتمعوا عليه يضربونه بكل ما يملكونه من عنف وقوة بينما سحب أحدهم الفتاة من شعرها وجرها خلفه وهو يتوعدها بعقاب لا مثيل له، استمروا في ضربه، عاد إلى رشده بعد فوات الأوان وأدرك

الاثم الذي ارتكبه، امتنع عن الصراخ ورضي بالألم وحتى بالموت. عيونه فقط كانت تبحث في الفراغ عن صورة الام، التي يتذكرها في حالات الخطر. فهي الأمن والسلامة، يراها تفتح يديها وتطلب منه الإرتماء إلى حضنها. لكن محاولاته تفشل. وكل عضو من أعضاءه مشلول تماماً. والألم لا يطاق حتى إنه بدأ بالبكاء والنواح مثل الأطفال. بلا مقدمات توقف الضرب فرفع رأسه يستطلع السبب فلم يجد أحداً. إندهش عندما وجد بأنه لا يزال حياً، كيف تركوه بدون أن يهدروا دمه. نظر بتمعن لم يجد أية آثار تدل على قدوم أي رجال ولا على فتاة أغرته فضاجعها، خجل من نفسه. إذا كان الامر حلماً. يا للهول حتى في الحلم يمنعه ضميره من اللذة والمتعة ولو سمح للحظة تنقلب إلى كارثة " الضمير مفهوم نسبي يتبدل بتبدل الظروف والزمان".

ضاقت به الارض على إتساعها ولم تعد الطبيعة تشير فيه تلك الحواس والمشاعر الطيبة. وهو الآن ينظر إلى غابة الشوك النامية في أحشاءه وإلى قطعان الحيوانات البرية التي تتصارع من أجل البقاء ـ البقاء للاصلح ـ ينظر إليه كما ينظر الاله إلى عباده من عرشه العالي. وعليه أن يؤيد أحد أطرف النزاع ليتفوق ردحاً من الزمن ويعود الاستقرار إلى جسده كما كان في أيام خلت.

وقف منتصباً وهو يستند بإحدى ذراعيه على الشجرة. رفع رأسه ناظراً إلى السماء وبدأ يخاطب سكان مملكة السماء بلهجة مغايرة للهجة المصلين والمؤمنين. فهو الان يشعر بنفسه مظلوماً مهضوم الحقوق لا مرتكبا للاخطاء: يا من تدعي القدرة على فعل كل شيء وبلمح البصر. ما الذي اقترفته بحقك حتى تبتليني وتُحول حياتي إلى مأساة. لم أراك ولا أعرف يقيناً هل أنت موجود أم لا..؟ الناس في جدال

مستمر حول ذلك، وأنا لا أبحث عن وجودك أو عدمه، فقد وثقت وأمنت بكَ لفترة طويلة. إلا أن مسيرة الحياة بعثت الشك في قلبي وانهار نظامك أمام بصري ولم أجد بديلاً عنه إلى الآن. لقد قذفتني إلى المحرقة بلا رأي مني وقلت تجنبوا النار. خلقت الشهوات وتوصي الناس لتفاديها. ومن لم يفعل تهدده بعذاب أبدي أشد مما نحن فيه أصلاً.

ـ البدء من العدم والسير البطيء المليء بالمعاناة إلى نفس العدم. فما هي العبرة من كل ذلك وهل حقاً أن الإنسان ليس إلا ظلاً لمشيئتك. أرى نفسي وكانني ضمن مستنقع لا أول له ولا آخر حتى ولو قضيت العمر كله في العمل لتجفيفه أو في المحاولة للخروج منه، لن أتخلص من الرائحة الكريهة التي وصلت حتى نقي عظامي.

بحسب بعض أصحاب العقول النابغة. فمن يقال بأن افكارهم في تراجع وضمور، لكنها مثل الجمر تحت الرماد، قوة كامنة يحتمل تحولها إلى حريق رهيب " في كل لحظة" ليلتهم بقايا العالم: هذه الحياة الدنيا ليست إلا جسرٌ وممرٌ فاني والهدف منها هو الوصول إلى الدنيا الأبدية، وشكل الحياة في الدنيا هو المقياس للحياة الاخرة ـ جنة وجهنم ـ لكن شروحاتهم لكلا النتيجتين لا يمنح المرء في زماننا المتحول، الرغبة للعمل من أجل الوصول إلى نهاية الطريق، ومعظم الناس يتمنى عدم تواجد أية حياة اخرى بعد هذه التي نعاني منها.

في هذه الأيام تختلط الالوان وكل شيء مُصنع والأقنعة تخفي الوجوه الحقيقية. أما دلخواز الذي اختلط في ذهنه الحابل بالنابل وتعثر مراراً. فهو الآن واقف على قدميه ويسعى سعياً حثيثاً من أجل تمييز الحقيقي من الألوان عن المزيف منهما. يحب الالوان الناصعة ويكره الظلم والشر.

يحلم بالعيش النهائي بين اناس ذوي عقول نيرة ونفوس شريفة. لكن ما أن يفتح الافواه وتتحرك الألسن، حتى يدعي الجميع تمثيله للنور ومعاداته للظلام. لذا عليه أن لا يقرأ السطور، بل المختفي في طياتها. فليس كل من لبس ثياب الانبياء نبياً، ولا كل من ردد كلام الخيرين يصبح شهماً. والعبرة بالنتائج.

تعب من الوقوف، وأحس برغبة في شرب كأس من الشاي الساخن. تذكر الشاي عندما قرب الشاي ليشربه. فمن يدها كان الشاي يتحول إلى ألذ مشروب في الكون، التي إشتاق إليها وإلى حوارها الهادئ الرزين. كانت تقول له: إنك تملك جوهراً نقياً. ولم تتلطخ يداك بالموبقات لذا عليك الحفاظ على هذا الجوهر وعلى نفسك بعيداً عن آكلي لحوم البشر وصياديّ الفرص على حساب الاخرين.

إنها التي أعادت له الرغبة في خوض غمار الحياة. فالمرأة مرآة المجتمع. وقبولها لدور الظل يعني بقاء المجتمع تابعاً يؤكل قمحه ويرضى بالشعير. المرأة التي تلبس البياض على فكرها الغامض لا تزيد على كونها مجرد ظل إلا في شكلها الأكثر إيجابية وقدرة على التخريب وطرح المجتمع كسوق للصوص والسماسرة. إنها العقدة وبيدها المفتاح. تملك قدرات عظيمة كامنة، وطاقات لا تعرف النضوب. والرجل مجبر على مسايرتها كما تساير الحرباء الطبيعة في لونها.

موضوع حواء ولعنتها التي شملت البشر جميعاً أوجع رأسه. فرغب بالعودة إلى المنزل. لكن بحثه عن سر الوجود يستمر ولا يعترف بالمكان والزمان. فهل هذه الحياة بحر نغرف منه اللذات والمتع..؟ هل هي ملهى للغرائز السائبة التي ما أن تعتقد بانها قد شبعت حتى تهجم عليك مطالبة

بالمزيد ولا تعرف الارتواء الا بالموت..؟ ام هي كدح جسدي بلا فكر، وسير كدوران الثور المعصوب العين حول حجر الطاحون..؟ إن لم تكن هذه، فما بال الملايين يتخبطون كالبلهاء يتكاثرون ويعيشون ثم ينحدرون إلى القبر من دون أن يكون لحضورهم أي معنى ولا جلبت حياتهم معها أي جديد..؟ فالبحث عن لقمة العيش لاسكات جوع الافواه التي لا تعرف الشبع وبقاء العيون غير مرتوية إلى نهاية العمر لا يتجاوز كونه شيئاً روتينياً يحدث كل يوم لاناس من نفس العجينة. وقد يكون موقفاً مشرفاً، وقامةً منتصبة وبحث دائم عن الحرية، مع تحمل سهام الإتهام من عيون وألسنة حماة الحياة الكئيبة والراكدة، وإستقبال رصاصات الاغتيال ممن يرفضون اقتسام الحرية ويصرون على تحويل الارض والبشر إلى طعام لإملاء البطون وفروج لتطمين الشهوات الحيوانية. أو تكون إكتفاء بلقيمات وشربة ماء لكسب أكبر قدر من الوقت للخوض في أعماق النفس بحثاً عن الروح في حجرها السري.

بين هذا وذاك وتلك يجد كل الموجودات لا تعني له أي شيء، وهو قادر على الاستغناء عنها بصبره وعناده. إنه يبحث عن غذاء لروحه، عن قيم تضفي معنى على وجوده وتزيد رباطه مع الحياة. ولولا ثقته بوجودها في مكان ما لما تحمل ولم تكن سخريات ما بعد الموت لتمنعه عن التمتع بكأس من السم. إنه واثق مما يبحث عنه... فمن أين جاءت عظمة الانبياء والفلاسفة والقادة وأتباعهم من طلاب الحياة المليئة بالنصر الروحي ضمانة النصر المادي. فكيف به والوصول إلى تلك الينابيع التي لا تعرف البخل بل تهب مياهها بسخاء، لكل طالب مجتهد وصابر جلد.....

وعندما هم بالنهوض. كان قد اجتاز إلى الضفة الاخرى من نهر خابور، و.....

عبد الرزاق داوي (أورهان بيار)

13- شباط - 2003

E-Pirtûk www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com